أحمد التوفيق

شجيرة حناء وقمر

رواية

مكتبة نوميديا 61
Telegram@ Numidia_Library

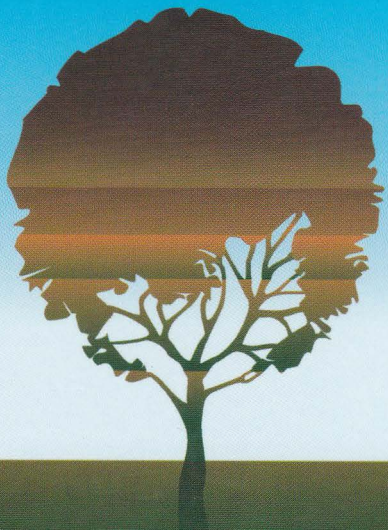

أحمد التوفيق

شجيرة حناء وقمر

رواية

دار القبة الزرقاء
للنشر والخدمات الثقافية
حي الانارة مجموعة 10 - الدار رقم 203 - مراكش - المغرب
الهاتف/الفاكس : 39.29.49 (04)

الطبعة الثانية 1422- 2001

حقوق الطبع محفوظة للمؤلف

نـشـــــــــــر : دار القبة الزرقاء للنشر – مراكش

قامت بتصفيف النص : فـوزية الكَـرني

رقم الإيداع القانوني 2001/0108 ردمك 9981-1820-1-X

إلى أمـــي

1

كان القائد عـلا[1] في تلك الأيام يجر بصعوبة عقابيل سنيه السبعين، ولكنه ظل محتفظا بمرح يظهر به ساخرا من الدنيا، شامتا بالمتشنجين من أهلها ممن يظنون أنهم يحسنون الحساب. كان علا قد انضم إلى عسكر السلطان بأحد الثغور، وترقى في الدرجات حتى بلغ، وهو يشرف على الأربعين، رتبة قائد المائة، وكان معروفا بالشهامة والإنصاف، ملما بالقراءة، حافظا في شبابه لكتاب الله، فكان بذلك يستحق أن يسمى ب "الطالب" أي الذي له نصيب من العلم وأن يلجأ إليه في مقامات ومواقف معينة تزيده الاحترام والوقار في أعين عوام العساكر.

وفي يوم من أيام سعد علا، أتته القيادة، ولم يكن سعى إليها ولا تمناها، فقد كلفه السلطان وأعطاه ظهيرا شريفا يتولى بمقتضاه قيادة قبائل الجبال الوسطى، لأن أهل هذه الجبال انقرضت أسرة القواد الذين حكموهم منذ مدة طويلة، انقرضوا في موتان جارف، ولم يتوصل من خلف من أبنائهم إلى اتفاق في ما بينهم على اقتراح أحد أعيانهم لينال تزكية السلطان ويسمى قائدا، على ما جرت به العوائد.

وصل علا إلى مقر قيادته راكبا على فرس، و كانت وراءه زوجته راكبة على حمار، وخادم استأجره بتلك المناسبة يمشي وراء حمار آخر، عليه حمل حاجات مما خف حمله، أما ولدهما، و اسمه همو[2]، فكان في سنته الخامسة، ثقيلا سمينا،

---

[1] - عْلاَّ، بسكون العين وفتح اللام المشددة المفخمة : اختصار اسم عبد الله عند بعض قبائل الجبال.

[2] - هْمُّو، بسكون هاء وضم ميم مشددة، اختصار اسم محمد عند بعض قبائل الجنوب.

قضى أيام الطريق يتنقل بين الحمار الذي عليه الأم والحمار الذي عليه الحوائج.

وصل القائد الجديد إلى حصن السوق، عاصمة إيالته، ودخل من باب العرب الموالي للسهل دون أن يشعر به أحد. ولما وقف على مقر سكناه وجد أنه لم يبق صالحا للسكنى من القصبة المخزنية القديمة غير برج وغرف قليلة في ركن من أركانها. بينما تحول كثير من جنباتها إلى أطلال تعشش عليها الطيور، والناس يتجنبون المرور بين تلك الأطلال حتى بمواشيهم، لكثرة ما شوهد فيها من جحور الأفاعي.

بحث علا عن إمام المسجد حتى وجده. فأعطاه الظهير، وأعانه على تهجيه، واسترده منه، وما لبث الخبر أن تفشى انطلاقا من المسجد، وتهامس الناس به وقالوا : وصل القائد الجديد، وصل القائد الجديد. فلما كان يوم سوق الخميس، وفيه يحضر التجار وأصحاب الحاجات من جميع القبائل، قام المؤذن بإعلان وصول قائد السلطان، واجتمع الناس تحت شجرة جوز يقال إن عمرها يزيد عن قرنين من الزمن وأن من نصب تحتها من القواد بلغ عددهم سبعة بهذا الذي وصل.

تجمع الناس يحدوهم الفضول، ورأوا القائد الجديد في جلباب أبيض وسلهام صوف محبب، وقرأ الإمام الظهير، وسلم من سلم، وتقرب من تقرب، وغمغم من غمغم، واستكثر الجميع على هذا الشيخ الأعزل أن يستطيع إحكام القبضة على دهاة الشيوخ المتحكمين في تلك الأودية. وفي غده الجمعة، أعاد الإمام تلاوة الظهير بجامع حصن السوق، وحضر عدد ممن فاتهم أن يحضروا تحت الشجرة وسط السوق في اليوم السابق. وكان علا، و بجانبه الإمام، ينظر في الوجوه ويتفرس في الملامح. وما أن أتم الإمام التلاوة حتى مد القائد يده وأخذ الظهير من الإمام وخبأه بحرص

شديد كما لو كان بإمكان أي واحد أن يسرق منه القيادة بمجرد السطو على تلك الوثيقة.

مكث علا شهورا في إيالته وهو يستخبر ولا يبادر، وكان أول من حمد سيرته قضاة القبائل لأنه لم يكن يتدخل في تزويج ولا في تطليق ولا في توريث. ثم شاعت بعض أحكامه في النزاعات فوجدها الناس منصفة، بل وجدوا بعضها طريفا وحتى مبتكرا في بعض الأحيان، فصار أصحاب الدعاوى يقصدونه وهو لا يكلفهم إلا قليلا، سيما إذا قاسوا هداياه بما يتحملون من الهدايا التي يطلبها الشيوخ إذا رفعت إليهم المظالم.

وبعد مرور عام على تولية القائد علا شرع في بناء دار متواضعة وسط أنقاض القصبة، ولما أتمها بنى إصطبلا واستقدم حامية سلطانية من عشرين محاربا ضبط بهم شئون سوق الخميس المقام بجانب قصبته و أسواق الجبال، وبذلك ضمن تحصيل الرسوم على البيع والشراء.

كان القائد يتوجه في بعض الأعياد بهدية إلى الحضرة العلية، حضرة السلطان، ولكنه لم يكن لدى الحجاب وكبار رجال الدولة معدودا في القواد المعتبرين، لا بمظهره ولا بقيمة واردات إيالته، وكان منعوتا عندهم بالخمول.

هكذا أمضى علا ثلاثين سنة يمثل السلطان ويجبي ما يتوصل إليه من الضرائب ويفصل بين من يصلون إليه من المتنازعين ويتجنب ضيافات الشيوخ، لا يدعوهم ولا يستجيب لهم لأنه لا يملك عدة الضيافات وقوامها ولأنه كان يخاف أن يتعرض لمؤامرة اغتيال بوضع السم في طعامه أو في موضع مؤخر القدم من نعاله.

أحس علا في العقد الأخير من قيادته أن أمور عيش الناس حتى في تلك الجبال قد طرأ عليها تغير واضح، فقد كثرت النقود ونقصت قيمتها، وتسفل الناس في أخلاقهم، وقلت البركة في

أوقاتهم، وكان يزعجه، على الأخص، ما كان يرى من أحوال ولده همو الذي صار كهلا. ولكنه يظهر ميولا كبيرة إلى التملك والتسلط وحب الظهور وإشباع النزوات حتى في الزواج والطلاق. كان علا على خلاف هذه الصفات حتى إنه لم يتملك طول حياته من الأرض غير بستان محوط يزرع فيه الفصة لبقرته. ولم تكن فرص التملك تنقصه، فقد كان المفلسون من محكوميه يوثرونه بأطيانهم كلما احتاجوا إلى بيعها. فكان يأبى حيازتها ويقول لهم قولة مأثورة عنه يذكر بها في بلده : تغولت س تاغولت أرامان، ومعناه في لسان الأمازيغ : من حقل إلى حقل إلى أن أبلغ البحر. يقصد بذلك أنه لو جرى وراء إشباع شهوة امتلاك الأراضي وتهافت عليها لما أشبع تلك الشهوة ولو ملك البر كله وامتدت أملاكه إلى البحر.

كان همو يتجرأ على أبيه فيذكر له أحوال القواد الآخرين وما هم عليه من النعيم وما يتمتعون به من الحظوة لدى المخزن، لا لشيء إلا لجسارتهم، وكان الوالد يكره ذلك الكلام من الولد، ولكن الولد لا يكف عن تهوين الأمور وهو يستحث والده في الخروج لشيوخ قبائل الجبال لقتالهم وهزمهم حتى يكونوا عند نظره في جميع أنواع التسخيرات والعطاء . وكان علا أمام كل هذا الإلحاح لا يزيد عن الاستماع واستمهال الولد خوف الكارثة. وأخيرا، وبعد إلحاح توالى على مدى الشهور والسنين، أذعن القائد علا لولده الطموح، وتركه يجرب حظه باسم أبيه، فكان أن ذهب همو في شرذمة من المقاتلين جمعهم من مختلف الآفاق ليأكل بهم شيخا اعتبره أحق الشيوخ بأن يبدأ به لأنه أسمن الشيوخ وأشمخهم أنفا حتى إن أبناءه إذا حضروا إلى السوق لا يتنزلون للسلام عليه وهو من هو، ابن القائد، إنه الشيخ احماد نايت ابرايم، وأرضه أبعد الجهات في الإيالة عن قصبة القائد، وأراضيه

التي تجمع بين أودية خصبة وواحات غنية هي أكثر تلك البلاد ثمارا، والشيخ احماد، إلى ذلك كله، أغنى الشيوخ، بفضل تجارته مع جهات الصحراء التي يحاذيها من جهة الجنوب.

مر أزيد من شهر على خروج همو لحصار الشيخ احماد دون أن يتمكن من اقتحام قلعته الحصينة، وكلما جاء مخبر من جبهة الحصار إلى القائد علا بما لا يرضيه اغتم وزفر، و ربما سعل حتى يكاد تنفسه يختنق . لقد تكرر بالفعل في تلك الأيام استيقاظه من النوم بسبب اختناق التنفس، ولم تعد تفيد وصفات العطارين في التخفيف عنه من آلام النفخ الذي ظهر على جانب من صدره الأيسر.

تناول علا طعام وقت الضحى في يوم من تلك الأيام مع جملة من ذوي الأغراض الذين قصدوه .و لما صرفهم خرج إلى بهو الدار، وتمطى بجسمه في الشمس ورأسه في الظل، وأمر خادمه المقرب إليه أن يخيط له شقوقا في قدميه أحدثها البرد، وأمر خادما آخر أن يذهب إلى الملاح، وهو حي اليهود، ويستقدم جليسه ونصيحه وصاحب سره وحاجاته، باروخا.

وصل باروخ ودخل إلى دار القائد علا وسلم وجلس، وكان الخادم الأول قد أنهى خياطة شقوق قدمي علا، فبادر القائد صديقه اليهودي قائلا :

– هل جئت مستعدا لتبكي من الهزيمة التي ستلحقك ؟

كان القائد قد اعتاد أن يلعب الشطرنج كل يوم مع باروخ، ولا يلعب مع غيره، لأن ميزة باروخ أنه مخلص في لعبه، لا يلعب في اللعب، يعطي للقائد فرصة الغلبة تارة وفرصة الانهزام تارة أخرى، والقائد يعتقد أنه لو لاعب واحدا من ملييه المسلمين لظهر منه ما يخل بالقواعد فيوهم ملاعبه أنه الغالب على الدوام، حيث يكون مدفوعا إلى ذلك التظاهر بدافع التملق أو النفاق للقائد. وعلا يفضل باروخا، فوق ذلك، لأنه يخبره، أثناء اللعب، بأخبار

جهات الغرب وأخبار الأسواق وأسرار دور الشيوخ والقواد التي يلجها، دون حرج، أهل ملته اليهود بحكم حرفهم الدخلانية. فباروخ ورث صداقة القائد علا من والده شليمو الذي كان أول من رحب بالقائد وأقرضه المال، و كان باروخ صغيرا إذ هو لا يكبر همو، ولد القائد، سوى بعشر سنين، وهذا ما جعل باروخ مؤتمنا ومقربا لدى الوالد والولد معا.

شعر باروخ أن القائد علا كان شديد الحرص على تحقيق الانتصار في الشطرنج تلك المرة، واجتهد مع ذلك في أن يجشمه تعب جولات عصيبة وأن يمتعه بانتصار صعب مجيد، إن كان ولابد من الاستسلام، وهو يعرف أن كل حركة ستكون مثار تعليق أثناء جلسة ما بعد العصر حيث يحضر المجلس ناس آخرون غير الشاهدين الحاليين، ابن الزارة وكبير الخدم بلال.

لم يشعر باروخ إلا وعلا قد نصب له كمينا على رقعة الشطرنج حاصره فيه من كل اتجاه، ورأى أنه سيجهز عليه كيفما كانت حركته، وأن اللعب لن يطول كما توقع عندما ظن أنه سيكون المتحكم فيه، ولاحظ أن أصابع علا ترتعش وتقطر عرقا، فهاله، وقد رمقه على تلك الحال، ما رأى بعد التفرس في سيده من احتقان وجهه وتسارع أنفاسه، فأراد أن يريحه بأسرع ما يمكن، ومد يده بسرعة ووضع البيدق حيثما اتفق، فبادر علا وقد داهمته نشوة استشراف النصر، وقال : مات شيخك، مات شيخك، فقال باروخ : الله يبارك في عمر سيدي، وماذا يساوي الشيوخ أمام معلميتك؟ وعندها تبسم القائد ووضع رأسه على الوسادة وكأنه لم يعد بحاجة إلى استنفار قواته، فاستمر يلعب وهو متكئ على جنبه الأيمن ويده تسند رأسه. وفجأة رآه باروخ ومن معه يسقط في شبه إغفاءة مباغتة، فتمعنوا فيه، ونظر بعضهم إلى بعض، ومسوا الرجل وقلبوه، فإذا به قد أسلم الروح.

2

وصل خبر موت القائد علا إلى ولده همو وهو يناوش الشيخ أحمد نايت ابرايم ولا يقوى على اقتحام قصبته، فقام ورفع الحصار ورجع بمقاتليه مسرعا يطوي الأودية وشواهق الجبال، فقطع في ليلة واحدة ما يقطع في يومين وليلة.

وجد همو أن والده قد ووري لحده، وتلقى التعازي من أهل البلدة مسلمين ويهودا، وتوالت الوفود من كل جهات الإيالة ومن القواد والشيوخ المجاورين، وكلهم اعتبر أن الولد هو وارث أبيه إلا الذين كان همو يتحرش بهم في أطراف الإيالة وتخوفوا من أن يأخذهم رهائن إذا حضروا لأداء واجب المواساة.

وبعد أيام خرج همو و تغيب خفية عن قصبته ثلاثة أيام لا يشعر به أحد، وكان توجه على ما يرام إلى مراكش ليقدم التعازي في والده إلى الأمير خليفة السلطان هناك، وطلب منه أن يستأذن له حضرة السلطان بفاس في القدوم مع أعيان إيالته لطلب توليته في القيادة مكان أبيه. وقد صاحب همو في هذا السفر إلى مراكش الرجل المسمى ابن الزارة، وكان اليد اليمنى للقائد علا في تدبير شئون داره وترتيبات معاشه دون التدخل في شيء من شئون حكم الإيالة، كما صاحبه أيضا باروخ، كبير يهود ملاح بلدة حصن السوق. وكان همو كلفه بأن يتصل بتجار يهود في مراكش في شأن بيوع وأكرية وسلفات، استعدادا لمواجهة المصاريف الضرورية لسفره ومصاريف الاحتفال بتنصيبه بعد رجوعه وما يقتضيه ذلك من اتخاذ العدة المناسبة في البناء والأثاث والمهاداة والأعطيات المتنوعة الوجوه.

عاد همو بقروض ووعود، وشرع توا في بناء دار جديدة، وكان يستعد ليل نهار لرحلة فاس، يفاوض الشيوخ ويتصل سرا برؤوس

الفتنة في كل قبيلة ليستميلهم بمختلف الوسائل. وتمكن بعد جهد جهيد من تكوين وفد الأعيان الأربعين الذين سيتوجهون معه لطلب توليته من السلطان. استرهب الأقربين واسترغب الأبعدين. وبعد ورود الإذن الشريف ساروا في ركبه جميعا وكل يحسب حسابه.

تدلل الأعيان وتبجحوا على همو ومدوا عليه الرجل في طريق السفر، وتصبر هو على جسارتهم في طريق الذهاب إلى الحضرة، وقام بجميع لوازم سفرهم ومتعتهم حتى إنه كان كالخادم لهم. ولما وصلوا إلى الحضرة بعد عشرة أيام توجهوا إلى القصر. وفي الساحة التي ينتظر فيها للمشاورة تعرف عليهم المكلفون بالجلوس للمشورة واستظهر الوافدون برسالة الإذن بالقدوم التي تلقاها همو من الخليفة بمراكش، فأذن لهم المكلفون وعينوا لهم جانبا من المشور أقاموا فيه الخيام، وبدأ همو في الاتصال بأصحاب الوزير الذي يرد الأخبار على السلطان في مثل تلك الشئون. ولم تطل مدة انتظار همو حتى أخذ ظهير تعيينه على قبائل إيالة الجبال الوسطى وما يليها. صدر الأمر للقائد الجديد بالمرور قبل انصرافه على أصحاب البنائق، وهي مكاتب مختلف شئون المخزن، وهنالك زوده كل كاتب بالوصايا التي يتوجب عليه اتباعها في التعامل، ووقع تنبيهه على المواعيد التي ينبغي له أن يحضر فيها إلى الحضرة كل عام وعلى واجبات المسخرين الذين يردون عليه بالأوامر وعلى مطالب العسكر إذا احتاج إلى تعزيز، وعلى ما يترتب على إيالته من واجبات بيت المال.

كان همو قد حظي، وهو بحضرة السلطان ينتظر الظهير، بشرف حضور طعام عشاء عند وزير من الوزراء، فدخل بيوتا بتزاويق لا يتصور كيف تم صنعها، بيوتا تتدلى في جنباتها الثمار وتجري فيها الأنهار، ورأى نظام أداء التحية ومهارة المسخرين في

ترتيب كل شيء، وناله، وإن أجلس مطرفا بقرب الباب، ما نال غيره من المدعوين من إتحاف وتطييب بأنواع البخور وماء الزهر الموضوع في المرشات. وسمع صدور الجالسين تتحدث عن شئون العلم والسياسة و هو لا يفقه مما كان يسمع شيئا. وهكذا وجد نفسه يلعن حاله ويندب حظه و قد حاك في نفسه شيء من أبيه الذي قضى ثلاثين عاما في قيادة أجلاف يعيشون في شظف في قنن ووهاد بعيدة عن الحضارة دون أن يستسمنهم ولا أن يستحلبهم.

جمع همو في الليلة الأخيرة من مقامه بفاس جماعة أعيان إيالته الذين كانوا بمعيته، وأخبرهم بتسلم الظهير وأطلعهم على لوائح بالمتطلبات المخزنية، ووصف لهم بقول غليظ جهير قبائلهم بأقبح النعوت وبأنها من أرذل الأمم، ثم عين للشيوخ منهم ما يلزم كل واحد من معجل الوظائف ومؤجلها. ووصف لهم ما ينبغي عمله حتى يوقظوا إخوانهم من سبات الكسل وسيرة المخلفين.

وفي منتصف تلك الليلة طوى خيامه هو وغادر المكان تحرسه شرذمة من العسكر طلب خدمتهم من المخزن ليصلوا به إلى قصبته وينزلوا عنده ثلاثة أشهر يعينونه فيها على ترتيب أمور سلطته.

انصرف همو دون إشعار أحد، وكلف من يخبر الأعيان المرافقين له بأن عليهم أن يتوجهوا رأسا إلى بلدانهم وأن يعودوا في يوم معين إلى حضرة القائد مصحوبين بأعيان إخوانهم وعلى هيئة تليق بمراسيم الاحتفال بتوليته، كما أكد عليهم في القيام بما يتطلبه المقام من الشروط التي لا يحتاج إلى التنبيه عليها.

كان همو قد قدم أمامه باستعجال بعض أعوانه. قبيل خروجه من فاس، من يحث السير حتى يصل قبله ويعلم الناس بيوم وصول القائد العائد بالظهير، فكان يوم الوصول يوما مشهودا لم ير مثله ذلك الجيل من قبائل الجبال الوسطى ومن أهل حصن السوق خاصة. فقد انبعثت فيه. في تلك البلدة، مراسيم المخزنية

من مرقدها وتجددت بعد اندراس، وشعر الحكماء من الناس أنهم يودعون عهدا ويستقبلون عهدا جديدا، وأن هذا العهد الجديد سيعرف رواج كثير من البضائع.

جاء اليوم الموعود للاحتفال، وخرج همو في كتيبة من الجيش تضرب على الطبل، راكبا على فرس أبيض، متقلدا خنجرا من الفضة إلى يساره وكتابا مبجلا إلى يمينه. وتوجه إلى المسجد في الوفود، وقرأ الإمام ظهير تعيينه، وتليت الدعوات، والتحق الناس بالخيام خارج القصبة. وجرى الفرسان ورفعت الأعلام وأطلقت الزغاريد وانتحى أهل كل بلد جهة ونظموا فرجتهم في الرقص والغناء، ووزع أصحاب القائد شيئا من الصدقات على الأضرحة.

أُدخل كبار الأعيان والشيوخ إلى القباب التي فتحت لأول مرة في الدار الجديدة بقصبة القائد والجباسون لم يكملوا بعد كل أروقتها بالتزويق. والأفرشة والزرابي جلها مستعار، وإن كان اليهود المختصون بملء الطنافس بالصوف قد أنهوا عملهم على أحسن ما يرام وفي الوقت المناسب. وقدمت للمهنئين أنواع من الطعام لا عهد بها لكثير منهم، سهرت على تحضيرها طباخات استقدم همو بعضهن من عند جاره من جهة السهل، القائد العربي ولد الشهباء، واستأجر الأخريات من مراكش.

وبعد تناول الغذاء وأداء صلاة العصر جلس القائد همو في الخيمة الكبرى المنصوبة بجانب القصبة. وحواليه حاشيته والأعيان، ليتقدم للسلام عليه حشود العوام، وبحضور ذلك الملأ وقع أمر استطرفه الناس وجلب للقائد الجديد نكدا تكسر به أنف نخوته في ذلك اليوم : ذلك أنه كان من بين المهنئين أخلاط من الناس من الرجال ومن النساء اللائي لا حرج عليهن في البروز للرجال، وكانت من بين النساء امرأة توصف بأنها مجذوبة، تسمى فاضما تاعجانت، وكانت تغشى الأسواق، وفي كل سوق

كانت تجلس قرب رحبة الزرع، تجمع أمامها كومة من الحصى، تنتظر من يمد لها فلسا أو خبزا أو لحما أو فاكهة. فتارة تأخذ الأعطية ممن أعطى وتارة تردها في وجهه، وإذا أخذت منه أعطته حصاة أو حصاتين، وكان بعض الناس يؤكدون أنهم وجدوا لتلك الحصيات بركة ما. وكانت إذا استكملت بيع كومة الحصى عقدت على ما جمعت أطراف ثوبها وقامت تجري، تضحك في وجه هذا وتكشر في وجه ذاك، وتقذف بكلام مسجوع يفهمه كل على هواه.

جاء دور فاضما المجذوبة لتسلم على القائد همو لتهنئه، فتوقفت قبالته، وانتظر الناس ما عساها فاعلة، فإذا بهم يعجبون وهم يرونها تصبعه على سبيل الإهانة. بل إنها همت بأن تأتى مخرقة أخرى فتنفض بعض إزارها أمامه. لولا أن حراسا من العبيد بادروا إليها فأمسكوا بها بعنف و أبعدوها حتى أخرجوها من الخيمة وفتحوا إصطبل البهائم في القصبة وألقوا بها هنالك إلى أن يرى فيها سيدهم رأيه.

كظم الحاضرون ضحكهم وتعجبهم مما رأوا من المجذوبة، وتظاهروا أمام القائد باستتفاه ما حدث، وتواصل حبل المهنئين إلى قرب مغرب الشمس، وانصرف أهل البلد، ودخل الضيوف إلى الدار للعشاء، ودخل عليهم القائد همو وشكرهم ورحب بهم وانصرف ليختلي بثلة من أصحابه، وعلى رأسهم ابن الزارة وباروخ. وأحضر للقائد وأصحابه ما طاب من الأكل والشراب، وتنافس الأصحاب في وصف حفلة التنصيب بأعظم الأوصاف وبالغوا في دغدغة أحلام القائد وتغذية شعوره بعظمة المقام الذي صار إليه مع التلميح إلى مزايا الصرامة التي يتحلى بها والتي ستجعل عهده متميزا عن عهود من سبقه على تلك الإيالة من القواد.

3

كانت كلمات ابن الزارة إلى همو فيما تلا من الأيام أقرب إلى التوجيهات منها إلى النصائح. فقد تقمص ابن الزارة، منذ وفاة صاحبه علا، دور الحاجب الوصي على خلفه، وهمو لا يزداد إلا إعجابا بكل ما يمليه عليه أو يبادر به لخدمته.

وابن الزارة رجل طويل القامة، آدم اللون، قوي المنكبين، في وجهه حفر سابق من الجذري، يشعر من يسمعه وهو يذكر تجاربه أو يسمع كلامه في أحوال معاملة الخلق، وكأنه يسمع رجلا عاش عمر سيدنا نوح حتى خبر أحوال جميع الناس والأمم. وهو في الحقيقة لم يكن قبل عشرين عاما سوى نخاس سمسار في أحد أسواق الواحات، يتاجر في الرجال والنساء، إلى أن جاءت في البضاعة المعروضة عليه جارية ذهبية البشرة من فلان السودان، دقيقة الملامح، غزالية الملحظين، فاشتراها وآثر بها نفسه وهام بها، ولكنه ما لبث أن أحس أن الناس حاسدونه بسببها، وعرف مما توالى عليه من تحرشات كبراء تلك الجهة أنه لن يستطيع العيش مع جاريته المحظية في سلام، فما كان عليه إلا أن رحل يقصد إحدى مدن الشمال على طريق ممرات الجبال.

ما زال ابن الزارة يذكر يوم الرحيل مع صاحبته، يوم أخذ خفيف حاجاتهما في كيس تقلده، وحمل جرابا في يده، وحمّلها هي على ظهرها كيسا به ملابس، واتخذا وجهتهما نحو الجبل، وتجنبا المرور بالدواوير القريبة إلى أن استبد بهما ا لجوع والعطش من عناء اقتحام عقبات مقدمة الجبل. قضيا يومين وهما يصعدان، ثم دخلا في الممر الجبلي الأعلى الذي يفضي إلى سفوح جهة الشمال، واستغرقا فيه مسيرة نصف يوم، ثم أخذا بعدها في النزول. وعندها اضطرا إلى المرور بقرى السفح الآخر، والمرأة قد

تعمدت أن تبدو على هيئة تبعد عنها كل الأطماع، حتى إنها طلت وجهها بالحمم.

وعند ظهر اليوم الثاني من النزول ظهرت أمام ابن الزارة وزوجته قرية في منخفض. ثم اختفت عن منظرهما عندما اقتربا منها، وفجأة أدى بهما الطريق إلى دار كبيرة أطلا على بابها من فوق جرف فوقه صخرة كبيرة، وكان بباب الدار رجلان مسنان يقلبان بندقيتي بارود بأيديهما و قد فرغ كل واحد منهما لتوه من تنظيف آلته. تسمر ابن الزارة وامرأته في مكانهما لا يقدران على المضي إلى الأمام خطوة واحدة، يطلان من أعلى على الرجلين والقشعريرة قد سرت في أوصالهما، وتدارك ابن الزارة عبارة الأدب الواجب وقال :

– نحن ضيوف الله !

حملق فيهما الرجلان ثم استمرا منشغلين بما كانا بصدده. وقال أحدهما :

– من أي البلدان مجيئكما ؟

فأجاب ابن الزارة : من الصحراء يا سيدي.

فقال أحد الرجلين موجها كلامه إلى ابن الزارة : اصعد أنت فوق تلك الصخرة وقف على ساق واحدة !

عرف ابن الزارة أن الأمر جد وأن لا مفر ما دام مثقلا بزوجته. فحط حمله وتنحى جهة الصخرة واعتلاها ووقف على ساق واحدة كما أمر وهو يرتعد. كل ذلك والمرأة تنظر مسمرة في مكانها.

سدد إليه الرجل الذي أمره بندقيته وضغط على الزناد وانطلق البارود. لكن ابن الزارة لم يصب إلا برشاش جانبي تسبب له في حروق تحملها متجلدا وسموم الألم تقطع أحشاءه. جلس إلى الأرض وظن أنه وامرأته ناجيان بعد تلك المحنة، فإذا بالرجل الثاني يوجه أمرا مماثلا إلى المرأة حيث أمرها أن تفعل مثل زوجها

بالصعود فوق الصخرة. فالتفتت إلى الزوج التفاتة خاطفة ورأته يتلمظ من الألم كاظم الأنفاس. فلم تملك سوى أن تذعن.

سدد الرجل وأطلق النار على المرأة فهوت من فوق الصخرة وهي تصرخ. تصبر ابن الزارة وقام وتقدم منها فإذا هي لا تقوى على الحركة. ونظر إلى ساقها فإذا جعبة العظم بادية مهشمة من تحت اللحم والدماء تسيل على الرجل من كل جانب.

بادر ابن الزارة إلى ثوب فمزقه و عصب به فخذ المرأة لوقف النزيف. وخلصها وتخلص هو من كل الأحمال. وأردفها فوق ظهره ومشى. وكان الشقيان المعتديان قد دخلا إلى الدار وأغلقا من ورائهما الباب.

كان أول من وقف عليه ابن الزارة، وهو يحمل زوجته. حدادا ينفخ الكير في معمله. عرف الحداد حالهما وأشفق منه وضيفهما. وبعد شراب وإطعام واستراحة دل المضيف ابن الزارة على منزل جبار للعظم في قرية قريبة قصده بامرأته على ظهره، وعمل الجبار عمله بحرص. لكن ذلك العمل لم ينفع. وبقي ابن الزارة عند الحداد يخدمه وامرأته الكسيرة تسوء حالتها يوما عن يوم. فلما كان تمام الشهر لم تعد العقاقير تفيد في تخفيف حُمَّى جسمها إذِ اشتدت حتى كأن جسمها خارج من أتون الحداد وغطس في غدير الماء. ثم أصابها إسهال حاد حتى نشف جسمها من الماء، ثم اشتد عليها ثلاثة أيام و لفظت أنفاسها الأخيرة.

ذهب ابن الزارة يصحبه الحداد إلى المقابر وحفرا القبر. وعادا فحملا الميتة. ولما واريا التراب حمل الأرمل متاعه واتجه إلى حيث لا يدري.

عرف ابن الزارة من الحداد أن الشقيين اللذين جربا السلاح فيه وفي زوجته هما شيخ البلد وابن عمه. ومن ثمة كره المظلوم ذلك الجنس وتلك الخطة، وأقسم لينتقمن لامرأته قبل الممات.

وبعد أعوام من التطواف وتجريب مختلف الحرف، انتهى ابن الزارة إلى بلد حصن السوق ودخل في خدمة القائد علا. وكادت الأيام تنسي ابن الزارة جرحه القديم لأن مخدومه الأول، القائد علا، كان معرضا عن أمر الشيوخ لا يهمه أن يستفزهم. وكان ابن الزارة كلما حكى قصته أمام القائد قلب القائد له الأمر مزحة ومسخرة. أما ولده همو فقد نشأ في رعاية صاحب أبيه مقتنعا بإخلاص هذا الرجل لأهله. أما الآن والأمر قد صار إليه فهو أحوج إلى خدمة ابن الزارة و أكثر اقتناعا بحصافة رأيه وبعد نظره سيما إذا تذكر أن ابن الزارة عارض في زواجه من امرأتيه الحاليتين لأنه كان يريد لهمو زوجة من بيوت القواد مادام مرشحا لأن يخلف أباه في يوم من الأيام.

ها قد آن الأوان ليبرهن ابن الزارة مرة أخرى عن وفائه لصاحب نعمته علا ووريثه، وهو الآن في تلك الجلسة يتفرس في مخدومه القائد الجديد وهو متكئ يتناول زبيبا ورائبا. في فرجيته من الكتان الإفرنجي الحضرية التفصيل بسفيفتها وعقدها المائة. نظر إلى لحيته الفاحمة السواد وقد تناولها الحلاق بالقص حتى أظهر شباب صاحبها وأتاح لحاجبيه الكثيفين أن يبرزا فوق عينين يربك بريقهما كل المتذبذبين. وكأنما قرأ ابن الزارة ما يدور في ذهن مخدومه الجديد القائد همو في تلك اللحظة فبادره قائلا :

– سيدي القائد يحتاج إلى قايدة، وبها تكمل الفايدة !

تبسم همو وتهللت أساريره ولم يعلق على كلام ددًا مُح، هكذا درج على تسميته من الصغر. ولكن هذا الأخير تيقن أن القائد ينتظر منه أن يستمر وأن يقترح ويبادر، بل ينتظر منه أن ينفذ. فالتفاهم بين الرجلين يتجلى منذ مدة في تناغم باطني لا يحتاج إلى كثير من الكلام. وفي تلك اللحظة دخل مسخر يحمل مبخرة يفوح منها

المسك. فقفز ابن الزارة من مكانه وقال للمسخر : أين مبارك ؟ ناد مباركا يحضر في الحين !

حضر العبد الحاذق مبارك وتأكد منه ابن الزارة أن فاضما الحمقاء التي أهانت القائد ما تزال مودعة في الاصطبل. فأمره دون حاجة إلى أخذ رأي سيده بأن يحمل إليها بنفسه طعاما ويطلق سراحها ويصحبها إلى ضريح خارج سور القصبة حيث اعتادت أن تبيت.

لم يعلق القائد على ما دبره ددًا مح. وتململ من مكانه ليزداد استواء. وشعر ابن الزارة أن القائد يستدعيه ليعود إلى موضوع الزواج. فقرر أن يفاجئه باقتراح يعرف أنه لا يتوقعه. وقال :

– أرى لك أن تصفي النزاع الذي كان بين أبيك وبين القائد ولد الشهباء حول الحدود وتخطب ابنته. فهي بالغة لسن الزواج.

أطرق همو ثم رفع عينيه ونظر إلى ابن الزارة وهو يعرف أنه لم يثر الموضوع إلا وهو يعرف المزيد. فإذا الخديم يضيف و يقول :

لقد كلفت الأمة جميعة بمساعدة كبيرة الطباخات اللائى حضرن من عند القائد ولد الشهباء في حفلة تنصيبك. ومنها عرفت أن ابنة جارك قائد السهل اسمها السالمة. وأنها تصلح لك جدا بأوصافها. وأنت تعرف أن تمييز النساء كانت حرفتي. وعلمت من الطباخة أيضا أنها لن ترفض أمرا لوالدها الذي لا يحلم إلا باسترداد فدادين القنطرة ليكبر في أعين أهل قبائله. فحول العرب !

وصلت إلى مسامع الرجلين أصوات عزف يتهيأ له أهله في القبة المقابلة. ولم يكن القائد يتوقعه. فقال ابن الزارة :

– لما يزل في بيت النار حبة. فنحن لم نخرج الفرق كلها لفرجة العموم. بل أجلنا أحسنها لسهرتك. فالقائد لا ينام بنوم الدجاج. غير أن العازفين يجب أن يسكتوا الآن. فلم يمض على

العشاء سوى ساعة. والإمام والمصلون ينتظرونك في القبة الكبرى. قم تؤد هذا الفرض، ويدفع الطعام للناس. وسينقل العازفون إلى الدويرة الصغرى حيث نلحق بهم.

استمتع همو بليلته على نحو ما رتبها له ابن الزارة، وتبين للقائد أن حاجبه آخذ في عجنه. يريد أن يخرج منه شخصا آخر، فقد حمله على أن يصلي ولم يكن من قبل يلتفت للأوقات، وأجلسه لسماع القينات على هيئة لم تكن تخطر بباله، وجعله ينام في المكان الذي أراد. بدعوى الحرص على أمنه وعلى راحته. وأمام هذا كله خشي أن يقر في أذهان الناس إذا رأوا تلك السيرة أن القائد الحقيقي هو ابن الزارة، فلابد له إذن من أن يبدي حرونة أمام بعض آراء صاحبه، أمام الناس على الأقل. أما صاحبه ابن الزارة فلم يفته أن يقرأ في وجه القائد تلك التخوفات، وفهم أن عليه أن يحتاط حتى لا ينقلب الأمر إلى ضده إذا هو دفع بصاحبه بأقوى مما يجمل أن تسير عليه الأمور. أما زوجتا همو فقد شعرتا منذ تلك الأيام الأولى للعهد الجديد أن رحمة الله أقرب إليهما من عطف الزوج القائد.

وفي صباح غد يوم الاحتفال دخل ابن الزارة على القائد وأيقظه حيث رتب له أن ينام. وقدم إليه الفطور، وأخبره بما أصبح من أمور البلد، ومنه أن طباخات القائد ولد الشهباء قد تهيأ ركب عودتهن محملات بالهدايا والعطايا اللائقة، وهو يقترح أن يصحبهن بنفسه ويمهد للصلح مع جاره قبل أن يتقدم لخطبة ابنته. عندما أنهى ابن الزارة كلامه نظر إليه همو نظرة شزراء، ونفض يده من الطعام في حركة غضب، وقام دون أن يرد عليه بقول لا ولا قول نعم، خرج، ولم يره حاجبه طيلة ذلك اليوم.

4

أدرك ابن الزارة أنه قد شق على همو أن يسلم. بتلك السهولة، قبيلة وادي الخروب إلى قائدهم الأسبق، ولد الشهباء. فهم في موقع خطير بموطنهم بين القبيلتين، إيالة ولد الشهباء، وهم من عرب السهل، وإيالة همو، وهي تمتد على الجبال. وأهل الجبال زبناء لباعة الزرع من العرب إخوان ولد الشهباء، وأهل وادي الخروب أهل خصب، لكنهم تعبوا من كثرة مطالب ولد الشهباء فانحاشوا إلى القائد علا وانضموا إليه بعد إظهار مراسيم "العار" المسماة بالتعرقيبة، وهي التوسل طلبا للحماية بقطع رجلي ناقة من خلاف. وكانوا أعلموا السلطان بلجوئهم منذ عشر سنين دون أن يتلقوا أي جواب. ولو أراد ولد الشهباء أن يغير عليهم ويأكلهم أو يجليهم من أرضهم لفعل في صبيحة واحدة، ولكنه كان يخشى إن فعل ذلك أن يحول القائد علا ثم من بعده ولده همو، دون وصول إخوانه الجبليين إلى أسواق السهل التي منها ينتفع، وخشي أن يمنع العرب من إخوان ولد الشهباء من التردد على أسواق قصبة الجبل لشراء منتجات تلك الجهات، ومنها أحجار الملح المستخرج قريبا من حصن السوق، وهم لا يستغنون عن الملح لطعامهم ولطعام ماشيتهم. ولكن القائد ولد الشهباء ظل ينتظر فرصة الانتقام من العصاة وإعادتهم إلى قبضته وإسكات المتقولين الذين وجدوا في عجزه عن ردهم تنقيصا من قدره وإهانة لجاهه .

وفي صباح اليوم الموالي جاء العبد مبارك إلى ابن الزارة وهو جالس مع زوار بدكة مدخل الرياض. فهمس في أذنه وقال :

– يقول لك سيدي : اذهب إلى القائد ولد الشهباء لتطمئن على وصول الطباخات واشكره من قبلنا، واحمل معك إليه عشرة أحمال إبل من أحجار الملح يعطيها أصحاب النوبة في استغلال

المعدن هذا الفصل، ولا ترجع إلا بعد أن تطيب خاطره، وتتكلم معه في الموضوع المعلوم.

لم يحتج ابن الزارة إلى مراجعة همو لفهم التفاصيل لأن التفاصيل تحرج في مثل ذلك الموقف، بل بادر بإرسال غلام ذكي يحمل بطاقة للقائد ولد الشهباء فيها إخبار بوصوله إليه تلك الليلة، وأرسل إلى أمين مستخرجي حجر الملح أمرا بتنفيذ المتعين وإيصال الهدية في نفس اليوم. وانتظر هو إلى قرب وقت العصر. فتظاهر بالخروج إلى البساتين على فرسه. ثم لما توارى عن الأنظار جد في السير حتى وصل إلى قصبة قائد السهل عند وقت العشاء.

رحب القائد العربي بصاحب جاره القائد همو، وعظم له، مجاملة. أصداء الاحتفالات، وتمنى للقائد الجديد أن يكون رجلا قائما بالواجب غير خامل مثل أبيه.

عرف ابن الزارة كيف يغذي مشاعر النخوة والادعاء والكبرانية لدى مضيفه أمام أصحابه الذين لا يفترون عن تصديق كل كلمة يقولها قائدهم، ومالأهم ابن الزارة على ذلك، ولم يفاجئه أن يسمعهم ينفجرون بالضحك كلما تحدث قائدهم ساخرا أو نابزا عن أهل الجبل، يصفهم تارة بقصار القامات ويعيبهم تارة أخرى بمجاورة الذئاب. وهكذا كان كلامه خلال الجلسة كلها مثل جولات فروسية يطلق فيها البارود في الهواء. وعند نهاية الجلسة أتاح القائد لابن الزارة فرصة الاختلاء به، لأنه عرف بحسه أنه يحمل خبرا خاصا لا يجوز أن يذكر أمام الجلساء، من الأصحاب والأجانب على السواء.

عرف ابن الزارة كيف يتجنب في الوهلة الأولى موضوع استعداد القائد همو للتخلي عن أهل وادي الخروب، وتطرق مباشرة إلى التعبير عن رغبة همو في التعاون وحسن الجوار، ثم قال، بعد تمهيد مناسب، إن صاحبه القائد محمد بن عبد الله يريد أن

يتقدم لخطبة ابنة القائد العربي، لـــلا[1] السالمة، وسيكون الشأن كله بيدها، والمجد العظيم ينتظرها، وستكون سيدة داره بدون منازعة، تسهر، بما أوتيت من كمال التربية وحسن الخلق، على إدخال أعراف المخزنية[2] وشارات الرئاسة إلى حياة القائد الجديد وإلى نظام حاشيته. ثم استطرد ابن الزارة، وكأنما أراد أن يعطي لمستمعه فرصة هضم خبر لم يكن يتوقعه، فأخذ يذكر له الحالات الباهرة في الزيجات المنعقدة بين رؤساء الجبال ورؤساء السهول أخذا وعطاء، ثم استطرد في اتجاه آخر وذكر ما ينتظر قيادة همو من الازدهار بإخضاع الشيوخ وضبط واردات عشرات الأسواق، وما يتوقع من علو شأن رئيس تلك الإيالة لدى السلطان. وهكذا لم يترك للصمت محل حرج حتى هضم القائد ولد الشهباء ذلك الأمر وأردف ابن الزارة قائلا :

– ثم إن المصاهرة مبنية على الوئام، ومن أجل ذلك فصاحبي القائد يرفع يده عن حماية أصحابك أهل وادي الخروب الذين استجاروا بوالده في حياته.

لم يصدق القائد ولد الشهباء ما سمعه، وجحظت عيناه، وحاول أن يستعيد انتظام أنفاسه، ولكنه فطن إلى أن المناسب هو أن يتجنب الوقوف عند ذلك الأمر الذي أخبر به مبعوث صاحب الجبل وكأنه أمر قد انحسم ولا يحتاج إلى فركه بالمفاوضة، وبادر بالجواب عن الأمر الأساسي وقال :

– أنا أقبل تلك المصاهرة، لكن مشورة البنت واجبة عندنا، ورأي أمها للا رقية فوق كل اعتبار، فنحن لا ندفعهن كالأكباش كما يفعل بعضكم في الجبال.

---

[1] - سيدتي أو مولاتي، في اللسان العامي بالمغرب

[2] - نسبة إلى المخزن وهو في المغرب السلطان وأعوانه أو الدولة.

دخل القائد إلى داره، وكانت في انتظاره زوجته للا رقية وبناتها لأنهن يعرفن حاجته إليهن للتخفيف عليه قبل النوم من هيجان أعصابه ولو بكثرة الحديث في المجلس. فما كان منه إلا أن أفضى بما في جعبته للأم وبناتها حتى قبل أن يمتد على الطنفسة بقرب سريره.

استقبلت للا رقية وبناتها، ولا سيما السالمة المعنية بالخطبة، ذلك الخبر بسخرية وتهكم، وهن مستندات في رد فعلهن إلى نظرة تحقير أهل السهل لأهل الجبل، وزادها فداحة أخبار الطباخات العائدات إلى دارهن من حفلة تولية همو. فقد بالغن في القول بأن همو لا يعرف قواعد القيادة وليس في داره من أدواتها إلا ما عند أي عطار من عطاري السهول. بل إن البنت الثانية أخت المخطوبة علقت قائلة :

– اللي فاتوا قالوا : اللي ما عندو همو تولدو ليه حمارتو.

استغربت الأم وبناتها الأخريات عنف تلك القولة وتفطنت صاحبتها إلى ما قد يفهم عنها من أن الحمارة التي ستأتي لهم بهمو هي السالمة، فعضت شفتيها وقالت متلعثمة : أ أ... لم أقصد... وانسحبت.

أظهر القائد لزوجته وبناته أنه لا يعير طلب همو كبير اهتمام، وقال إنه يشعر بتعب و يريد الآن أن ينام، فقامت البنات. وعند سلام السالمة عليه جذبها إليه وقبل رأسها وقال :

اللـــي يـــرضي ريمى يكـــون
وظـفـر صبعـــو علي مـا يهـون

قضى القائد الثلث الثاني من الليل وهو يهمس إلى زوجته يريد أن يقنعها بأن مصلحته ومصلحة بنته ومصلحة الجميع في أن

تتزوج السالمة بهمو، وأنه يخشى أن يتقدم لخطبتها ابن عمها اليتيم الذي رباه، ولا يجمل، حسب الأعراف، رده، والبنت ميالة إليه، ولا يخفى ذلك على أحد. ولما قالت للا رقية إن تزويج السالمة من ابن عمها الذي تحبه لا يزري بها ولا بهم، رد الزوج وهو يقول :

– وماذا ستفعلين لو سبقه إلى خطبتها شريف معدم أو أحد أبناء شيوخ قبائلنا الذين كل مالهم بضع مآت من الإبل وأراض لا ثمر فيها غير النبق والصبار ؟

ولما رأت للا رقية أن زوجها يريد ما يريد وأنها إذا لم توافقه سيجهش بالبكاء على عادته، قالت :

– نعم نعم، أنا أفهم ما تقول، أفهم أن رد الخطبة عند أهلنا مهانة كبرى ومبعث أزمة للبنت محل الخطبة، وبنتي عليها خمسة وخميس.

– عندها قال القائد وللا رقية في حضنه : هل تعرفين أنك أنت روح حياتي ؟

وفي الغد أخر القائد ولد الشهباء مبعوث همو حتى تناول طعام الغذاء، واختلى به وقال له :

– سلم على القائد، وقل له أن يعتبرني في محل أبيه، وليكن صنديدا حتى لا يأكله الذئاب، وفي موضوع المصاهرة، سنرسل الجواب مع أخي هذا الخميس المقبل أو الذي يليه إن شاء الله. ثم أعطاه هدية للقائد، بندقية بارود من عمل النابريال.

وصل ابن الزارة إلى القصبة ليلا ودخل على القائد همو، ثم اختلى به وحكى بالتفاصيل أخبار مقامه عند ولد الشهباء وجوابه الأول والثاني في شأن المصاهرة، وأكد ابن الزارة لهمو أن الجواب سيأتي بالقبول. وقلب القائد الهدية، وأعجب بها، وتمنى لو كان له حرس من ألف عبد مخلصين يحمل كل واحد منهم مثل هذه

التحفة ويستعملها أحسن استعمال. وقبل افتراق الرجلين قال ابن الزارة : علينا الآن أن نبدأ في أمور الجد والعمل.

ترجم ابن الزارة قوله باتخاذ الاحتياطات التي تترتب عن قبولهم التخلي لقائد السهل عن أهل وادي الخروب فنصح القائد همو بملازمة داره في تلك الأيام وتشديد الحراسة على أبواب القصبة وعدم السماح للفرسان من أهل وادي الخروب بالدخول إلى حصن السوق ومنعهم من حضور الأسواق التي في إيالة همو قاطبة. ثم جمع البنائين وأسسوا دارا جديدة للقائد وشرعوا في بنائها. ثم أرسل إلى جميع شيوخ القبائل يمتحنهم بطلب هدية جرت العادة بطلب مثلها لمن أراد أن يؤسس رأسماله من قطعان الأغنام والأبقار، وأمر المبعوثين بأن يلزموا كل شيخ أن يعين مراعي ورعاة لما سيجمعون من الرؤوس في عين المكان.

وفي اليوم الموالي حضر باروخ إلى دار القائد وتولى معه ابن الزارة تزميم الديون التي توسط فيها لدى يهود مراكش في كناش كلف به طالبا اسمه يحيى، وأفهم ابن الزارة مخاطبه باروخ أن التسديد يكون بعد عام، وأن الذين أقرضوه يمكن أن يحتكروا، في انتظار استرداد أموالهم. شراء الجلود وغيرها من البضائع المطلوبة للوسق في إيالة القائد همو.

أما القائد العربي ولد الشهباء فما أن غادر ابن الزارة داره حتى جمع أعوانه والنصحاء من أشياخه ورتب معهم حملة إعادة المنشقين أهل وادي الخروب إلى إيالته وطاعته. ومن أجل ذلك جهز مائة من الفرسان خرجوا سرا وتفرقوا على قرى أهل وادي الخروب، بدءوا باقتحام دور أهل اليسر فيهم وأسروا الشبان منهم واقتادوا ما في الحظائر من الماشية وساقوها إلى القائد الذي طلبها تعويضا له عما ظل يؤديه عنهم للمخزن في الواجبات المحسوبة

جملة على إيالتـه. واحتفـظ بالشـبان في ضيافـة لائقـة حتـى جـاء أهلهم بعد أيام وقد تيقنوا أن قائد قصبة الجبل قد أسلمهم لسيدهم الأول. جاء معهم شفعاء من القبـائل الأخـرى، فقبلـت الشـفاعات وتم الصلح وأطلق الأسرى، وكان احتفالا كبيرا حضره أعيان إيالـة ولد الشهباء، وجرى فيـه الفرسان، وزينتـه الأفـراح وعلـت فيـه الأصوات بالأهازيج، وزالت به المعـرة عـن القـائد وتجـدد عنفـوان الهيبة في داره.

بعد انفضاض الجموع، دخل ولد الشـهباء غرفـة نومـه وجلـس ينتحب، وجاءت زوجته للا رقية تواسيه، وكان يقول :

– ليتها تكمل فرحتي، ليتها تكمل.

فهمت الزوجة قصده و أن لا أحد يمكن أن يعيـد إليـه سـكينة نفسه ويجعله يستمتع بفرحة نصره غير بنته السالمة، فهو يبكي لما حسبه خيرا لها، إذ يريـد منهـا أن تقبـل الـزواج مـن همـو، هـذا الرجل الذي يقول عنه إنه أعلى قدره بين النـاس، وهـو ولاشـك سيوفر لبنته رغد العيش ويكون لأبيها صهرا ندا يفخر به ويمتد به نفوذه إلى تلك القمم السود التي كان يراها دوما من بعيـد ولا يـأمن أن ينزل منها عليه في يوم من الأيام شر مستطير.

راودت الزوجـة بنتهـا لتحصـل علـى رضاهـا يومـين كـاملين، وأخيرا واجهت البنت أمها بسخرية وقالت :

– كنـت اشـتهيت لكـم أحفـادا بوجـوه أقمـار وأعنـاق تقـاس بأشبار، وبلا مشـافركبار، أمـا الآن فمـا أراد الله يكـون ومـا أراد الوالد يكون.

قالت ذلك وهربت. وذهبت الأم تحمل الخبر إلى القـائد، لكنـه لم يعد إلا والنيل قد أرخـى سـدوله، فلمـا أخبرتـه بمقالـة البنـت

بحرفها قال :

– الطباخة الشيطانة وصفت لها بعلها، شبهت لها شفتيه بمشفر الجمل. الرجال لا يعابون يا لالا رقية. وستشكر بنتك صنيعنا عندما تصير إلى المجد الذي ينتظرها. اعلميهم، غدا نذبح فرخة جمل !

لم يعرف أحد في الدار. غير الأم والسالمة وأخواتها، أن سبب ذبح الفرخة هو فرح القائد بموافقة البنت على الزواج من قائد الجبل، ولكنهم عرفوا أن الفرخة لا تذبح بمراسيمها إلا للحدث العظيم، ومن مراسيمها في دار القائد ولد الشهباء أن يجلس محفوفا بأهله ويستمري الطيبات ويسمع الأزجال التي تحبها للا رقية، وهي زهوانية كبيرة. ولما جلس الجميع تبادل القائد نظرات مع السالمة وهي في جنبه الأيمن مجلوة كعروس كاملة الحلة، وقال :

السهول تسقيها الجبال والزين يغلب

أخذت القولة من فم القائد قينة من الحضّارات[1] فغنتها. ولما غنتها لزمها أن تزيد عليها بمقتضى الأعراف، فقالت القينة وهي تنظر إلى السالمة :

السهول تسقيها الجبال والزين يغلب
والرموش تجردها الغزال كيسيف الحرب

اعتبرت السالمة تلك التحية ملزمة لها فقامت ترقص، وأشارت في وقت ما لابن العم فقام يراقصها، والكل يعلم أنه بمثابة أخ

[1] مداحات يثرن الوجد الكمين

لها، وشاهد الحاضرون السالمة وهي في رقصها تقترب من القينة وتميل على أذنها، فإذا هذه الأخيرة تزيد ما همست به إليها :

وعلاش نبيعك بالمال أحبيب القلب

بلغ ذلك الصوت أذن أم السالمة فكادت تجهش بالبكاء وقامت وتغيبت برهة لإخفاء ما بها متظاهرة بأنها ترتب حركة بعض الخادمات، أما القائد فقد تظاهر بعدم العلم بشيء واستمر في تأجيج أوار الفرح.

كان والد السالمة قد أرسل في الصباح الباكر من ذلك اليوم رسولا إلى القائد همو يحمل إليه بطاقة كتب فيها :

وبعد، نرحب بأضيافك.

5

اختلى ابن الزارة بهمو في جلستهما المعتادة بالليل وقد خمدت الأنفاس الشاهدة. وأخذ يقضي له حاجته الأكيدة في دغدغة أحلامه والتخفيف من مخاوفه وتغذية غروره وفتح عينيه على وسائل إحكام القبضة على أعدائه. كل ذلك بذكر سيرة قواد عرفهم ابن الزارة لما كان نخاسا. يطوف على الأكابر ببضاعته من الإماء والجواري. وقال :

– الآن حان الوقت لأفرغ لك ما في صدري. وأشرح لك ما خططته لمصلحتك طيلة ما مضى من الليالي الطوال. تنام أنت فيها وأنا ساهر أستلهم الحكمة من خبرتي بالأيام. لا يجوز أن ننتظر حتى يفرغ البناؤون من إكمال المنزه والرياض لنشرع في بناء السجن بجوار القصبة. فلا بد أن يسبق خبر السجن وينتشر في الآفاق وأن يكون المارون إلى السوق من القادمين من الجبال ينظرون إلى جدرانه تعلو على جانب الطريق وأن يتخيلوه قبرا عظيما للأحياء تنهش فيه الأفاعي وتلدغ العقارب. وأن يتخيلوا أن الجرذان تنازع نازليه في ما يتسرب إليهم بعد كد من قليل القوت. ولابد أن يتحدث البناؤون أيضا عن بيوت لا تتسع الواحدة منها إلا للحنش واقفا. أقصد المسجون وهو واقف لا يملك أن يتململ فيها ولا أن يصعد فيها. ولا بد أن يكلف الحدادون من جميع الإيالة بصنع سلاسل تنوء بحملها الدواب واختراع عناقيات من نحاس مخرمة. تنخس من يتقلدونها فلا يحركون ساكنا ما لم تعبث بهم أسراب القمل. ولا بد أن تهيأ بجانب السجن مقبرة خاصة به. لكي ييأس ذوو العناد حتى من ترحم الأهل فوق قبورهم. ولابد أن يكلف النجارون بصنع عصي غليظة يراها الناس ويتصورون أن رؤوسها

الرقيقة تتناول أضلع المغامرين وأن رؤوسها الغليظة محشوة بمسامير حتى تصلح دبابيس تعلو كل ذي قفا غليظة.

ولا بد أن يشيع بين الناس أن سجنك مثل الحمام في تدرج حرارة جلساته من الخارج إلى الداخل. لأن المجرمين في درجات أدرانهم ليسوا سواء. ولا بد أن يشبهوا دركاته أيضا بدركات جهنم في الزمهرير وقلة الهواء وأن تكون مطاميره لمن لا يصلح إلا لأن يطوي ذكره النسيان أو لمن يتحتم نخضه في الحين وإعادته لأهله بعد استخلاص زبدته. ولا بد عند بناء الجدران التي تظهر من الخارج إدراج عظام أضلع وسوق في بعض ألواح الطابية حتى يعلم منها الرائي أن البناء يكون بتمام الجد وأن المتكاسل في رفع قفاف التراب قد يعوض بعظامه الإمداد الذي لا يجوز أن ينقطع ولا أن يتأخر عن وقته. فأكثر ما يكون الإنسان متواضعا عندما يتذكر أنه عائد إلى أصله في التراب. ثم لا ننس أن نجعل للسجن شرفات ضيقة تبعد عن الأرض أكثر مما تبعد عن السطح معترضة بقضبان غليظة متقاطعة من الحديد تشعر الرائي أن بالداخل خلقا من الأحياء، لكنهم لا يرون الشمس إلا من هذه الكوات الضيقة. تبعث في من بداخل جدران السجن الندم على العصيان وتثير فيه الشوق إلى الحياة الطليقة. شعاع يكفي للشعور بالفرق بين الليل والنهار ولا يكفي لتبديد رطوبة الدهاليز وروائح من يعيش فيها من بقايا أشباه البشر. ويستحسن أن توضع بالليل فوق سطح السجن أشلاء جيف تجلب بالنهار أسراب العقبان ويراها من في الخارج فيحسب أنها تأكل من هام المسجونين بعد أن يكونوا قد هلكوا تحت وطأة المحنة والعذاب. أما حراس السجن فيختارون من خارج هذه الإيالة يتكلمون لغة غير لغتها ويكونون من شذاذ الآفاق الحانقين على البشر. لابد أن نعرف سيرة كل واحد منهم حتى نعلم أنه يجد لذته في هذا العمل لا يبغي به بديلا ولا يخاطر

ببيعه برشوة. كأنما هيئ له من صغره بحيث يحمد لنا أن وجدنا له ضالته. فأنا أعرف من هذه الطبائع الكاسرة، أعرف أصحابها بالفراسة، ولكن الأهم من اختيار الحراس اختيار كبيرهم. فهو عنوان السجن الذي سيضفى اسمه على اسم السجن نفسه، وهو المستضيف الذي ستنسب إليه كل مثالب الآخرين. فسيكون له من الاستعداد ما يجعله يغار على داره حتى إنه ليعتقد أنها الجديرة وحدها بالقيام في المباني. ولا يفتأ من حرصه على عمارتها يقول: هل من مزيد؟ يتفرس في من يمشي في الأسواق فيحكم على أكثرهم بأنه سيسدي إليه خيرا عميما لو كان من نزلائه ولو لبضعة أيام. ولابد من أن يكون من وفائه لك أيها القائد أرحم بك منك، يقسو لذلك حيث تريد أنت أن تتراجع وترحم، يخافه أعداؤك أكثر مما يخافونك، بل يكون من مصلحتك أن تكون الظاهر الذي من قبله الرحمة ويكون هو ذلك الباطن الذي من قبله العذاب. يشيع عند الناس أنه قد يعصاك في الرأفة ولا يعصاك في تشديد العقاب. يكون في جسمه موحيا بالغلظة الفادحة. يشيع عنه أنه يقدر على صرع شرذمة من الأفذاذ. يبهر أول ما يبهر أعوانه. ويصنع منهم أحق التلاميذ بهذا الاسم. يسود عليهم بالهيبة. ويمنع عليهم الجرأة، ويقهرهم بلغته المختلفة عن لغتهم. ولا يتردد في أن ينزل بالمفرط منهم عذابا من جنس العذاب الذي يذيقونه لغيرهم من مطلق السجناء. يفهمون عنه بالغمز. ويعلم لهم الفراسة في اختيار المكان الأنسب للنزيل الأنسب. إن مهمتك ليست يسيرة في هذه الجبال أيها القائد. فقد فسد أهلها ومرضوا في الطاعة منذ أكثر من جيلين. وحلم والدك عليهم لم يعدوه إلا من قبيل الضعف حتى أطمعهم في التحلل من ربقة الأحكام إلى الأبد. فالشيوخ قد استبدوا بالقبائل أو بمن يسمونهم بإخوانهم. والأعيان يقاسمونهم الفوائد ويشترون منهم

المهادنة بغض الطرف، وحتى بعض ورثة مرابطيهم استحلوا الصدقات وتكرسوا للأذكار وتخلوا عن الدور المعهود لهم في ترويض الناس على الانصياع لأداء الحقوق، وأنت الذي ستحاسب بعد اليوم عن الجميع، فواجب المال سيوظف عليك لتؤديه، على فرض أنك تحكمهم وهم يؤدونه إليك، ولا يجيرك إن أرخيت لهم العنان وضيعت مالك الذي لم تضمن موارده لحد الآن. فالسجن لا ينفعك في أشرافهم لأنهم ينبغي أن يحرثوا وينتجوا ويبيعوا ويشتروا ويتكفلوا بالآخرين، ولكن الرهبة هي الوسيلة، والمقصود هو العطاء، ومن أجل ضمان العطاء ينبغي أن تسد في وجوههم منافذ الأسواق غير الأسواق التي يرجع العطاء فيها إليك، وعليك أن تحول معدميهم إلى رعاة لك وحراثين، ولا بد أن تملك في كل قرية قرية أطيانا وأشجارا وعيون ماء وأن تكون أملاكك أجود الأملاك، وأن تكون رعايتها من أوكد واجبات الشيوخ والأعيان. والمعدمون بدورهم لا محل لهم في السجن، لأنهم لو حشرتهم فيه لكانوا مشغلة تقتضي كثرة الحراس، ولو أدخلت منهم السجن كل من يستوجبه لأرهقوك حتى ولو أطعمتهم حبيبات عدس وجعران، فتأديبهم يكون بالسياط وتغريمهم بإشقائهم في الخدمات والصنائع، من حرث ورعي وبناء، وما أشبه ذلك. ولو استخدمتهم لعززوا الفعلة الذين على القبائل أن ترتبهم على الدوام لخدمتك. أريد لك أربعين فارسا من الحراس الأنجاد، يختارون من القرى المجاورة للقصبة، يجندون عند الاقتضاء في الحملات، ولا تتحمل تبعة مؤنتهم في سائر الأيام، يحرثون ويزرعون، ولكنهم يظلون على أهبة الاستعداد للخروج في مهماتك، جماعات وفرادى، يمشي الواحد منهم كما لو أخرجت عشرة، وينزل إذا نزل كالصقر على فريسته. تكون منهم الشرطة والحرس والساهرون على تنفيذ الاستدعاءات والاستخلاصات، تعين لخروجهم واجبات وأجور

مبيت، يعلمها أهل القبائل ولا يفرطون فيها، تغض أنت الطرف عن رشاواهم الطفيفة تحفيزا لهم وتشجيعا، إذ المهم هو ألا ينقص العطاء لهم من العطاء لك. بكل هذا وبأقل منه، أيها القائد، أضمن لك انقياد شياطين القبائل، ولكنني لا أضمن لك شياطين اليهود، فأنت تعرف طاعتهم المبطنة وتنقلهم بحكم الاشتغال بالصناعات بين القبائل والإيالات، في أرضك منهم أصحاب لغيرك من القواد، وكان يدخل دار أبيك من لهم معاملات ومخالطات مع أعدائه من الشيوخ في هذه الإيالة. فأنت نائم على جانب الراحة من جهة صاحبك وصاحب والدك باروخ، وأنا لا أثق به، فهو يصرف كل يوم سوق نقودا ويبعثها إلى أصحابه في المدن، وله أقارب في مدن الغرب وفي بلاد الأتراك. ولا يخفى عليك أن وافدين من النصارى، لا نعرف مقاصدهم، أيبحثون عن الذهب أم عن أمور أخرى، نزلوا عنده مرات، في الملاح في الأعوام الأخيرة.

عندها قاطعه همو متضايقا وقال :

ألم تكن تشارك اليهود في الواحات أكل الكلاب حتى تعيب علي أنا أن أقبل رقيق الخبز والسخينة هدية من باروخ ؟

فأجاب ابن الزارة :

– لكنهم في الواحات أقل جسارة منهم هنا، ولا أريد أن أعيب لك صاحبك، بارك الله لك فيه، المهم هو أن تعرف أن فاسا تتمسك بك مادمت متقبضا على زمام أمورك في دارك، وانظر إلى ما وقع لعدد من قواد دكالة في هذه الأيام، لقد أوخذوا على التفريط ولم يشفع لهم التساهل مع العصاة من إخوانهم.

احتقن وجه همو لسماع إشارات ابن الزارة، وكرهها لأنها تثير خوفا في نفسه من جهة التذكير بفاس. ولكن ابن الزارة الذي

يحرص في كل حين على تدارك الموقف لإراحة محجوبه، قال :

– لا بد أن يكون لك مدافع عنك في فاس أيضا. لأنك ستقصر وسترتكب الأخطاء مهما حرصت، ولا سيما في سنواتك الأولى حيث يتوقع فيها أن تكسر عظاما معوجة لإعادة جبرها على وجه قويم.

تعجب همو لكلام ابن الزارة في وصف السجن، واندهش لكلامه المندفع كالسيل في هذا الموضوع وهو يبدو فيه مستمتعا بنوع من اللذة كمن يمقت البشر، وكأنما كان ما يتوقع من نتائج إحكام القبضة على أهل القبائل مبعث نشوة كبرى لديه. وظنه همو في تلك اللحظة مسكونا بشيطان، ثم ما لبث همو أن وجد هو نفسه تلك النشوة تسري إليه، وأخذ يسأله أين رأى مثل ذلك الصنيع ومن سبقه من الحكام إلى هذا التدبير. قضى ابن الزارة وهمو بقية الليل والنوم لا يراود أحدا منهما من شدة حماس المتكلم وشدة اندهاش المستمع، وهو يذكر له أسماء قواد وعمال بنوا أمجادهم على التفوق في معاملة المخلوقات باللازم.

6

دخل الخادم على القائد وهو يتناول فطوره وبجانبه ابن الـزارة وأعلن أن باروخا الذي أرسل في استدعائه قد حضر. وأشار ابن الزارة بأن يؤذن له في الدخول. ولما دخل باروخ وسلم على القائد وصاحبه استوى، فقال له ابن الزارة :

– أي أصحابك أمهر يدا في صناعة الحلي وأكتم للأسرار ؟

فقال باروخ :

– علي أن أسترجع هدوء أنفاسي وأحك رأسي مرات قبل أن أجيب سيدي مُحْ، لأنه وضع علي شرطين لا شرطا واحدا.

فقال له ابن الزارة :

– القائد يؤكد على الشرطين وينتظر جوابك عند ظهر اليوم.

عاد باروخ في الوقت المحدد له وأذن له في الدخول وقال :

– أحسن من وجدت هو شليمو زوج ابنتي، فضلته لأنني أخاف على نفسي، وقل في الناس في هذا الزمان من يكتم الأسرار. إلا أن شليمو غائب في أحد أسواق الغرب. ولا بد أن يؤكد عليه سيدي ويظهر له العواقب ليقف عند شرطه الثاني، أما جودة الصناعة فأنا أضمنها .

فقال ابن الزارة :

– احضر بمعيته متى وصل من سفره، وابدأ من الآن في تهيئ الإقامة التي سيحتاج إليها الصائغ لسبك حلي عروس القائد وحلي أهلها، عشرة أرطال من الذهب المشحر وضعفها من خالص الفضة والإقامة التي سيحددها لك من الحجارة الكريمة والمرجان، وحتى اللوبان إن طلبه. وأوصه ألا ينسى أن يحمل معه أحسن العينات التي بين يديه ويظهر أنه يفهم أذواق الناس الذين

سنرسله لخدمتهم، وعليه أن يتنظف ويصحب معه أحسن ملابسه.

وبعد ثلاثة أيام استؤذن القائد في دخول باروخ والصائغ شليمو. فأذن لباروخ بالدخول وترك شليمو ينتظر. وبعد مدة قصيرة أمر ابن الزارة كبير المسخرين أن يدخل شليمو، ولما أدخله عليهما كان يتصبب عرقا ورجلاه تكادان لا تحملانه. يصرخ ويستعطف لأن صاحب الدهليز وجده على الدكة عند الباب فخطفه على فرض أنه مطلوب وأدخله أعوانه توا إلى السجن المؤقت الذي في هري بجانب دار القائد حتى لحق به المسخر ونبه حارس السجن إلى أنه غلط في حقه، إذ هو مطلوب ليسمع أمرا من القائد. أثارت القصة ضحكا لدى الحاضرين. وقال القائد لشليمو :

– إن صاحبك باروخا هو المذنب، حيث جاء معك وتركك عرضة للزبانية في مدخل الدار. فلعلك لا تقوم بابنته كما يجب.

وبعد أن هدأوا روعته ورأى عيانا أنه يكرم بالطعام والشراب في مكان خصوصي من دار القائد لا يصل إليه إلا الخواص اطمأن وتهدأ. ولما تحققوا من سكونه بدأ ابن الزارة بإعطائه التعليمات في شأن مأموريته. وهنالك عرف اليهوديان أن القائد همو خطب ابنة القائد ولد الشهباء المجاور له من جهة السهل. وأن المطلوب من شليمو أن يلتحق خفية ودون إشعار أحد بدار القائد ولد الشهباء. ويقيم هنالك الوقت اللازم لتلقي طلبات العروس وأهلها في الحلي التي ستقدم في الصداق والجهاز والهدايا. وفي آخر التوصيات قام ابن الزارة بتذكير شليمو بما يتوجب عليه من كتم الأسرار، بل توعده بالعقاب الشديد إن هو أخل بذلك الشرط.

لم يشك شليمو في أن ابن الزارة جاد في ما يقول. وأن العقاب الذي يشير إليه هو السجن الذي أدخل إليه خطأ قبل الدخول على القائد.

أرسل ابن الزارة مسخرا كبيرا يصحب شليمو ومعه رسالة إلى القائد ولد الشهباء، ولما أبلغ المسخر الرسالة، وقدم الصياغ للقائد عاد لتوه.

فوجئت أم السالمة وبناتها بعمل القائد همو في إرسال الصياغ، ذلك لأن مثل هذا العمل ليس من العوائد، ولأنه عمل ينم عن كرم كبير وسعة من لدن رجل أخذ يبدو الآن في أعينهن وكأنه أمير الجبل. وبعد يوم من وصول اليهودي رتبت أم السالمة كيف يكون التعامل معه. وأين يكون وكيف تكون حركته أثناء مقامه دون أن يثير الانتباه. لأن خبر مهمته لا يجوز أن يتجاوزها هي وبناتها ووصيفتين أمينتين مقربتين إلى أم السالمة. تحتاج إليهما في كل شيء.

لما فتح اليهودي صندوق عينات الحلي التي أتى بها، اتسعت أحداق أعين النساء وتبدد ما بقي في نفوسهن من التحفظ، بل تسابقن في لمس تلك النفائس وتقليبها واستعراضها وإعادة التمعن فيها وتبادل آراء متقطعة مندهشة حولها وتعيير قياساتها ومقارنتها بما عندهن وبما ليس لهن وإعادة لمسها بأياد مرتعشة والتعبير عن التمنيات بصددها.

بدأ الصياغ بأخذ المقاييس مستعملا لذلك خيوطا ملونة يخصص كل لون منها لعينة من الحلي و يحدد القياسات بعقد في الخيوط. فعرف مدار ما فوق الكعب للخلاخل وطول الساق لتعيين مناسب عرضها. وقاس دارة الغرة التي يكون عليها التاج لتحديد القياس المناسب لعلوه. وقاس دارة المعصم لتعيين قطر الأساوير المتثانية أو الطليقة. وأخذ مقاييس الأكتاف في تناسبها مع جانبي أعلى الصدر لتعيين أحجار الخلالات والمقابض والشوكات. وقاس سعة الآذان وصلابتها أو رخاوتها من حيث حمل المتدليات. وقاس مهاوي الأقراط. وقاس دارة الأعناق وسعة الأجياد وعلوها لمعرفة

طول العقود والقلائد، وقاس دارة الأصابع وتمعن في طولها لتعيين دارة الأختام وسعتها والمناسب لها من أحجام الترصيعات، ثم انتهى بقياس مكان الأحزمة من الخصور دارة وعلوا، في تناسبها مع قدر الجذع كله.

بدأ الصياغ بالعروس فأغراها بأن تختار من التيجان نوعين: تاجا على النمط الفاسي القديم، وصفته أم السالمة بأنه تاج العَكاز، وهو متكون من لوحات مقوسة الأعلى مرتبطة في ما بينها بمفاصل، يحيط بالرأس كله. واختارت الأم أن يكون منبتا بجويهرات صغرى تحيط بها تزويقات محفورة في شكل أوراق التين. وقد تصورت الأم أن يكون فوق رأس العروس عند إبرازها الأكبر، مرة في دارها ومرة في دار زوجها، في البذلة الحريرية المطرزة الحواشي بخيوط الذهب.

أما التاج البديل المخصص لجلسات الإبراز الأخرى، فقد اختارته للسالمة إحدى وصيفات أمها، وهي متأصلة من الجبال وتعرف ما تتزين به بنات الأعيان هنالك ويسمى "تاونزا" (الغرة) الكبرى، وهو شريط مزين بتنبيلات المعدن المختلفة الألوان المصبوبة بين خيوط الفضة، وبترصيعات بحبات الجوهر، وتتدلى منه لوزات تصل إلى الحواجب، تزينها نقوش متشابكة.

ثم اختارت السالمة بنفسها ليوم سابع العرس، تزيين الغرة المعروف بالطابع أو المطبوع، وهو قطعة ذهبية واحدة مزينة بأحجار كريمة تشد إلى الجبهة بسفيفة (شريط) من حرير تعقد في القفا.

أما الخلاخل فقد اختارت أربع عينات منها : المغلق المزوق الذي يفتح من مفصل يشده مسمار في رأسه سليسلات، والنمط المكناسي المزوق بتشبيكات ملئت حفرها بمذوب ملون يغلب فيه الأخضر والأزرق الصيني، ونمطا مغلقا أيضا، مزينا بمذوبات في

الأصفر والأخضر والأزرق الفيروزي. أما النمط الرابع، فالصياغ هو الذي أقنع السالة باختياره لأنه، على حد قوله، أجمل ما تحمله عرائس اليهود، وصار مشنوعا عند مسلمات الحواضر أيضا. ويسمينه الأندلسي، وهو مفتوح ولا يصلح إلا للكعوب الرشيقة حيث يسهل تزليقه من فتحته دون عناء، وتزويقات المعدن المصبوب بين خيوطه قائمة على الأصفر الليموني والأصفر الوسط والأخضر والأزرق الفيروزي، مع وجود رويسات مزوقة بالحجارة الصوانية المعروفة بالبَنفش.

ولما جاء دور اختيار الأقراط لم تترك السالة أحدا يختار لها، لأنها عارفة بأسرارها، تدعي لنفسها امتلاك أذواق خاصة في معرفة أجملها، فأول ما اختارت النمط المعروف باللبة، من خمسة طوابق تنتهي بقطعة على شكل فانوسات متساندة الظهر، ثم اختارت قرطا غني التزويق على شكل أصابع اليد ينتهي كل قرط منها بحجارة على شكل ثمرة العناب. ثم اختارت قرطا يعلق على جذر الأذن ويلتصق بالصدغ. ومن كثرة ما به من قطع وبسبب شكل تدليها يسمى بالفنار أو القنديل. لكن أمها اختارت لها شكلا قديما مشنوعا في الحواضر في وقتها، وتدعمه سليسلة، في رأسه مقبض يشد في مؤخر شعر الرأس، ويشبه رأسه رأس الكبش. و يسمى الخرصة العامرة، لما في نقشها من ترف. وسارت السالة على رأي من نبهها إلى ضرورة مراعاة البيئة التي ستزف إليها، فاختارت أقراطا دادسية تحملها نساء الجبال أيضا، ولها متدليات مقصوصة من حبات المرجان، وفي وسط الحلقة رسم يسمى رجل الحمام. وهو من فأل السعد، وقد أوصت السالة أن تصب في وسطه كالعين نقطة مذوبة في لون الطين. ولما نبهت أم السالة بنتها إلى أنها تستطيع أن تختار أشكالا أخرى ضمن جهاز والدها، اكتفت باختيار نموذج من القرط المعروف بالدوّاح، وهو

شائع عند أهل الجبال، لكنها حددت مقاييسه بحيث لا يتسبب لا بثقله ولا بثخانته في توسيع فتحة الأذن.

أما الأساوير فأول ما اختارت منها السالمة عينة مفتولة تعرف "بالصويري" ثم نوعا من الدماليج المخرمة، ثم اختارت مما يناسب الجبل نوعا مفتوحا من "إزبكان"، بسيطة الشكل والتزويق، ثم عينة من الدماليج المفتوحة ذات الوصلة المقبوضة بمسمار، وهي مزينة بمذوب يغلب على لونه الأزرق الفيروزي.

نبهت أم السالمة بنتها مرة أخرى إلى أن شورتها من أبيها ستكون مناسبة لاستكمال حاجتها من الحلي، فتوقفت عن اختيار عينات أخرى من الأساوير فأشارت عليها باختيار خلالات جاء منها الصياغ بنماذج رائقة، وإن كانت السالمة لم تكن تستعمل الخلالات إلا في النادر، لأنها في الحقيقة أنسب للمتزوجات منها للشابات الأوانس، وهكذا اختارت إبزيما يربط به خمار الحرير فوق الكتف عندما يغطي لبسة العروس أو لباس الأعياد والحضور في الحفلات. ثم اختارت شوكة يشد بها كساءان غير مخيطين أحدهما فوق الآخر. وقد أوصت السالمة أن تزين هذه الشوكة بسليسلة منتولة رقيقة. ثم اختارت شوكة أخرى جبلية تزين في وسطها بأصابع اليد الخمسة لدفع شر العين. ثم اختارت خلالة تحت حلقتها قطعة تزيين مخرقة.

ومن القلائد اختارت السالمة النوع المعروف بتازرا، من نوع الغرناطي الشهير برقة صنعته وبديع نقشه، ثم اختارت متدليات منفردة من النوع المدور المخرم الوسط المحاط بأسلاك تكون حاشيتها محدبة. ثم اختارت لها أمها متدلية أخرى من النوع القديم، مسطحة بهية ببساطتها. وترددت في اقتراح قلادة وافية كاملة من النوع المعروف باللبة عندما قدمها الصياغ وجلاها فاخرة أمام صدرها فتراجعت، ولكنه ما لبث أن أقنعها بأن المادة التي

وفرها القائد تكفي لكل ذلك وتزيد، وقال إن لديه تحسينات رآها في بعض النماذج الملوكية سيضيفها إلى قلادتها، ولن يصنعها لغيرها في هذه الجهات، وشكت السالمة في ادعائه، وبدأ يحلف على ذلك ويكرر الحلف حتى اقتنعت برأيه ووافقت. ثم ما لبث أن أخرج إليها نوعا بلديا شائعا يسمى الدجيجة، وقال إنه سيجعل القلادة تساعية وسيحليها بجواهر بيضاوية ويضع في حواشيها أجمل التزيينات مما يسمى بالكريكبات.

ثم عرض الصياغ أقفال الأحزمة والنطاقات، فاختارت السالمة إبزيما مراكشيا يحمل طابع صناعة الجبل، وهو المعروف بفكرون المضمة، وهو غني الترصيعات، في وسطه حجرة كريمة أرجوانية يبرزها سلك يحيط بها، وفي كل جانب من جانبي الإبزيم ثلاث أحجار كريمة على شكل لوزات رؤوسها إلى جهة الوسط، وصفحة الإبزيم مما بين الأحجار بديعة التزويقات بأسلاك مثلثة أو مقوسة معقوفة الرؤوس.

وآخر ما عرض الصائغ على السالمة هو عينات الأختام، فلم تتوقف عندها كثيرا لكثرة ما تملك منها من موروث جدتها حفيدة قائد كان يقام له في عهده ويقعد، وإنما اختارت عينة حديثة من خاتم العش المحاط بأحجار كأنهن بيض الطير. وعينة من الخاتم المعروف بخاتم الطير الشائع عند نساء اليهود. وأوحت إلى الصائغ أن يجعل تحت رسم الطائر تجويفا يفتح ويصلح لتوضع فيه آية الكرسي مكتوبة بخط رقيق.

ولما بدا على ملامح الصائغ أن توصيتها عسيرة التنفيذ، قامت السالمة وكأنها تنفض يدها من كل شيء، فإذا به يتدارك الموقف ويستعطفها ويقول : نعم، نعم، مولاتي، صنعناها مرة لبنت الخليفة بمراكش لما كنت أعمل في حانوت الأمين، أحلف لك

سأنجزها على هيئة تروقك وتليق بك. ثم وضعت يدها على خاتم آخر وقالت :

– يمكن لك أن تضيف هذا، فإذا به من النوع الغرناطي الدقيق. وهو المسمى أيضا بخاتم التاج، ويميزه مصطبة في وسطها حجارة كبيرة ملوحة، وفي زواياها أربع حجرات لوزية الشكل، وبين الحجرة والحجرة تزيين بأسلاك على شكل أغصان مقوسة.

لم تتحمس أم السالمة لأن تختار شيئا من الحلي لنفسها لأنها كانت مهمومة بمصير بنتها وبفراقها أيضا، ولكنها تخوفت من إحراج بنتها وهي هشة الإحساس بالنسبة لهذا الزواج في مبدئه. فتظاهرت بأنها ستختار قطعة تعطي بها لابنتها درسا في الذوق الحسن وتعطيها فرصة أخرى لإبداء الإعجاب الذي لا تنفك تعبر عنه إزاءها منذ نعومة أظفارها. فقالت للصياغ :

– لم تأت بشيء يناسبني أنا. ولكني أريد أن تصنع لي قلادة واحدة من سلسلة ذهب مزدوجة مفتولة طليقة الحليقات بحيث تتوقف في ما بينها، وتربط هذه السلسلة من رأسها الذي يوضع وراء العنق بقفل محكم دقيق وتجعل في طرفيها اللذين ينتهيان إلى الجيد قطعة مدورة قطرها عرض خمسة أصابع من أصابع هذه العروس لا من أصابعك أنت، يحيط بهذه الدائرة سلك رقيق من الخارج وآخر أرق منه من الداخل وبينهما ساقية. ويليهما ممشى كممشى الحديقة مزوق بتخريم بين الأشكال التي يُمثلها، وتضع ما بين التجاويف وروداً تأتي على جيد التي تحمل القلادة، ثم تحد هذا الممشى من الداخل دائرة من سلك أرق، وفي وسط هذه الدائرة الطابع الثماني المعروف بطابع سيدنا سليمان.

عند سماع التلفظ بطابع سليمان ركع الصائغ اليهودي وقبل الأرض وما قام من ركوعه إلا ووجهه قد نضح بالعرق، وقال :

زيدي يا مولاتي، زيدي، أنا أسمع كلامك وأرسم شكلك، وحق الرب المعبود ما رأيت مثلك في حسن الذوق ومعرفة الصنعة.

فأضافت أم السالمة : وفي الزوايا التي في الأركان يكون رأس الزاوية وسط دائرة من سلك مزدوج، نصفها خارج المربع ونصفها بداخله. وفي وسط القطعة كلها زمردة كبيرة بقدر اللوزة تحيط بها ست زمردات أخريات أصغر من الوسطى، يكون لها تماس بداخل الدوائر المذكورة. وإياك أن تجعل للقطعة مقابض متدليات أخرى أسفلها فأنا أفضل أن تكون هي النهاية حتى تأخذ مكانها اللائق بها غير مزاحمة.

وما أن أكملت أم السالمة وصفها لفريدتها حتى ارتمت السالمة في أحضانها تعانقها وتقبلها، مجددة إعجابها بمعرفتها الموروثة عن دور أسياد صنعوا المجد الغابر.

وفي ختام اليوم الثاني اختارت أم السالمة لابنتها الثانية متدلية من العينة المعروفة بفولة خمسة، ولابنتها الصغرى متدلية من نوع لوحة اليربوع، ثم اختارت أختاما عادية للخادمات.

ولما رأى الصياغ أنهن قد فرغن من شغله قال :

– وسيدي القائد ؟ عندي له خناجر ملوكية.

فقالت أم السالمة على الفور : لا، لا، عنده من الخناجر ما يبهر جميع أعيان السهول، فما بالك بأهل الجبال.

ثم قال الصياغ : وما تقولين في هذه الحقة لحفظ كتاب الدليل ؟ فأراهما صندوقا فضيا صغيرا رائق التزويق غطاؤه ملوح الجوانب.

بهي المنظر، فوافقت أم السالمة وبنتها على اقتراح اليهودي.

قامت السالمة إلى صندوق الصائغ وقلبت فيه بيدها فأخرجت قطعة من الحلي وقالت لأمها :

- انظري هذه، نريد مثلها لأختي.

كان الذي وضعت عليه اليد إبزيما من النوع الذي يوضع في سرج الخيول، شكله شكل جوزة، عليه رسوم نباتية منجزة بأسلاك، وفي تجاويف الأسلاك مذوبات بألوان رائقة، و الرسم الأوسط منه عين فوارة كالخصة، يشرب من كل جانب منها جهة كل رأس من رأسي اللوزة طاووس أرخى ذيله الطويل.

كان هذا الاكتشاف قمة حماس السالمة ومبعث ارتياح أمها التي أبدت إعجابها باختيارها. كانت تقصد بأختها التي اختارت لها الحلية فرس أبيها المعروفة عندهم ببنت السالكة، وهي لا تنسى أن اسمها هي، السالمة، خرج من اسم الفرس الأولى لأبيها، المدعوة السالكة، فهذا وجه الأخوة بين هاتين المخلوقتين المعشوقتين. فالسالمة تعشق الخيل، ولكنها تحب الفرس بنت السالكة حبا جما، حتى إن خدام أبيها المكلفين بالخيل يقولون إن السالمة والفرس تتحدثان إذا اختلت إحداهما بالأخرى.

لم يفهم الصياغ شيئا من كلام الأم وابنتها بهذا الصدد، واكتفى بتسجيل الطلب الأخير، وجمع عدته في صندوقه وسده بسبعة أقفال، وفي صباح اليوم الموالي أعاده القائد ولد الشهباء إلى سيده بالجبل. وأرسل معه خفيرا وخطابا.

7

رجع المكلفون العشرون الذين بعثهم همو إلى القبائل ليجمعوا له رؤوس الأغنام على عادة الإسعاف في تكوين القطعان، وقد تحصل فيما جمعوه آلاف من الرؤوس هي الآن مودعة لدى القبائل لرعايتها برعاة التناوب المعروفين برعاة الدولة . وقد زممت رؤوس كل قطيع في زمام خاص بأوصافها ووضعت في عهدة الشيوخ، وشهد عليهم العدول بالتكفل المنصوص فيه على تعويض الضياع وبالحرص التام على التنمية حتى ولو اقتضى الحال أن يسرحها الشيخ بنفسه إن تعذر وجود الراعي. وما أغضب الجماعات شيء مثلما أغضبها رفض كاتب القائد الإقرار بوجود شيء اسمه الذئب الذي يأكل الغنم.

لقد صار همو بهذا التجميع الذي درج على العرف في ظاهره، أكبر ملاك للأغنام في إيالته، بل إن أكبر ملاك من أعيان الإيالة لا يرعى حتى عشر معشار ما لدى القائد همو، فالرؤوس التي أعطيت لمبعوثي همو لم تحفز إليها التزامات الأعراف وروح التعاضد بين الأنداد، بل ركبت على تلك العادة، ولكنها كانت لا تخلو من طابع الإجبار والإحراج .

جلس ابن الزارة يطلع همو على أزمة الأغنام المجمعة له، ثم ما لبث أن قال لسيده :

– هذه بداية تكوين ثروتك، ولكن المهم عندنا هو الأخبار التي جاءنا بها المبعوثون.

استغرب همو لكلام ابن الزارة لأنه لم يكن على علم بأن صاحبه كلف مبعوثيه إلى القبائل بمهمات أخرى، ولكن ما يهمه الآن هو أن يعرف الأخبار التي عاد بها هؤلاء عن أحوال القبائل والشيوخ. فأذن له بأن يفرغ أمامه ما في جعبته من وصف تلك

الأحوال، فبدأ ابن الزارة بالكلام واسترسل فيه بحماس على عادته وقال :

– شيخ أهل النصف، من ذوي الثروة، لم تنقطع المشيخة من عائلته منذ عدة أجيال، داهية من شيوخ الجبال، هو اليوم طاعن في السن، وله ستة أولاد. يصلح أصغرهم لخلافته لأنه يستطيع أن يعين عن كشف أسرار أهله، وله طموح شديد، ولا أمل له في المشيخة إن ساروا على عادة وراثة الأكبر سنا. وكلهم متعجرف معتد بأصله، يظهرون الإذعان ويترقبون أن يعانوا على النفور إذا جرت ضدك الرياح. لهم عصبية وأحلاف عند جيرانهم وفي قبائل تنتمي لإيالتك. لو صلح لك في الطاعة لأراك من الحزم ما يليق عبرة للآخرين، ولو فسد لكلفك إصلاحه تعبا ومالا. بلده غني بالمراعي والأشجار، ويحركون في القتال أكثر من ثلاثمائة فارس. ليس له منافسون أكفاء في قبيلته يمكن تحريضهم عليه، لمثل أولاده يصلح السجن أياما معدودة على أساس شكاية من الغير. ثم نرى ماذا يكون من أمره.

– شيخ الفج الأعلى. يظهر كامل الطاعة لأنه في شنآن مع أفخاذ من قبيلته يتهمونه بتدبير اغتيال غريم له. لو نصرته ضدهم لثبت لك على الامتثال، وأرضه، وإن كانت غير ذات خصب بسبب البرد، فهي ممر تجارة الواحات ومعقد سوق نافقة، وهو موال ظهره في الحدود لقيادة أخرى، ويصلح أن ينصب عينا على جيرانك في السفح الآخر. استدعه أياما، وحمله في عودته قنطارا من حلوى القريشلات يفرقها على من يشاء، فيعرف أنه محل ثقتك، واستدع بعض المناوشين له واستفسرهم عن مراميهم ولا تسرحهم إلا عن مغرم.

– شيخ الفج الأسفل أفقر شيوخ إيالتك. مظهر للامتثال. ولا عصبية لمن لا مال له، بلده كثير الصبار. ولكن الزقوم النابت

بكثرة فوق صخور بلده أصبح مطلوبا للوسق وهو لا يدري. شاركه فيه وكلفه بإيصاله إلى السهل يشتره اليهود. ويترقع به خرقه. وإذا بدا منه تراخ فولده الثاني بادي الحزم والإقدام. وإذا ظهر له منافسون. فاستدعهم وانزل عليهم بالمغارم حتى يفهموا.

- شيخ ممر الريح. بلده كثير اللوز كما تعلم. وهو اليوم يبدي الإذعان. لا عصبية له. وهو مذموم قاس على إخوانه. كثير الكنز متقشف. مصلحتك في أن تبقي عليه في منصبه وتخلخله بين الفينة والأخرى ليفرط منه حقك. وإلا فاعصره حتى تبدل من طبيعته. وهو على كل حال رعديد يخاف أندادد من الأعيان سيما إذا مالأتهم عليه. ومن ذلك يتوجس.

- شيخ القعدات. إخوانه من أغنى الكسابين للأغنام. كان صاحب أبيك. ولكنه يبدي منك بعض الحذر. له عصبية على السفح الجنوبي من غير إيالتك. ومن أكبر أثرياء بلده. إذا تلكأ في القدوم أمكنك غزوه. لأن بلده خالية من الحصون الحصينة. وله أنداد يتطلع كل منهم ليخلفه ويأكل لحمه. ولا بد أن تجربه ببعض الطلبات في البداية.

- شيخ أعلى الوادي. ثروة بلده من الجوز والكسب. وهو جد حذر منك. معتز بأحلاف تربطه بناس في السفح الجنوبي. وهو ثعلب من ثعالب الشيوخ. متقعد على ثروة من الأشجار والأغنام ورثها وزاد عليها بحرصه وبخله. تنفع فيه الحيلة. إذا أغري بإعانته على الاستبداد ببعض المراعي. أحدث له سوقا في بلده يقاسمك مكاسبه. وإن لم يذعن حرضنا عليه رجلا من أندادد أهانه الشيخ بتطليق إحدى بناته لأن عيبها الإغالة وكثرة أكل التراب. ابدأه بالحسنى وانظر ما يكون من أمره.

- شيخ سفح الضباب. أكثر مال بلده النبق والعسل والخروب. ليست له عصبية. وهو من الحافظين للأعراف المرجوع إليهم في

الحكم بها، لا يجمل إزعاجه عن سيرته وإن كان متراخيا. فهو يبدي الإذعان ولا ضرورة للتهمم من جهته. ومن تحسب العواقب دفعه إلى توسيط ولده بينك وبينه وانتدابه لخدمة المخزن. وهو على كل حال أحسن كبار مشيخته، وأرى أن الفائدة في ضيافته وإشعاره بحظوة تثير غيرة الآخرين.

- شيخ شعاب الملح، مذعن لأنه يبيع ملحه إلى أهل السهل مرورا بالأسواق التي تحكمها. يخطب وده آخرون في غير إيالتك. ولكنه عاقل لا تستفزه التطلعات. له نزاع مع أنداد في مشيخته على الأنصبة الموروثة في حجر الملح. إذا عززته في وجههم ضمنت طاعته بلا كلفة كبيرة.

- شيخ شعاب البساتين، بلده غني بمختلف الشجر وكثرة الكسب. وهو نافر منك معتز بوعورة بلده وكثرة رماته. وهو يخاف أن تشاركه في ماله، إذا أطمعته في الزيادة قاسمك ما يأخذه منهم بتعزيزك. تنحاز عليه حتى يقع في قبضتك. أعطه مالا من عندك في البداية. فهو طماع يعميه الطمع. ولن يشعر أنك تستدرجه. وقد يكفيك همه أقرب مسخريه. وله أولاد أعمام يشعرون بالضيم من جانبه. باع منهم أملاكا كثيرة بأكياس زرع أيام المجاعة. وهم أعرف بأسراره.

- شيخ وادي الزيتون، بلده غني بمختلف الأشجار والكسب والخيل. يظهر نفورا لأنه متخوف. وهو داهية دبر مؤامرات لمنافسيه في أرضه وشتتهم وضرب بعضهم ببعض. متهم بالعثور على كنز قديم. لأنه كثير الترويج للمعدنين. يمكن أن ترهبه إذا أرسلت إليه قنطارا من فضة تطلب منه صرفها لك بالذهب من السكة القديمة من جملة ما عنده في الصندوق الكبير. فسيعلم أن سره قد انفضح فيخاف منك. ولعله يطيعك بلا مشقة.

– شيخ قبيلة أهل المعزى. بلده متوسط الغنى. لا عصبية له. حازم لكنه يبدي نفورا لأنه ألف الاستبداد بالقليل الذي يستجلبه من مغارم إخوانه. وكان في عهد أبيك يكتفي بهدية وأعشار. وهو سيئ السلوك. يعينك أهله على عزله ويفرحون ولا يقاتلون معه إن أخبرت أعيانه خفية أنك لن تحاسبهم على ما عندهم من المغرم القديم.

– شيخ المنازل. تعمر عنده سوق يأتيها التجار من الصحراء. وهو غير نافر ولكنه حذر لا يدري كيف ستأخذه إن بالرفق أو بالشدة. يسهل كسره بإفساد سوقه. ولكن ذلك ليس مما يرضي المخزن. فاكتب له تطمعه في البقاء. وقل له يأت ليقتدي به غيره. وإلا استعنت عليه بعسكر المخزن لأنه يستبد بالمكوس.

– شيخ القدامى. مذعن بالرغم من اعتداد إخوانه بحلف أصهارهم في السفح المشمس. حازم. في بلده أكثر الحدادين من صناع الآنية. ليس له ثروة تطمع فيها. ولكنه يفيد إذا خدمك وسار لغزو جيرانه أهل سهول الربع لأن شيخهم فتان ولا يترك أحدا على الإذعان ما أبقيته.

قاطعه همو وقال

– هذا لا أقبل شهادتك فيه حتى أجربه لأنه ابن غريمك القديم.

ابن الزارة : مثلك من يعرف الجميل ويأخذ الثأر من الظالم. وهذا ظلمني أبوه الذي قتل جاريتي وظلمني عمه الذي أحرق رجلي بالبارود. وما دخلت في خدمة أبيك إلا طمعا في أن يعمل الواجب يوما وينصفني. ولكنه كان قائدا بلا قيادة. والأمل فيك.

– أشفي غليلك إن شفيت غليلي.

– وهل تراني الآن بهذا الذي أسرد عليك أشتري الفضول أو أستجلب لعينيك النوم كما يفعل بعض مشارطي كتاتيب السهل مع شيوخ الدواوير ؟ لعلك لا تأخذ أمري بجد لأنك تنام وأنا أسهر من أجلك. وستعلم قيمة الحيل التي أستخبر لك عنها عندما ينهزم فرسانك من الجبل ويشهر بك المنتصرون عليك في الأغاني. وتضطر إلى طلب النصرة من أصهارك في السهل وهم غير متمرسين بالأوعار. ويرفع بك باروخ الدعوى لأن أصحابه التجار يعرفون الخليفة. ولا تعول علي حينئذ أن أسير في عصابتك إن لم تتبع خطتي.

– قلت لك إن شفيت غليلي شفيت غليلك.

– فيم. يا ترى ؟

– لا يهمنا كل الذين ذكرتهم لأنني لن أبدأ بأي منهم. ولا يهمنا الأشياخ الآخرون الذين ستذكرهم. إنما يهمني واحد أكثر من غيره. لعلك أخرت خبره لأنك متفق معي على أنه إن أطاع أطاع الجميع. أو قل إن طاع وحده كفانا مؤنة الإنجاد ومئونة المال. فعنده ما يكفينا من كل شيء وما نستعين به على الآخرين.

– هل تقصد الشيخ أحمد نايت ابرايم الذي كنت تناوشه عندما وصلك خبر أجل المرحوم ؟

– نعم. فهو الذي لم ترسل إليه من يأتيني بخبره.

– يوم تصل عش هذا الصقر تقف على حقيقة القيادة وتعرف شئون الرئاسة. لا سبيل لك إلى فتح قلعته ولو جمعت فرسان الجبل كلهم.

– نستعين عليه بعسكر السلطان.

– إذا كسرهم فستكون أنت المطالب بالخسائر والديات. ولعل الهزيمة تجر عليك العزل. وحتى لو اقتحمت قلعة أيت برايم بتعزيز العسكر فإنهم سيأخذون كل شيء وتعود بخفي حنين.

- قلت لك اشف غليلي أشف غليلك.

- كان والدك يحب أن يلعب الشطرنج مع باروخ يهزمه مرة على الأقل في كل طرحين، ويشعره بأنه أمام خصم يتعبه قبل أن يمتعه بمتعة الانتصار. فكيف تجعل حقي في الإنصاف مقابل أطماعك في العدوان. اطلب مني أن أجد لك حيلة تخرج بها الأسد من عرينه وتضع القيد في رجله ولا تدع أنك تستطيع أن تعطيني المقابل، وعلى كل حال فأنا أخدمك وكفى، ولن أنتقم من الولد بما اقترفه والده، فالمحقق أن ذلك الظالم الآن في جهنم.

8

تحدد موعد العرس بين أهل السالمة وبين ابن الزارة. النائب عن القائد همو. أثناء زيارة أخرى جاء فيها إليهم. وصادف الموعد يوم منتصف الشهر. ليلة تمام البدر؛ وهي مواتية لكي ينطلق الموكب من دار السالمة وقت المغرب. ليصل وقت الفجر إلى دار العريس في تمام ضوء القمر؛ تجنبا لكل المفاجآت من جهة مهاجمين محتملين. ولما سمعت السالمة بذلك التوقيت ارتعشت وعضت أناملها وسارعت بإخفاء ارتباكها واستغربت من لامبالاة أمها التي لا تفكر إلا في أن ترى لها أحفادا متعددين. والحالة أن المعتقد عند أهلها الهلاليين أن العروس يسرع إليها الحمل إذا زفت والبدر في تمامه. فكرت السالمة مهمومة في العواقب. وأخيرا تبسمت وقالت في نفسها : وليكن. لعلي احتاج إلى هذا؛ لعلي أحتاج إلى أنيس هناك بدءا من عامي الأول.

منذ وافقت السالمة على الزواج وهي ترى كل يوم أنها تفقد زمام أمرها تحت وطأة طقوس تهييئها للعرس والزفاف. طقوس لا تدبرها أمها فحسب. بل تشترك في تحضيرها وتنفيذها. وكأنهن ذوات حق مكتسب. شمطاوات العجائز الحافظات لكل تفاصيل العوائد. سيما إذا تعلق الأمر بمراعاة تلك الطقوس بحذافيرها في حق عروس متميزة هي ابنة قائد. فالسالمة غدت موضوع تخافت وهمس بين أمها وبين هؤلاء العجائز؛ تهيأ كأنما تجهز للحرب. واستنفر لذلك التجهيز كاتبو التمائم وحراقات البخور وعارفات بتحضير الفاسوخ وقارئات أشكال الزعفران المجمر. وهي تشعر من حولها أن الأم تتلقى من أجلها وتنفذ وصفات متوالية تذبح فيها أنواع مخصوصة من الديكة وتدمج في مركباتها أنواع مخصوصة من دماء الطير والوحش؛ حتى إن السالمة تخوفت في

وقت ما من أن تكون وصفة شيطانية من هذه الوصفات تتطلب ذبح غلام أفطس الأنف من عبيد والدها السود. هذا ناهيك عن إرسال السالمة خفية مع الخدم لتستحم في مياه بعض الغدران أو لتبيت ليلة كاملة دون علم الأب في بعض الأضرحة. وكم أكلت من عقاقير وكم أشربت من محاليل وكم وشمت منها مواضع في الجسم بأنواع من الأصباغ وكم أحرقت تحتها مواد وكم جُز منها زغب وكم علقت إليها حروز مطوية في صفائح من مختلف المعادن وكم طوقت بخيوط الصوف والقيطان وكم نظمت في خصلات شعرها أنواع من خالص اللبان والمرجان.

تحملت السالمة كل ذلك من أجل أمها التي غدت أسيرة في قبضة الزافات توشك أن تلوكها ألسنتهن بقذف كاللهيب تشهيرا بها في أوساط القبائل عندما يعدن من العرس، لأن كل تمرد للبنت يفسره هؤلاء على أنه تستر على شيء لا يليق إبداؤه، والأم تريد، عكس ذلك، أن تجلو ابنتها على كمال. وبذلك تلقم حجرا كل المعروفات في القبيلة بترويج الكلام، ويكون منظر العروس قذا في أعين الناظرات، جلوة تبلغ قمتها يوم العرض قبل يوم الزفاف.

وقد استخبرت الأم بواسطة نساء من عيونها المؤجرات عما يجري في جهة دار العريس، فعلمت أن لاشيء هناك يستحق الانزعاج، فالقائد همو يهمه قبل كل شيء أن يحضر ضيافته أصهاره العرب حتى يقفوا على عظمة قيادته ويبين لضيوفه من شيوخ الجبل وأعيانه أنه، على حداثة شأنه، متفوق عليهم في المسكن والفراش والإناء والطعام والنظام، وفي ما عدا ذلك فهو مشغول بالتملكات والمؤامرات. أما من جهة داره، فلم يكن له أخوات ولا عمات ولا خالات يعنين به كعريس. وإنما هناك زوجتاه المقهورتان في هذا العهد الجديد، يتولى ابن الزارة ضبط أمورهما ويرسل إليهما أخبارا مرهبة مع الخادمات، وقد طرق

سمعهما أن عرسا سيجري في الدار الجديدة المجاورة للدار التي تسكنانها. ولا حيلة لهما في عمل شيء يضر أو ينفع. ومن هذه الأخبار تيقنت أم السالمة أن لا خطر على همو ولا على عروسه العربية من أعمال السحر المعتادة في مثل هذه الأحوال.

وبموازة طقوس إعداد العروس من قبل النساء. كان القائد ولد الشهباء يحضر لعرس ابنته بعناية كاملة. فقد توسع في بناء قصبته. وجدد تجيير بعض قبابها وغرفها، واقتنى خيمات جديدة لتجري فيها الخيول أمام ضيوف السهل وضيوف الجبل على السواء. وجددت أفران الشواء. ونظفت مزاريقه. وتعبأ الفخارون لصنع الآنية. وفتحت مطامير زرع مقبور منذ سنوات الخير. وتمت تنقية القمح بالمراسيم المتبعة عند المنقيات، وصنعت النساء المتطوعات جبالا من حب الكسكسون حتى لا يحتاج قبل تقديمه إلا لتبخيرة واحدة وسقي بماء اللحم. وصنعت جبال أخرى من الخبز المهيأ على الحصى في الأفران المخروطية المعلومة. واستكملت من الأسواق الحاجة من العسل والزيت والسمن، واشتريت أنواع الطيب من أسواق الحواضر، واقتنيت الأكسية لجميع من في الدار، واشتريت حوائج العرس لعدد من الخدم والمسخرات والمكفولين والمكفولات. وأحضرت بالمناسبة نفسها لوازم إعذار عدد كبير من أطفال القبيلة على نفقة القائد. وأرسل القائد إلى عزبان ماشيته المتفرقة على المراعي فجيء منها بعشرات رؤوس الإبل والبقر والغنم المعدة لتذبح للعرس. فجمعت في حظيرة بجانب القصبة.

أقيم العرس في دار العروس ثلاثة أيام فاخرة. جرت فيها الخيل والإبل ،وأقيمت محافل قدمت فيها أنواع عديدة من الفرجة زيادة على ألعاب الفروسية. وحضر آلاف الزوار من مشيخات القيادتين. وحرص القائد المضيف على أن يخلط بين

أهل السهل وأهل الجبال تحت المضارب وفي قباب القصبة، وظهر العرب على ضيوفهم بفصاحة اللسان. على خلاف ما يقتضيه الموقف المعتاد من ضعف أهل العروس أمام أهل العريس، واكتفى أعيان الجبال في معظم الأحيان بالسكوت أو بالابتسام والإيماء للموافقة على كلام قلما يفهمونه. وكلما مر القائد ولد الشهباء بين ضيوفه مرحبا. رشقه بعض المتجاسرين من شيوخه وأعيان قبائله بعبارات يفهم منها تمنيات ساخرة بأن تكون هذه المصاهرة إيذانا بضم قيادة الجبل إلى قيادة السهل تحت إمرته هو. وكأنهم متيقنون من أن مثل ذلك الطموح وحده يمكن أن يبرر ما اعتبروه تضحية القائد بابنته.

أما النساء الضيفات فلم يكتف بعضهن بالتلميح إلى عدم رضاهن. بل جاهرن بالامتعاض من إيثار الأجنبي ببنت يزري خروجها بفحولة الفرسان من بيوتات قبائل السهل. كظمت أم السالمة غيظها على أولئك الجسورات، وعملت على تفادي وقوع أي لمز من ذلك القبيل في أذن بنتها، لكنها لم تملك أن تعزلها عن الفضوليات والناقمات أثناء طقس تقويس الحناء وطقس المشط المرفوق بأهازيج الوصايا وطقس الإبراز أثناء تقديم الهدايا المسماة ب "الغرامة".

وكان فتح صناديق هدايا الخروج مفخرة للأم وصاحباتها. وقد تضمنت كل ما اخترنه من الحلي عند حضور الصائغ اليهودي إلا القلادة الكبرى، ولكن أم السالمة فهمت أنهم احتفظوا بها لتكون هدية صباح العرس. لكن الذي أحزن وأخاف أم السالمة هو ما ظهر على العروس من علامات عدم الرضا، بالرغم من التحمل والصبر. فقد كان معروفا عن السالمة أنها تعشق التخضب بالحناء منذ صغرها. ومنذ صارت شابة مكتملة وهي تكلف أمها بمناسبة أو بدون مناسبة أن تستدعي لها المعلمات الماهرات في نقش الحناء من

مختلف الآفاق. وكان يحلو لها أن تتمدد لهن من الضحى إلى وقت العشاء. وكانت بهيئتها تلك تمارس نوعا من القهر على الجميع. لأنها في الحقيقة متعة كاملة. أكبر من يثمل بمنظرها الأم نفسها. ثم النقاشات اللائي يشعرن وكأنما تتيح لهن الصناعة أن يتناولن منها جسم عاج مطيب لحورية خرجت لتوها من البحر. ثم النساء اللائي بالدار من الخادمات وغيرهن، يفتعلن الأسباب للوقوف على ذلك المنظر السني برهة قبل أن تردهن تنبيهات مولاتهن إلى الصواب ويجمع منهن صراخها ما تشتت من الجوارح. ثم يأتي أقارب السالمة. من لداتها الشابات وأقرانها الشبان أيضا. فهم مطالبون بأن يتحفوا المتخضبة بهدية. حتى إن بعضهم أصابه الإرهاق من ذلك. والسالمة تجد لذة في سماع أقوال من يحمل إ ليها الطريف من أخبارهم.

كانت السالمة تعرف أن التمدد للحناء هو أنسب الأوضاع لتؤكد للجميع أن أمها ولدت بنتا جميلة رائعة الحسن فائقة الكمال. وكانت تحب أن تتولى نقاشات الحناء إبراز تلك المفاتن بعبارات تهتدي إليها أولئك المجربات. كما تحب أن تسمع منهن أوصاف زبوناتهن الأخريات من كواعب بنات الأعيان اللائي لا يزيد بديع حسنهن. في نظرها. سوى تأكيد تفوقها هي على الجميع. ومن قبيل انتشائها بصنيع الناقشات أنها لم تتمالك ذات يوم أن نزعت من أذنها قرطا ذهبيا بزمرد فخلعته على معلمة حناء. لأن هذه الأخيرة بالغت في إطرائها وزايدت بأن طلبت من الأم قفة منتصفة بورد يبس لتضع في نصفها الآخر شعر البنت وهي ممتدة للحناء. حتى تجلوه فتنة خاصة إلى جانب ذاتها الكريمة المريعة.

لم يظهر على السالمة أثناء طقس العرس شيء من حبها للحناء ولا لإجلاء محاسنها. ولم يظهر عليها أنها أصغت بانتشاء

للناقشات وهن ينشدن

مد يدك للحنـــاء فوجهك وجه القمـــر
مد يدك للحنـــاء أنت المسك والعنـبر

بل ظهر عليها القلق والاستعجال وتسببت بحركاتها المضطربة في إهراق إناء الحناء مرتين، ولم تقبل أن تفاتحها النقاشات في أي موضوع من تلك المواضيع التي كانت من قبل تثير فضولها وتستفز غنجها وضحكاتها الهادفة إلى إظهار أسنانها المتراصة اللامعة.

وفي أثناء طقس الماشطات بلغ حزن الأم مداه لأن السالمة التي كان الخادمات يتنبأن لها بالفضيحة، لأنها لفرط مرحها وانشراحها، لن تستطيع حتى أن تتصنع دموع التماسيح في أثناء هذا الطقس بالذات، قد فاجأت الجميع بانخراطها في بكاء مرير سالت به دموع مآقيها حتى جرت على أطراف الشعر وعلى أيدي الماشطات، وظهرت بفعله من وراء البرقع عيناها محمرتين كالجمر، وسمع نحيبها من بعيد حتى أثار الشفقة وحرك المشاعر وأغرق في الدمع كثيرا من ذوات الأعذار ورقيقات الأحاسيس.

كان طقس الإبراز للهدايا آخر شيء أحرج أم السالمة، وذلك لأن بنتها بدت مسمرة على منبرها كالإمام للصلاة، لا تبتسم ولا تحيي أحدا ولا تغنج، فهي غاضة طرفها وعليها ظلال الحزن والكآبة، فكأنها عروس القصب في أيدي محركاتها من النقافات، ولم يستر حالها إلا الظلام لأن مدة الجلوس طالت لكثرة المهدين، ولم تأبه السالمة لكلام أمها التي انحنت عليها عدة مرات لتهمس في أذنيها متوسلة لها أن تبدي شيئا من الانشراح لأن وجهها مثار التشفي من جهة الأعداء، تقصد المعترضين على ذلك الزواج، بيد أن السالمة زادت في تعنتها عندما طلبت من النقافات أمام الجميع

أن يقمن بإزالة حليها الذي جاء من دار العريس وتعويضه بحلي أمها القديم المعروف من لدن عدد كبير من الحاضرات . وعندما ذرفت الأم دموعا غالبتها وأخذت تؤول الأمر بإرجاعه إلى شدة تعلق البنت بالأم. وقالت صويحبات الأم إن البنت أرادت أن تبدو بحلي امرأة ناضجة لتعبر عن إقبالها الكامل على حياة الزواج.

حرصت السالمة في جل أوقات أيام العرس، خارج مدة الطقوس، على أن تكون وحيدة بلا وصيفات. تسد عليها الباب في البرج لتطل على ميدان سباق الخيل. وهناك كانت تجلس أمام شباك الشرفة تنظر إلى أسراب المتسابقين. فقد كانت تخشى ألا تتاح لها فرصة أخرى للاستمتاع بهذه الفرجة المحببة لديها. فهي تحب الخيل كما تحب الحناء، وكانت تدخل الإصطبل وحدها لتلمس الخيل، تحمل مع بعض الخادمات حناء تضعها في ساق الأفراس التي لا يركبها غير أبيها، بل إن أمها ضبطتها غير ما مرة، وهي طفلة، تحاول أن تدخل وجهها في لجام فرس أبيها متشبهة بها. وكان جل لعبها التشبه في المشي بتلك الفرس. فهي تمشي على أربع وتلقي بشعرها من على قفاها، وتقول : لولا هذا الشعر الذي أتعثر فيه لكنت أجري مثل فرس أبي. كان ذلك يزعج أمها أحيانا وتلقي باللوم على زوجها القائد الذي كانت له في شبابه فرس رائعة أحبها حبا شديدا، فما أن تزوج بمدة قليلة حتى ماتت في إصطبلها بنهش أفعى، وحزن لذلك حزنا شديدا. وكانت زوجته حاملا، فلما رزق ببنته هذه سماها السالمة، وكان اسم فرسه السالكة. ولذلك كانت البنت لا تجد غضاضة في أن تسميها الخادمات باسم السالكة، إن لم تسمعهن أمها فتنهرهن. وكانت الخادمات يحرن في ما إذا كن يرفعنها بتلك التسمية أو ينقصن من شأنها. ومع الأيام تشببت البنت وتبين للجميع أن لها

قوام فرس والدها الأولى من حيث الرشاقة والاعتدال، ولها أيضا ما يحكى عنها من الدهاء والانسجام. وهاهي السالمة في أيام عرسها تشاهد فرس أبيها وقد ركبها فارس شهير، وابتهجت لذلك. لأن الهدف هو أن تكون هذه الفرس هي المجلية في ذلك اليوم. فهو يوم السالمة التي كانت تضع الحناء في رجل هذه الفرس وتحبها. تساءلت السالمة وهي تراقب السباق عما إذا كان في الجبل الذي ستزف إليه أرض متسع لمضمار الخيل، ولكنها لا تشك أن في تلك السفوح والوديان فرسانا مغاوير وإن لم يكونوا بأعناق هؤلاء الذين تشاهدهم الآن، وجرها الخاطر السريع إلى أن تقول في نفسها لعل زوجها فارس من هؤلاء. وإن كان على الصفات الخشنة التي نقلتها إليها الطابخة. ولكن السالمة سرعان ما عادت إلى قلقها لأنها تساءلت عما ذا يمكن أن يبقى في فارس تموت في عهدته فرسان ويعن له أن يتخذ فرسا ثالثة.

تجادل أهل العريس الذين جاءوا لحمل السالمة، وعلى رأسهم ابن الزارة صاحب القائد همو. مع أهل العروس حول ركوب العروس إلى دار زفافها. فقال أهلها يكون حملها على ناقة عذراء. وأصر أهل العريس على أن الشأن أصبح شأنهم وأن مركبة الجبل هي بغلة القائد نفسه. غير أن نساء دار السالمة اعترضن اعتراضا شديدا على أن تركب السالمة بغلة الجبل. لأنها مطية جميع الخسارات. فالبغلة في اعتقادهن تقبل السحر من حيث تفسخه الناقة. وأمام إصرار الفريقين، كل على رأيه. قبل ابن الزارة أن تركب العروس ناقة أهلها في واطئ الأرض إلى مشارف الجبل ثم تركب على بغلة الزوج الفارهة بقية الطريق.

والواقع أن ابن الزارة تحوط مما هو أخطر من السحر. وهو مؤامرات الغاضبين على القائدين من أهل القبائل، وحتى لا تقع العروس في كمين غدر، دبر مع أم السالمة أن يكون نقل العروس

على فرس والدها ولا تسير في الركب، بل تسير في طريق أخرى يصحبها هو وخفيران من أهلها. يخرجان خفية ويسلكان طريقا آمنا، ويوهم السائرون في الركب من أهل السهل وأهل الجبل أنهم يحملون العروس حيث لا يحملون في الحقيقة سوى بنت من خدم دار أمها لها مثل سن السالمة وقامتها.

تم كل شيء كما خطط له ابن الزارة، ونزل ضيوف السهل المرافقون للسالمة أياما في بحبوحة ضيافة قائد الجبل. وبهرهم ما رأوا من البذخ والنظام الذي لم يكونوا ينسبونه لهذه الجهة، وعاد جمعهم وهو مقتنع أن بنت القائد ولد الشهباء حلت بدار سيكون لها من الشأن ما يكون.

لم تخب كل آمال السالمة حيث وجدت في همو رجلا قويا. ولكنه مجبول على إرهاب من حوله بالصخب. وهي لا تعرف مزاياه وعيوبه الأخرى، ولا تستطيع أن تعرفها الآن. لأنها لا تعرف غير أبيها من الرجال. وتنبهت لأول مرة إلى أن اسم همو منفر لها، و لو استطاعت أن تبدله لفعلت. لأنه من كلام البقر. ولم تفهم هذه الضرورة التي جعلت قومه يختصرون اسم محمد إلى همو. واكتشفت أنها ستحرم من جلسات تجمع الرجال والنساء على عادة أهلها، ولكن الأمر الذي أذهلها أكثر من غيره هو ما تأكد لها من كون القائد همو عند نفسه هو قائد قبل أن يكون زوجا. وهو مستعجل في كل أموره، مهموم إلى حد الكآبة بشئون قيادته. احتارت السالمة من جهة أخرى لأمر لا تعرف ما إذا كان سيساعد على تيسير أمور حياتها أم سيكون سببا في مضايقتها عند همو. ألا وهو حضور دائم لابن الزارة في حياة زوجها حتى كأنه نصفه الثاني أو الأول. لا تبرم صغيرة ولا كبيرة إلا بإشارته. ولكن وحشة السالمة أخف لأنها اصطحبت أمتين مجربتين من دارها

محسوبتين في جهازها. وهي إلى ذلك في جو دار همو التي خصصت لها لا يزاحمهما أحد.

في اليوم السابع الذي وضعت فيه السالمة الحزام حول خصرها بمراعاة الطقوس المعلومة. حيث كان عليها أن تجلس للخدمة ولو بفتل حبات كسكسون. جلست على تحية الزغاريد واشتغلت تحت هيبة الأهازيج. ولما أرادت أن تقوم من أمام قصعة الفتل أحست بدوار شديد في الرأس. وكان الحاضرات في غمرة الاحتفاء لا يشعرن من حالها بشيء. ولكنها سارعت إلى الميضاءة المجاورة لغرفتها وهي تشعر بالغثيان. ثم قذفت من القيء ما جعل خادمتيها تدخلان معها بيت فراشها لإسعافها بالمحاليل الساخنة وتعصيب رأسها بالمناديل وإطلاق ما تطيقه من الأبخرة في المكان. وتراشقتا بالنظر. وقالتا هل ترى وقع المحظور ! العروس أصابها أذى العين من نساء يسكنهن الشياطين. وتعجبتا من أن يكون كل ما عمل لها من الأشغال في دارها بقصد الحفظ لم يفد. وتريثتا. وظهر من أعراض أخرى بعد أيام أن الأمر غير ما حسبتاه. فاجتمعتا على السالمة بالعناق وإظهار الفرحة لها لأنها إن سلم الله. ستصبح أما في أقل من عام من زواجها.

جلست السالمة في شرفة البرج المجاور لغرفتها وهي تطل على ميدان أجرد وراءه بساتين. ووراء ذلك الميدان أحمرة. يحاول بعضها أن يعض بعضا بكيفية عنيفة وغير سديدة. فشعرت بالحنين إلى منظر الخيل. وصممت أن يكون لها منها رديف في إصطبل تحت هذا البرج. وقررت أن يكون ذلك أول طلب تسبر به عمق نخوة همو ومكانتها لديه. ثم تداركت وقالت : وهل يليق بها أن تضعف أمام هذه اللذة. لذة النظر إلى الخيل. فتطلب منه وهي لا تدري ما إذا كان سيرضيها بالنفس الذي تريد ! لا. لن تطلب شيئا. فهذا كله عبث إذ لم تسر الأمور على ما يرام

منذ البداية. لكن، هل هناك أمور تسير على ما يـرام إلى النهايـة ؟. فبدايتها هي تلك الدعة التي نشأت فيها بين أم وأب يتغاليـان في الإباء حتى يكون أحدهما أكرم للآخر. نشأت كأنها القائدة لقلوب قوم بأجمعهم في دار عامرة تتجدد فيها بسببها كل المشاعر النبيلـة . وهي الآن من إدراك ما أنفـق عليهـا مـن ذلـك الحنـان الكثـير. تتساءل ووساوس ملحة تخامرها وتقول: فعلوا ما فعلوه من أجـل ماذا ؟ ما لهم أهدروه ؟ وبهذه السرعة. وما فائدة كل العطاء وكـل الطقوس إذا كان المآل في النهاية هو دفعها إلى عـالم المجهـول ؟. لكنها تعود لتشك في نفســها حتـى لا تبـالغ. فهـم وراءهـا بنفس الدفـق العـاطفي والأزر الأســروي. بيــد أنهــا الآن. وفي جميــع الأحوال. لم تعد تلك المرأة الوحيدة المستقلة. ففي أحشائها حبـل يربطها بالآخر. لا داعي إلى الاهتمام بذلك الآخر. فالحبل في حد ذاته يكفي. ما أعجب الولد ! والوالد قد لا يهم. لكنها قـررت أن تنتظر حتى يتجلى لها مقدار تلك الأهمية. تنبهت السالمة إلى أنها لم تعد ترى مـا تحـت الشـرفة منـذ اسـتغرقت في أفكارهـا داخـل نفسها، وتبين لها أنها صارت تفكر مثل جدتهــا بحكمـة جاءتهـا مبكرة. فقامت وخرجت.

9

في يوم ثامن العرس جلس القائد ومعه ابن الزارة في جلسة كلامهما الخاص بعد المغرب. وقال ابن الزارة لصاحبه ممازحا :

– لعلك من الذين ينكرون الجميل ؟

– أي عوج جديد في كلامك هذا ؟

– أنا محق لأنك لم تشكرني على مقضيتي.

يريد رأيه في العروس التي اقترحها وتوسط فيها.

فقال القائد :

– تبارك ا لله أحسن الخالقين.

فقال ابن الزارة :

– خالطتك العرب وصرت تقول الشعر.

فأجاب همو : هذه عبارة صاحبك القاضي. رشقني بها تملقا بعد عودته من أخذ شهادة عقد النكاح. ولقد كنت أنت حاضرا وتركته ينظر نظرة ثانية.

– لا، لم يحضر، وإنما أخذ الشهادة أحد العدلين من وراء ستار. ووالدها بينهما، وهو موثوق في كونها هي التي تتكلم.

– لعل بعض شياطين أعيان السهل حدثه عن أوصافها من خلال ما تحكي النساء للأزواج.

– لقد صدق على كل حال.

– ولقد عاد هذه الأيام وتجرأ فرشقني بعبارة أخرى ضمنها إشارة خبيثة.

ماذا قال ؟

– قال لي وهو يضحك شطر بيت حفظته في صغري من همزية البوصيري : *كيف ترقى رقيك الأنبياء*. لعله يشير إلى طول قامتها.

فقال ابن الزارة : ويشير إلى قصر قامتك. وأنت قائد ولم تؤدبه. أنا لا أضمن لك الغلبة إذا كنت تتركهم يتكلمون ولا يتقون غضبك. الحاكم الذي يعرف الناس ماذا سيفعل بعد رمشة العين ليس بحاكم. وعلى كل حال فالجريمة ثابتة إذا عن لك أن تودعه السجن في يوم من الأيام.

– دعه يستأنس. فلنا فيه حاجات.

– هذه من أصول القيادة ودهاء السياسة. فتبارك الله أحسن الخالقين. على كل حال لابد أن تشكرني لأني اخترت لك الزوجة واخترت لك القاضي.

– أما على الزوجة فنعم. أما الشكر فما أنت إلا صنيعة أبي.

– نعم. أنا صنيعته في الجد الذي لا ينفع معك !

– إن العتاب الذي تستحقه مني يستغرق الشكر ويزيد ؟

– وفي أي شيء أعاتب ؟

– لم تختر التوقيت ؟

– إن هو إلا صبر أيام ؟

– الأمر أهم من ذلك. فقد جاء القنديل بفتيل مشبع بالزيت.

– لا تنتظر مني أن أتجسس لك على الشيوخ وأتجسس حتى على الأقمار.

– لعلها من تدبيرات ابن الشهباء الذي يستعجل أن يكون له حفيد وارث في الجبل.

– لقد بالغت في التكهن و الشطارة. لأني أنا الذي حددت موعد العرس وفرضته عليهم. ثم ماذا في الأمر الآن ؟

– فيه أننا دخلنا توا في التشهيات وإعافة الأنفاس من البداية.

– وماذا تشهت عليك ؟

– همت مرتين أن تقول وأحجمت.

– إن في ذلك خطرا على ابنك. سأدبر الأمر. ثم كيف تحققت أن الحال على ما تدعي ؟

– كثرة القيء وإعافة الأنفاس بخلاف الليالي الأربعة الأولى، ثم إن أمتها الكبرى التي تتكلم لساننا عرفتها قبل أن تعرف هي حالها وأخبرتني.

– إذا أخطأت وكنت أستحق العتاب فسأكفر عن خطئي وأعوضك.

– كيف ستفعل ؟

– سأبحث لميزانك عن كفته الثانية.

– ماذا تقصد بالذات ؟

– إن أهل الجبل، وهم رعيتك، غير راضين بكونك طلبت أول عروس لك بعد الفوز بالقيادة من خارج أرضهم. فهم غيورون على بناتهم.

– عليهم أن يظهروا الطاعة والإذعان أولا.

– أنا أفكر لك في طاعة العرب. في ما هو أدهى وأمر. حيث ستواجه الحرب ولا تستطيع استعمال البندق والبارود.

– أي عرب تقصد ؟

– عروسك هذه. فقد شبت على فكرة أهلها في الاستخفاف بأهلك. ولا ينفعك أن تعيد تربيتها. ولا تملك أن تنسيها ما شبت عليه إلا إذا ملكت منها الإحساس. ولا تكفي في ذلك جعجعتك لأن بنات السهل مدللات. وليس لك من وقت كما لأبيها الذي تمهد له الأمر منذ أن ورثه ممهدا من أبيه. وباختصار فإنها لن تطيعك إلا إذا وازنتها بعروس تتزوجها من الجبل. في مثل حسنها أو تزيد. تخلخل بها فكرتها الناقصة في أهلك.

– وأين ستجد مثل هذه في الجبل؟

– هذه هي القضية. فأنت تحتاج إلى أن تصحح فكرتك عن أهلك قبل أن تغير فكرة الآخرين عنك وعن أهلك. سآتيك من هذا الجبل بواحدة تقول فيها وتكررها. وأنيابك بارزة : تبارك الله أحسن الخالقين.

– هل تريد أن تنصب للحرب متاريس في وسط داري ؟

– وهل انقرض البناءون ونفِد الحجر والتراب حتى تجمع فتنتين في دار واحدة ؟ اجعل كل واحدة في دار ودع خيالها يسرح في تصور فعلاتك مع جارتها.

– الذي أراه لرتق ما بيني وبين هؤلاء الجبليين الآن هو الاستعداد لتطويعهم بالحرب. وسبي بنات العصاة منهم.

– لأنك لا تستطيع أن تقودهم بغير العصا. ولو استطعت لكان خيرا لك.

– أنت تصور لي السجون والمكايد التي شاهدتها عند قواد البلدان وتتحدث عن شيء آخر لا أفهمه.

– لأني عرفت من يمشيهم بغير العصا فوجبت الشهادة لله. هو فريد حقا في بابه. الحاج احماد، شيخ سكورة. يحب أهله ويجبر كسرهم عند المخزن. ولو ناله مكروه لنافحوا عنه.

– أسمع بمحنته بإخوانه. يتصرف وكأنه أمهم الرؤوم. وهو محل تهكم القواد أينما اجتمعوا، ولا أريد أن أكون في محله. قل لي ماذا جنى من كل ذلك؟

– جنى منه النوم على جانب الراحة بحيث لا يخاف مما يخاف منه جل القواد، أن يبيت أهل قبائلهم ولا يصبحون. يهجرون ويتركونهم مطالبين بوظائف المخزن. ولا تنس أن الناس يعتقدون أن الورود تصلح في بلد هذا الشيخ بفضل حسن سيرته في إخوانه ومحبته لأهل قبائله وتحمله حتى لأذاهم.

– لقد صرفتنا عن الموضوع، موضوع جبليتك الحسناء.

– سيأتي وقته. المهم عندي الآن أن تكون على بال منه حتى نعود إليه في موعده.

استأذن ناس آخرون من الأعوان في الدخول. وأذن لهم. واشتغل معهم القائد ومشاوره في تدبيرات مختلفة. ولما تعشى القائد انصرف ابن الزارة. وذهب يبحث عن أمة السالمة التي تتكلم لغة البلد وتتساهل في الإخبار بقليل من شئون مولاتها. حتى وجدها. ولم يغمض له جفن حتى عرف أن السالمة في حالة وحم حقيقي. وأن الشيء الذي تشتهيه وأحجمت عن طلبه للقائد هو رائحة إصطبل خيل به أفراس فارهات مستويات الظهور. وذكرت الوصيفة أن سيدتها تفكر في إبلاغ هذا الطلب إلى أمها مع أقرب زائر من أهلها بمناسبة السوق القادم.

أخبر ابن الزارة صاحبه همو في غده بما علمه من وصيفة السالمة. وأن وحمها المبكر جعلها تشتهي أن تنظر إلى أفراس كاملة التكوين وأن تشم رائحتها في الإصطبل. وتبادل الرجلان عبارات مازحة حول غرابة هذا التشهي وحول ما يمكن أن يكون عواقب حرمان الحامل من مشتهاها أو من التأخر في إرضائها. فقال همو :

– لعل الولد يكون فارسا إن شاء الله.

وقال *ابن الزارة* : أو ولدا تكون له عادة الفرس الحرون مثل أبيه. وأضاف : الآن فهمت لماذا سموا ملتقى الجبل والسهل بالدير لأن هناك اسم الفرس مضمرا.

فقاطعه همو وقال : الدير للبغل مثلك وللفرس السريجة بالتواشي.

وقال *ابن الزارة* : عليك الآن أن تؤدي ثمن التواشي قبل أن تشتري السرج، وما أعلم تواشي أطرف من شهية امرأتك. أربعة أفراس على الأقل بألفي مثقال للواحد، وإن شئت تجاهلت

الأمر كأنني لم أنقل إليك هذا الخبر. ووالدها يقوم بالأمر. وعنده من عشرات الأفراس ما يختار منها.

همـــو : نتركه حتى يبعث بتحفته ونعاتبها. ثم نأتي بأفراسنا.

ابن الزارة : إذا غضضت الطرف كانت لك معرة عند العرب.

همـــو : المهم أننا سنستعمل الأفراس في أغراضنا الآتية.

ابن الزارة : لا تنفك تفكر في شئونك مع بنت قائد السهل وكأنك تنسج على منوال الوالد المرحوم مع المرحومة في أيام صباك، لم تعر كلامي التفاتا عندما قلت لك إن طاعة العربية غير مضمونة. فأفراسها إذا جاءت من أبيها لن تستعمل إلا لشم أنفها. أقصد لوحمها ولفرجتها. إن لم تعفها هي أيضا.

قامت السالمة، كما أخبرت خادمتها، بإرسال خبر حالها إلى أمها مع ناس حملوا إليها يوم السوق حاجات من قبلها. ولم يفت ابن الزارة متابعة ذلك الاتصال بوسائله الخاصة. وبعد أسبوع، أي في صبيحة ثاني يوم السوق الموالي. وصل خادم من جهة القائد ولد الشهباء إلى دار القائد همو يخبر بأن موكب تبريكة الحمل سيصل إلى السالمة من دار أبيها عصر ذلك اليوم.

كان في الموكب خالة السالمة على فرس ووراءها أربعة سياسين يأخذ اثنان منهما كل واحد بلجام فرس ملطاء. وإحداهما فرس القائد التي يسمونها بنت السالكة، وتسميها السالمة بأختها، ويأخذ الآخران بلجامي فرسين أدهم وأسود. ووراء الخيل أربع بغلات محملات بأكياس وقدور وحقق بها مواد متنوعة كالتمر واللوز والجوز والعسل والسمن والحناء وسواك قشر الجوز والصابون والغاسول والبخور والشب والقرنفل والند وتقصيصات حرير وكتان. ووراء البغلات امرأتان تتناوبان على حمل عروس

قصب على رأسها شد أصفر محزومة اللباس في مستوى الركبة بشكل جعل بطنها ينتفخ بالهواء. وخلف الركب فرقة من الطبالين والغياطين ترقص على إيقاعهما أمتان عند دخول باب سور قصبة صاحب الجبل. توقفوا هنالك حتى استقبلهم رجال ونساء من دار القائد همو. وبمرورهم عرف كثيرون ممن في البلد في تلك الليلة أن عروس القائد تنتظر ولدا.

استقبل ابن الزارة موكب التبريك ورحب بهم وأدخلهم إلى الدار التي بها السالمة، وهم في غمرة الإيقاعات والرقص. وأدخل العبيد أحمال التبريك إلى وسط الدار ودارت حولها الحلقة، وخرجت إليهم السالمة، وحيوها. وكان فوق رأسها شد كالذي فوق العروس التي من قصب. وكان القائد يراقب المنظر من شرجب غرفة في الطبقة ولا يشعر به أحد، وهو يعجب من دخول عادات إلى داره ليس له سوى أن يسايرها.

وفي جلسة بعد المغرب أخبر ابن الزارة صاحبه القائد همو بما تكونت منه هدية التبريك التي جاءت للسالمة، وأخبره بأن السالمة طلبت منه أن تأتي زوجتا القائد المهملتان من الدار المجاورة لمشاركتها فرحة تلك الليلة والعشاء، وأنه أبلغهما أن تستعدا لضيافة دون إخبارهما بالاتجاه في انتظار موافقته.

وفي صباح الغد وقبل طلوع الشمس، دخل القائد الإصطبل ليرى الخيل التي جيء بها هدية لزوجته، وظنها هي منشغلة في المطبخ بالإشراف على تحضير فطور الضيوف. فإذا به يفاجأ عندما وجدها قد سبقته إلى الإصطبل هناك، وكانت تطوف بفرس وتتمسح بها، وقالت له : هذه أختي، فأجابها همو : تبارك

الله، تبارك الله، وانسحب لكي لا يحرجها، ولما حضر إليه ابن الزارة على الفطور قال له :

– لقد زوجتني بامرأة خرقاء، تقول إن الفرس أختها.

فأجابه *ابن الزارة* : احمد الله على أنها لم تأت لك بناقة لا تعلو لدخولها أبواب دارك التي بناها معلمون لا عهد لهم بالأبواب العالية، وتهمتك لها لا تكفي في التملص من شراء هدية مماثلة، ومن ملء تلاليس البغال التي حملت الهدية بطرف يحبها العرب.

فأجاب همو : ضع في نصفها أحجار الملح وفي نصفها التين والورد اليابسين، وابحث عن عارفين يذهبون لشراء أربعة من الخيل.

نفذ ابن الزارة توصيات القائد واختار رجالا يعرفون شئون الخيل، فأرسلهم بعشرة آلاف مثقال إلى سوق بالحوز هو الملتقى الأكبر للكسابين، يدعى سوق البخاري، لأن المعاملات فيه مضمونة منذ القديم بكتاب حديث البخاري وكأن من دخله أقسم على هذا الكتاب ألا يغش صاحبه بائعا أو مشتريا.

10

عاد المتسوقون الذين أرسلهم القائد همو إلى ملتقى سوق العام المعروف بالبخاري وقد ابتاعوا أربعة من الخيل المسومة. وصادف رجوعهم استعداده للسفر بهدية العيد إلى الحضرة بفاس، وكان هم هذا السفر وتهيئ لوازمه والهيبة من القدوم على الحضرة والتفكر في ما يمكن أن يقع في غيابه، وإن كان لا يستهين بابن الزارة في الاحتياط لكل شيء، كانت هذه المشاغل كلها قد حرمته من نوم جزء من الليل وصرفته حتى عن عروسه وأوحامها، وجعلته يؤخر مشاريعه في غزو الشيوخ أو الاحتيال عليهم، وصار كلامه مع ابن الزارة وتوصياته للتدابير بينهما تنحصر في ركب السفر ومئونته ومقدار الهدية ومتطلبات الأدب مع الوزير الذي لم ينس القائد همو ما أحاطه به من الإكرام والتشريف والالتفات يوم كان في فاس لأخذ ظهير القيادة.

وبعد أيام قليلة حل موعد السفر. وخرج مع القائد في السفر اثنان من الشيوخ الموالين وثلاثة أعوان من المكلفين بنصب الخيام وطباخة ومعاونتان لها وأربعة من العبيد وخفيران حاملان لسلاح البارود ومؤنس مشهور كان يقيم الشاي في مجلس القائد. وحرص القائد على الخصوص على أن يصحب معه صاحبه اليهودي باروخا احتياطا لمزيد احتياج طارئ إلى المال الناض، وباروخ له عشيرة من التجار بمدينة فاس وبغيرها من كبريات المدن.

استغرق السفر اثنى عشر يوما نزل في مراحلها القائد همو وركبه ضيفا على أنداده من قواد إيالات الطريق أو على من ينوب عنهم إن كانوا قد سبقوا في السير إلى الحضرة. ورأى همو وصحبه من أنواع المراسيم وعدة الحكم ووسائل الضيافة ما أعجبهم بل

وبهرهم. تعلم منها همو الكثير ورأى فيها ما يستحسن الأخذ به في سبيل استكمال هيئة القيادة على شروطها.

وفي فاس نزل في دار تاجر اسمه الزياتي تأصل في إيالته وله قرابة بها إلى ذلك العهد. وفي دار الزياتي أيضا تعرف همو على أعيان من ذوي الحيثيات المختلفة. يتجددون في كل يوم من أهل الحضر. وأدرك على الخصوص أن مقام القيادة في بلده يقتضي أن يكون له مجلس عامر فيه الفقيه والطالب والشريف والتاجر والشجاع المغوار صاحب المعرفة بالحروب وآلة القتال. وفي مجالس دار التاجر بفاس، كان همو يحس بضيم وحرج لأنه خرج من الكتاب قبل أن يتم سلكة من الكتاب العزيز، إذ كان يظن وهو في جباله لا يغادرها أن كل ما يحتاج إليه المرء في الحياة هو أن يكون صاحب نسب وأن يعرف كيف يركب الخيل ويتملك الأرض. وهاهو الآن لا يفهم الكثير مما يقال أمامه ولا يضحك إلا تقليدا للجالسين المتكلمين. وكل حاضر هناك يبدو عليه أنه يفهم كثيرا في العلم الشريف. ولكن همو تدارك حسابه مع نفسه وقال إنه هو أيضا يملك شيئا لا يملكونه وإلا فلماذا شرفه الوزير بالاستدعاء للعشاء ليلة تقديم الهدية !

ولكي يبرهن همو لنفسه على أنه يملك بالفعل شيئا، وهو ساكت وهم يتكلمون، قرر أن يستشير مضيفه التاجر في تمكين بعض الجالسين من صلات نقدية. فإذا التاجر يصوب رأيه. ويبين له بما فيه الكفاية أن ذلك هو طريق الشهرة، لا سيما في هذه الأوساط المقربة.

وفي جلسة دار الوزير عاش همو حالة من الحرج مماثلة للتي عاشها في دار التاجر، لأن الحاضرين كانوا يتكلمون في مواضيع لا يستطيع أن يشاركهم فيها، ولأن حديثهم قد يتضمن حلولا لمشاكله مع الجبليين دون اللجوء إلى الحرب التي لا تخفى

تكاليفها وعواقبها. بيد أن الوزير أظهر به مرة أخرى عناية خاصة وتحدث للحاضرين في بعض الجمل عن طيب أرض إيالته ولذة ثمارها وصفاء عسلها وكأنه زارها. ومن هنا ازداد اقتناع همو بأهمية الكتابة التي يحسن تهجيها ولا يحسن إنشاءها لأن الوزير قد عرف ما عرف ولا شك عن طريقها. ومن قبيل العناية الخاصة أن الوزير قال له بأن يمر عليه في داره قبل مغادرة الحضرة غداة تقديم التهاني وبعد الإذن بالتسريح.

وفي ظهر يوم تقديم الهدية كان كل عامل أو قائد أمام مضاربه بالمشور لأن الصدر الأعظم سيتفقد الهدائين ليقف على هداياهم ويشهد على حضورهم ويقف على هيئة كل واحد منهم قبل المثول أمام السلطان بعد عصر ذلك اليوم.

كان موقف الانتظار عسيرا على همو لأنه يحضر للهدية أول مرة، ولأنه سيتملى لأول مرة بطلعة مولانا السلطان. لقد سمع من أناس مختلفين، عمال وغيرهم، هيبة الموقف وجلالته، وسمع وقائع عصيبة مقترنة به، كانت وبالا على بعض العمال الذين امتحنوا فيها. وسمع أيضا عن عطف مولاي وبروره بعدد من ولاة أمره بأن أنعم عليهم في ذلك اللقاء بأمور كان فيها طالع سعدهم وبوارق المجد الذي تأتى لهم من حيث لم يحتسبوا. اختلطت تلك المشاعر في نفسه وتعاورته تلوناتها ما بين خوف ورجاء. وهو متيقن أن حاله معروف وأمره مكشوف، فهو لم يمر على تشرفه بظهير تولية القيادة مكان والده الهالك سوى مدة يسيرة. ولا شك أن أخبار اجتهاده لإقامة متطلبات المخزنية وتمهيد قبائل إيالته لتستقيم على الطاعة تصل إلى الحضرة باستمرار وتحمد له. ولو قياسا بما كان عليه الأمر أيام أبيه. وهنا تذكر أن جماعة من أفراد

طائفة الهداويين[1] أصحاب الشعور المرسلة والصدور المكشوفة والشوارب الطويلة والدعادع[2] الثقيلة. ممن ينعتهم البعض بأنهم مدخنو الحشيش. والذين لا يعرف أحد سرهم ونجواهم خلا ما يقذفون به الناس بمختلف حيثياتهم من كلام الحكمة المفرح أو الجارح. هؤلاء مروا بدار القائد همو قبل شهور فأكرمهم. ولما غادروه، بلغه أنهم في سفرهم كانوا حريصين على الإلمام بكل شاذة وفاذة من أمور سياسته، فلم يشك في ما ذهب إليه ابن الزارة في شأنهم حيث قال إنهم من عيون المخزن وجواسيسه. ولذلك فالقائد الآن محق في أن يطمئن، لأن كل شيء يبلغ عنه، وجهوده لا غبار عليها، وهو يعرف أن الحاكم القوي خير من الحاكم الضعيف.

ولما مالت الشمس إلى الاصفرار سمعت طلقات المدافع وطارت أسراب الحمام من فوق قرميد قباب القصر. وسمع هدير طبول يلقي الرعشة في القلوب. وساوقت إيقاعاته أصوات مهيبة من مزامير جوقة الحرس السلطاني، وتخلخلت الجموع التي تبدو من بعيد على مقربة من باب دار السلطان. لا شك أن تلك هي طلعته، مهابته السنية فوق الفرس الأبيض الذي يأخذ أحد العبيد بلجامه الذهبي المعلوم. وكلما اقترب السلطان من صف العمال بدت ملامح قائد الحرس الذي يحمل المزراق أمام فرس السلطان وفخامة كبير العبيد الذي يأخذ بصدغ الفرس ثم حامل المظل الذي بجانب الفرس وكأنه أسطوانة تحمل قبة مدورة كاملة. وكلما

---

[1] - أتباع الشيخ المهدي العلوي المعروف بسيدي هدّي. وهم ذوو أحوال عجيبة ولا يتزوجون، توفي هدي عام 1219 هـ

[2] الدعدوع : طبلة ضيقة طويلة العنق. صغيرها يسمى التعريجة والدعدوع نوع ضخم منها اختص بالضرب عليه أتباع الشيخ عبد الهادي العلوي المعروف بهدّي.

اقتربت الطلعة البهية انتسخ كل من حواليها كالسفين. وهي راسية وإن ضربت في جوانبها أمواج من البشر. فكان يقف أمام كل عامل ويتقدم خطوة. ودعوات الرضى تتردد على لسان كبير الخدم كمن يجهر إسماع الصلاة عن الإمام؛ وهامات المهنئين من أكابر الدولة تتعفر في التراب. وأما القائد همو. وكان من آخر من هوى إلى الأرض بين يدي الجلالة الشريفة. فكان صدره في حرج وضيق شديد من الخوف والهيبة في آن واحد. ولكنه رأى ما رأى. رأى في قيامه بين سجودين أن السلطان تبسم في اتجاهه. وهو متأكد من ذلك. وهو الذي سمر عينيه على الوجه المنيف منذ كان من أول صف العمال والقواد. لم ير أنه فعل ذلك أمام أحد. لقد أدى الواجب الآن وموكب مولانا قد أنهى المراسيم ورجع. والعمال أقبل بعضهم على بعض يتخابرون ويوفون شروط التحية والأدب. ويتكلمون في شئون تخصهم. ويدعو بعضهم بعضا للتزاور. ويقبلون على أهل الحضرة من وزراء وكتاب وغيرهم لأخذ مواعيد وتصفية شئون.

وفي مساء ذلك اليوم كان همو قد دعي مرة أخرى إلى العشاء عند الوزير. وهنالك لقي عددا من العمال لم يكن يعرفهم إلا بأسمائهم. ورأى هيئات فخيمة وهامات حنكتها تجارب السنين. وسمعهم يتكلمون. ودهش لاقتدارهم على الكلام البليغ في شتى مواضيع السياسة والفروسية والشجاعة. ولا سيما في حسم مادة فساد الرعايا. على دلك دار جل كلامهم.

وعند القيام للاستدارة على موائد الطعام تقدم منه عامل لا يعرفه من قبل. وكان قريبا منه في صف تحية السلطان. فهمس في أذنه : مبروك لك الرضى. عندما نطق كبير الخدام باسمك تبسم سيدنا السلطان !

كاد همو يفقد وعيه وهو يسمع هذا التأكيد لما شك في أن يكون حقيقة قد رآه بأم عينه. ولكن المخبر انصرف إلى مائدة أخرى. ولو كان بمستطاع همو أن ينصرف عن الطعام والمجلس وينفرد بهذا العامل الذي أخبره حتى يصف له ما رأى وكيف كان ذلك. وما قد يعنيه ذلك الابتسام في عرف المجربين من العمال. ولكنه عرف أنه لا يستطيع أن يفعل شيئا من ذلك حتى لا يظهر جهله ويزري بنفسه.

وبعد أن انفض المجلس اختلى الوزير المضيف بهمو في بنيقة بباب داره. وشكره على هديته. وقال له :

أعرف أنك في بلد يحتاج إلى من يجدد عوائد القيادة لدى أعيانها. وأنت مقبل على أيام كلها مجد ومخزنية. لذلك قررنا أن نعطيك بدورنا هدية. وهدية غالية قلما تملك بيوت عمال هذه الحضرة أمثالها. أمة من إماء صهرنا المتوفى أمين أمناء سيدنا. طباخة ماهرة تدعى إلى المطبخ السلطاني في المناسبات. ستنشئ لك ذكرا. وتعجل بعلو سمعة دارك بما تحسنه من أنواع المأكولات. أطعم الأجلاف الذين ينزلون عليك من الجبل من حلواها. فسيذعنون. فحلواها في البطون أمضى من السيف في الرقاب.

ضحك الوزير وقام يسرح القائد الذي انحنى عليه وقبل يده وانصرف.

اصطحب القائد همو هدية الوزير واسمها دادا العنبر. امرأة تجاوزت الستين. تجر أثقالا من حلي الذهب والفضة تسمع من وقع حركة البغلة التي تركبها. وتكثر من تجديد الوضوء في الطريق بشكل مزعج للركب. تطلب الوقوف من الخدم بعبارة صريحة غير مألوفة في بلد القائد. محرجة لهم في البداية. وكانت في مؤخرته. وكانت بغلة ثانية تحمل مساعدتها الشابة واسمها وداد. وبغلة

ثالثة تحمل صناديق حوائجهما. وآنيات رقيقة لا تستغني عنها في صناعة الطبخ.

قضى همو طريق العودة بأسرع من مدة الذهاب. وكان مشغولا طوال الوقت بتذكر ما حدث له في الحضرة. وفكر كثيرا في العناية التي يخصه بها الوزير؛ وتصور أن يكون له دور في الالتفات المولوي الذي تجلى عليه في ابتسام السلطان له. وفكر في الهدية التي حملها للوزير. وتصور أنها في الحقيقة أقل مما يليق بالمقام. وجزم بأن يراعي هذه الأمور في ما سيقبل من الأيام. وجزم أيضا بأن التشريف المولوي لا علاقة له بالهدية أصلا. فلربما يكون صادرا عن الرضا الذي يستحقه لاجتهاده في نصب كلمة المخزن. تذكر المخبرين وتذكر مرور الهداويين. ولم يستبعد أن يكون السلطان نفسه قد خرج في سفرة في إيالته في صفة هداوي أو بهلول أو بائع عطور. وأنه بات عنده وهو متنكر لا يشعر به أحد. ويكفي أن يفكر المرء في مثل هذه الحكايات المتواترة ليجعلها حكمته ويحسن ضيافة هؤلاء المتجولين. وعلى كل حال فإذا حرص على أن يكرم كل قاصديه فلابد أن يصادف من بينهم السلطان في يوم من الأيام. ثم خطر له خاطر آخر: حيث فكر أنه لو أحسن السيرة في الرعية لكان ذلك مبعثا للاطمئنان. ولكن ذلك الهدف بعيد المنال. ثم إن طبائع الناس لا تتيح إرضاءهم جميعا. والحضرة أول من يعرف ذلك. فلا تؤاخذه على موجبات فرض الطاعة. المهم هو أن يكون يوما مًا عاملا قويا.

11

كانت الشمس في الشفق عندما دخل ركب القائد همو إلى تراب إيالته وهو عائد من الحضرة بعد مسيرة سبعة أيام. وكان التعب قد استبد به حتى إنه بتأثير نسيم ذلك العشي بعد قيظ يوم من أيام بداية الخريف كاد يغفو وهو فوق فرسه. وكان أحد مرافقيه من الخدام قد واصل سير الليل بالنهار ليعلم بأن القائد سيصل عند عشاء ذلك اليوم.

تعب القائد من تجوال الفكر طيلة أيام ذلك السفر ما بين وقائع أيام مقامه بالحضرة وبين تخيلات حول ما تخبئه الأيام في تطويع أهل تلك الجبال، وأسباب تعظيم حظوته لدى المخزن. ووسائل الأبهة الضرورية للقائد، ولاسيما إذا فكر في ديونه الثقيلة التي توسط فيها باروخ. تعب من كل ذلك وأناخ براحلة خواطره إلى جهة داره، فتذكر زوجتيه الأوليين. وما تكون الغيرة فعلت فيهما بعد زواجه الأخير، مما يدفعهما إلى التنافس في ما يقربهما إليه ويجعلهما بمظهر إغراء متجدد لو هو التفت إليهما واحتاج إلى خدمة أي منهما وعنايتها. وفكر أيضا في حظه التعس مع السالمة التي هاجمتها أعراض الحمل منذ الأيام الأولى بعد الزفاف. وشك في أن يكون نفورها الطفيف غير راجع إلى الوحم بقدر ما هو نشوز مبيت منذ البداية، لأنها لم ترض الزواج به في قرارة نفسها أصلا. وداهمته مع تلك الخواطر فكرة ابن الزارة في اتخاذ زوجة من مقام السالمة تكون من الجبل وتنافسها في جمالها ونخوتها بالنسب والحسب. وانتهى من كل خواطره إلى أن المهم هو أن يبقى سيد الموقف بكل ما يقتضيه الحال من التصرفات والمبادرات اللائقة بمقامه أمام النساء والرجال على السواء. ولكن الخيال جمح به مرة أخرى ليتساءل عن أحوال أمثاله من الأكابر في شئون زواجهم

وسعادتهم بنساء لا شك أنهن وراء رونق جباههم البهية وطلاقة بشرهم الطافح على الوجوه. لأن السر هو في أن يكون الرجل من الأعيان سيدا منعما في داره أولا. حتى يتأتى له أن يصرف كل همته لشئون الحكم وتدبير أمور الحياة وسياسة نوازع البشر.

وجد الركب كوكبة من الخدام على خيلهم ينتظرون على بعد أميال من القصبة. ولما وصل الركب إلى خارج السور كان هنالك ابن الزارة وناس آخرون يحملون المشاعل والقناديل. ولم ينزل القائد همو من على فرسه إلا في نهاية البهو الثاني المفضي إلى الرياض. ولما وضع قدمه بالداخل. كانت المفاجأة. زوجته السالمة في حلة البروز يوم العرس تنتظره. وأخذت بيده وكأنها تختطفه من ابن الزارة وأصحاب تقارير الأخبار. والواقع أن القائد كان في حالة شديدة من التعب. وهاهو يسألها عن أخبارها وتجيب باقتضاب. وما تزال تأخذ بيده. وهو يستغرب من هذه الجرأة السعيدة التي لم يتصورها في ذوات المحرم على الإطلاق. ممن يطغى عليهن الخفر في مثل ذلك اللقاء. والواقع أنه لم يزل من حسابه يوما مًا أن السالمة تنتمي إلى بيئة تسود فيها عادات وأعراف مغايرة. ولكنه لم يتأت له أن يكتشف إلا قليلا من ذلك قبل سفره. بل كاد يرى أن الوحم قد حال بينهما كما يحول الموج بين مغرقين. ولربما إلى الأبد. وهاهي تدخله إلى غرفة جديدة سوت فيها فراشها غير التي تركها فيها. وهنالك قالت له إنها أعدت له اللوازم كلها لدخول الحمام. وأن خادما لأمها قد جاء إليها ليعتني بهندام القائد وأحوال زينته. ووجد همو لذة عظمى في الفضول وترك لزوجته الزمام. وفكر في أن السعد يوافقه أخيرا ليرقى إلى مصاف القواد في كل الأحوال. وافقها على حكمها وصدرت منه عبارات شكر وتصويب على غير عادة قومه تجاه النساء. حيث يضمرون ولا يفصحون لهن عن المشاعر وإن فعلن ما

يستوجب ذلك مرات خلال نهار واحد. واتجه إلى جهة الحمام. فإذا عبد شاب قوي ينحني ليقبل يده. وهو في قميص أبيض ينزل إلى ركبته وتحته إزار قصير.

دخل همو بعد أن تفرس في العبد وكتم الضحك. فوجد كل شيء معدا مما لم يشهد زخمه من قبل من الآنية والفوط وأنواع الصابون. وتناول العبد سيده كما تتناول الأم طفلها برفق، وعالجه بالدُلك والتقليب ظهرا لبطن، حتى كاد أن يستسلم للنوم. وما فرغ منه. في وقت قصير. حتى شعر باسترخاء وراحة لم يعرف لها مثيلا من قبل.

وبعد الخروج به إلى الجلسة الأولى لفه العبد في الإزار وغطى رأسه بعمامة منشفة وتولى تنظيف أذنيه من الماء. ومشط لحيته وقص زغب أنفه. ثم أخذ في تعطيره بأنواع من المقطرات الباردة التي ظهر للقائد في حينه أنها تمتص الحرارة والتعب من الجسم وتعيد إليه راحته ونشاطه.

وبعد ذلك رأى همو أن العبد قد أقامه ونضى عنه الإزار ليستبدل به إزارا آخر يودعه فيه ويقوده إلى غرفة زوجته. وهنالك وجد همو زوجته تتلفت وتبتسم ولكنها تخفي شعورها بوقع المفاجأة عليه. وتستمر بجد في مهمة تريد منه أن يتقبلها ولا يعلق عليها بما يفسد رونقها قبل أن تتم.

هاهي جلسة في الجانب المقابل للسرير قد هيئت فيها طنافس رقيقة ومخاد. وبعد أن اتكأ فيها الزوج صفقت السالمة ودخلت خادمتاها بأطباق طعام جله مشروبات ساخنة عطرة الأفاويه ومحاليل مقوية.

كان همو يتلذذ بمشروبات من عصير الفواكه عندما صفقت السالمة بيدها مرة أخرى ودخلت الخادمتان وسحبتا الآنية في خفة ولباقة. وبعدها اتجهت إلى محمل عطورها وسحبت قضيبا من

السواك ومدته إلى زوجها. وبإشارتها الآمرة تأكد لـه أنهـا سـتكون هي القائد هذه الليلة. وقام وخرج ثم رجع من الميضاءة والسواك في يده. فصلى صلاة خفيفة في ضوء قنديل واحـد يـتراقص لسـانه في زاوية الغرفة وهي شبه مظلمة. وكاد همو يسأل عن الداعي إلى هذا الاقتصاد في القناديل لولا أن أنقذه حدسه ولم يخيبه فضوله. فقـد أمضت السالمة خطتها إلى النهاية. وجددت ليلة الزفاف بإرادتهـا هذه المرة مع همو، وكان هو الخائف هذه المرة، وكانت هـي الـتي تحكمت في كل شيء وتملكته. بل إنها أنسـته كـل حسـاب قبـل انصرام الثلث الأول من الليل. وكلما نزلت عليه سحابة باردة مـن السماء فكر في أن يبيع جبالة لتلك المرأة بشيء من ذلك الإكسـير. بل ربما فكر في وقت من الأوقات أنه لو تسنى له لانقطع إلى تلـك العناية بالكلية. بحيث لا يخرج لأحد من كلابه الآدمية بعد تلـك الليلة. وإنما يدع ابن الزارة يشتغل بمؤامراته في الحكـم مـن أجـل تطويع شياطين الجبال. أما هو فقد استولى عليـه مـن الآن شـيطان من السهل. ولا فائدة في أن يفكـر في مـا سـيقال عنـه مـن وقوعـه ضحية السحر. ولن يقبل ما سيلجأ إليه ابن الزارة من الاسـتنجاد بمهرة السحارين مـن المسـلمين واليهـود لافتكـاك أسـره مـن هـذه المخلوقة الساحرة بالفعل. فهو يعرف وحده حقيقة مـا وقـع. بـل إنه مشدوه مما وقع ولا يريد أن يعرف. إنمـا يريـد أن يسـعد. وفي نظرة بارقة إلى السالمة تذكـر أمـه الـتي مـاتت في عنفـوان الصحـة والشباب. وكان والده يسميها في عنفوانها بالبغلة. أمـا هـو فـيرى الآن أنه تحت فرس ضامرة تدوسه. ويجد لدوسها حلاوة عظمـى. وفي لحظة خف عنـه العـذاب. فكـر في زوجتيـه الأخريـين وكـره الطاعة. وقال في نفسه : الطاعة التامة في الموت. والميت لا يحس ولا يغذي الإحساس.

استيقظ همو ووجد زوجته تمشط شعرها أمام المرآة وهي ترتدي الإزار الذي ارتدته صباح ليلة الزفاف. إزار حرير نفيس جاءت به في شورتها يقبض على الكتفين بخلالتين رقيقتين من الذهب ليس يعدلهما في الرقة أي شيء مما أهداه هو إليها من الحلي. تأمل ذلك وهو يقوم من الفراش. عادت إليه الوساوس التي تقول له إنها تفعل ما تفعله لتتفوق عليه وتحكمه ؛ بل ربما كانت تهيئ لوالدها أن ينزع منه إيالته. وربما كان ذلك بتآمر مع ابن الزارة الذي يبدي له الوفاء. ولكنه يجعله يتشكك في ذلك الوفاء المبالغ فيه. وإلا لما اختار له هذه الساحرة التي تتفوق عليه في كل شيء وتوشك أن تلهيه. وقدماه لم تتمكنا بعد من الحكم والقيادة. إنها فتنة لا بد أن يحتاط منها. إنها فوق ما يطيق. وعليه التزامات وديون وتنتظره معارك.

رجع من الحمام وجلس إلى الفطور معها وهي لم تزد عن توجيه تحية الصباح. وبادرها بالكلام فبلغها سلام والدها الذي لقيه في حفلة تقديم الهدية بالحضرة.

كانت تتناول الفطور في صمت ناسك وهي ترمقه مرة بعد مرة وتتأكد من أنه غير مشغول بالفطور بقدر ما هو منبهر أمامها. وكأنما هو يراها لأول مرة. وكان ذلك حقيقة هو شعوره العميق. وفكر في أن يكون سبب ذلك هو هذا التفرغ بعد سفر كان يشغله. وبعد فشل تخطيطات ابن الزارة. وبعد أعراض وحم يتساءل الآن عما إذا كانت اصطنعتها أو أنها زالت عنها في ظرف شهر واحد. ورأى في نفسه أنه وإن كانت تداهمه الشكوك حول مخاطر الاستسلام لها فلا بد من الركون إليها لأنها تشبه فرسا قوية يمكن أن يعتمد عليها. وحينئذ فكر في أن يصنع لها في تلك الأيام حليا يكون هدية أجود من هدية ليلة الزفاف. فهي الآن أدعى إلى أن

تشكر صنيعه وتقدر تحفته. ثم بادرها قائلا :

– لقد تبسم إلي السلطان وأنا أنحني أمامه. هل سبق أن فعل ذلك مع القائد ؟ يقصد والدها.

فرفعت إليه عينيها ورمقته وتسمر في مكانه أمام ابتسامتها وهي تقول له : إن أبي أمضى في القيادة ثلاثين عاما بعد والده الذي شرفها أربعين عاما. ألا ترى أن الزمان ضحك لهما معا ملء شدقيه ؟ فضحك الزمان هو ضحك السلطان.

أصابه انكساف من سماع ردها ووضع الزلافة من يده وقال في نفسه :

– عندها ما تقول. هذه العروبية. لكنها لن تبلغ أن تغلبني.

وعندئذ قام وخرج لمباشرة الشئون.

12

خرج القائد همو إلى القبيبة التي يجتمع فيها مع ابن الزارة فوجده ينتظره للجلوس حول مائدة الفطور. واستمع إليه وهو يذكر أخبار ما جرى أثناء غياب القائد. وأخبار تقدم أشغال البناء المتنوعة والاتصالات المهمدة لتطويع المترددين أو المنحرفين من شيوخ الجبال. وبينما هو منهمك في ذكر ما ظن أنه يدخل السرور على مخدومه ويجلب رضاه عنه إذ قاطعه همو وقال :

– قل لي كيف كانت أحوال السالمة حين غيابي وبأي شيء كانت تشتغل ؟ واندهش ابن الزارة. وكاد ينتصب قائما كأنما هو يكتشف شيئا كان يتوقع أن يضع أصبعه عليه. وقال وهو بين ضحك وشعور بالمرارة : آه، آه هاهو سحر الحرقوس قد أفلح فيك ! ماذا كانت تفعل السالمة ! كانت تستعد لمعركتها التي أردتك فيها قتيلا بالأمس. أتت من دار أبيها بعبد لا يطيع أحدا غيرها. مختص على حد قولها بهندام القائد وزينته. ونقلت فراشها من غرفة تعتقد أنها موبوءة بتمائم سحر اليهود من جهتك قبل أن يجري فيها الزفاف. وبقية الوقت كانت تقضيه في الإصطبل تتمسح بالفرس التي تسميها "أختي" أو في نافذة البرج وهي تنظر إلى الأفراس تأكل العلف في الفضاء أو تتنازى. وقد أتعبت المسخرين بتنظيف الحيوان وغسله صباح مساء.

خشي همو أن يذهب ابن الزارة بعيدا في اتهام السالمة بأنها تسعى إلى أن تحول بينهما وتشغله عن جلائل الأعمال التي تنتظره. فقال له :

– هل اعتنيت بضيفتنا السيدة العنبر ؟ وهل سويت لها مكانا في الدويرة الصغيرة مع معاونتها ؟ إنها مودعة عندنا على العهد من سيدنا الوزير الذي ما زال يوالي عنايته الخاصة بنا. وقد

فهمت منه أن العنبر التي كانت صانعة أمجاد موائد صهره الفقيد أمين الأمناء تصلح لنا لتصنع فخرنا على الضيوف من المحبين والأعداء على السواء.

وأجاب ابن الزارة : لقد سوينا كل شيء يتعلق بمقامها، وقد بردت قلبي بتوضيحك هذا، لأني توجست أن يكونوا قد زوجوك من هناك بهذا الكيس البشري الذي حتى ولو ملىء بالعنبر فعلا، فإنك لن تطيق أن تنام من شخيرها وإن تحملت هي أن تنام من شخيرك. وعلى كل حال، نحمد الله على لطفه بعد قدرته. ولكن عليك أن تبين لنا ما إذا كنا سنقدم على الطبخ الرفيع كل يوم لأن هذه الأمة الشمطاء تحتاج إلى مشغلة أو أننا لن نشغلها إلا عندما نحتاج إلى الطبخ الرفيع بالفعل. ولا بد أن نجربها على أي حال لنعرف ماذا يمكن أن تضيف يدها الصناع لمذاق حريرة الماء والسميد أو لطاجين البصل واللفت بقليل من الزيت...

تأكد مرة أخرى لهمو، من مرارة تعليقات ابن الزارة وأجوبته الحانقة، أن هذا الرجل يسعى إلى أن يستحوذ عليه ويحكم كل حركاته وتصرفاته، بل وحتى أنفاسه. يأذن له في وقت حضره حتى بالنوم ووقته ومكانه ومع من ينام، ويكفه في سفره عن كل مبادرة لا يستشيره فيها ويوافق عليها، بدعوى حسن التدبير والوفاء في الخدمة والإخلاص للعمل الذي سيبني به مجد قيادة حتى تبلغ مبلغ القيادات المجاورة أو تبزها. ولكنه رأى أن ابن الزارة لا يفهم كل الأمور، فالتفاتة الوزير الذي فكر في حاجته إلى طباخة ماهرة في صناعة الطعام الملوكي، ليست سوى تكبيرة لا دخل لابن الزارة في التعليق عليها. لأنه بدوي قضى شبابه وطرفا من كهولته في النخاسة. وهكذا التفت إليه وقال : أعلم إمام جامع الزاوية بأن يقدم للغذاء معي.

فقال *ابن الزارة* : هلا تغذيت مع صاحبك باروخ. فلديه أخبار سيبلغها إليك.

فأجاب همو : قل له يحضر بعد خروج الإمام.

خرج ابن الزارة وكلف من المسخرين من يبلغ للإمام أمر القائد. وعاد ليجالس مخدومه. فقال :

– الطبخ الرفيع واتخاذ الحاشية من العلماء أمور تحتاج إليها أبهتك. ونحن نهيئ لها. ولكن المستعجل هو الخروج إلى الجبل. والضرب بقوة حتى توضع الأمور في نصابها. إذا نجحت فستستيقظ كل صباح وفي باب دارك صفوف من أهل القبائل يتظلمون ويستشفعون. وكلهم يحمل ما يعينك على الهيئة المنيفة التي تتشوف إليها.

حضر إمام جامع الزاوية وهو أشهر الناس بالعلم والورع في بلد القائد. وهو إلى حد مًا من ذلك الصنف من الناس الذين يوصف الواحد منهم بأنه لا يخاف في ا لله لومة لائم. لم يسبق أن ورد على القائد إلا في مناسبة تهنئته بالقيادة وفي مناسبة تعريسه بالسالمة حيث كان هو والقاضي وقراء آخرون حول مأدبة عقد القران.

كان في مناسبة الغذاء أيضا القاضي الذي جاء ليحمد العود للقائد. وأعيان آخرون. وقد تبركوا برؤية القائد الذي رأى إمام المؤمنين. وتبادلوا معه أخبارا حول فاس وحول الطريق وحول المستقبل الزاهر الذي ينتظر هذه الإيالة على يده.

انصرف الحاضرون إلا الإمام. وعاد القائد واقترب منه وقال :

– أيها الإمام. لدي أمر سأخصك به. وأريد تفسيرك له على حسب علمك وحصافتك. فبينما كنت أنحني ثلاث مرات لتحية سيدنا السلطان في حفلة الهدية رأيته يتبسم لي بصفة خاصة. فكيف تفسر ذلك ؟

تأمل الإمام مليا وقال : هل يعرف اسمك ؟

فقال *القائد* : نعم. لأن خادما من خدم سيدنا يرفع عقيرته بذكر كل عامل أو قائد باسمه عند مثوله بين يديه.

فقال *الإمام* : هنا يكمن السر. فإما أن اسمك "همُّو" يذكر سيدنا بكلام البقر، وإما أنه يذكره بشيء معيب مضحك على حد كلام الغوص عند بعض أهل المدن.

شعر القائد ببرودة تسري في أوصاله من جواب الإمام الذي قال كلامه بجفاء وهو شبه ساخر. وأطرق مليا وساد الصمت وأدرك أن لا شيء يفيد في إنقاذ هيبته أمام هذا الرجل. إلا أن يتظاهر بأن الأمر ليس على درجة مُا من الخطورة، ثم قال :

– هذا كل تفسيرك. ولكن الله أعلم. فهمته السنية لا تتنزل إلى هذه السفاسف. فقال الإمام : على كل حال صدقت، الله أعلم. ومهما يكن الأمر فاعتبر قولة الشاعر :

إذا رأيت نيوب الليث بارزة فلا تحسبن الليث يبتسم

فقال *القائد* : وما هو الليث ؟

قال الإمام : الأسد.

فقال *القائد* : صدقت. إنه والله مثل الأسد عندما يقترب منك، فكل ما تتمناه هو أن تبقى ساجدا حتى يمر.

قام القائد وتبعه الإمام وشيع المضيف الضيف إلى باب داره، ورجع إلى القبة. ورجع معه ابن الزارة، وأمر محضر الشاي أن يجدد النعناع في إبريق جديد ويقيمه وينصرف.

لا حظ ابن الزارة أن صاحبه متجهم على إثر كلام دار بينه

وبين الإمام. وأراد أن يصرفه عن موضوع كآبته فقال له :

باروخ ينتظر في الباب الخارجي. وهو يدعي أنه يحمل إليك رسالة من خليفة سيدنا السلطان بمراكش.

اندهش همو وتخوف وزاد قلقه وقال : وماذا في الرسالة ؟ أدخله إذن. أدخله إذن.

دخل باروخ وحيى القائد ووضع في حجره هدية وقال وكأنه لم يصاحب همو في سفره : الحمد لله على سلامة سيدي. لقد وجدت في داري رسالة من خليفة السلطان سلمها لصاحبنا التاجر إشوعا وسلمها هو لواحد من أولادي كان بسوق مراكش.

أخذ همو الرسالة وقرأ فيها متهجيا "*خذيم سيدنا القائد همو، لقد تشكى لنا عدد من الذمية من أنك أخذت منهم أموالا طائلة على سبيل سلف ا لله والإحسان على يد صاحبك الذمي باروخ. ولم تحدد لهم وقت تسديدها ولا المنافع التي تكون لهم ثمنا لأجلها. ولما كنا نرعاك ونحبك فإنا قمنا بالنيابة عنك بإنظارهم وتصبيرهم حتى نخابرك ولا يسربوا شكايتهم للمقام العالي بَا لله. سيما وأنهم ذكروا أن تلك الأموال هي لليين لهم في الدار البيضاء يخالطون تجار الأجناس. وبه وجب تنبيهك والسلام*"

ما أن وصل همو إلى نهاية الرسالة حتى احتقن وجهه وضاقت أنفاسه والتفت إلى اليهودي وهو يقول :

– لقد غدرتني يا ولد اليهودية. لقد غدرتني !

وارتمى عليه باروخ يقبل يديه وهمو يتملص منه وباروخ يقول : وحق المعبود يا سيدي ما غدرتك ولا لي علم بشيء. فماذا فعلت في حق سيدي ؟ ومن كذب علي ؟

فقال همو : لقد تعاملنا في اقتراض ما اقترضناه من مال مع أصحاب لك من ملتك وبضمانتك. وأطمعناهم في فوائد جمة آثرناهم بها. وهاهم يخونوننا ويحاولون أن يسودوا صحيفتنا ويلوثوا

سمعتنا بشكواهم لدى خليفة سيدنا. فهل ترى من غدر أبشع من هذا ؟

فأجاب باروخ، وهو بين الجالس والواقف، يرتعد ويتلعثم : في رقبتي يا مولاي إلا سويت هذا الأمر وإلا بينت لسيدي أن هذه الوشاية ليست من أصحابي، فإذا احتاج سيدي أن يكتبوا براءة إلى مولاي الخليفة كتبوها، وإذا احتاج سيدي إلى أضعاف ما تسلف أعطوه أو أعطاه غيرهم من أصحابنا، التوبة للرب والمعذرة لسيدي، ليقبل العار من إنسان خدم سيدي الوالد والرحمة تنزل عليه في القبر، ائذن لي أذهب الآن إلى مراكش وأعود إليك بالبراءة.

أشار ابن الزارة إلى باروخ لينسحب وينتظر بالمدخل الثاني للرياض مع من يجلس هناك من العبيد والمسخرين. وقضى ابن الزارة ساعات وهو يخفف أثر الصدمة على همو الذي يتلقى لأول مرة في عهد قيادته رسالة تنبيه من أحد المقربين للسلطان. واستطاع ابن الزارة أن يقنعه بوجه يصلح ما وقع ولا يكتسي أي خطورة، فاتفقا على خطة باروخ بالذهاب إلى مراكش وانتظار ما سيأتي به من أخبار بعد لقاء أصحابه.

وما أن خرج باروخ متعهدا بالسفر في حينه، وهو لا يملك كيف يعبر عن الامتنان للقائد. حتى دخل أحد كبار المسخرين يعلم القائد، ومعه ابن الزارة، بأن رسولا من قبل ولد الشهباء، صهر القائد، قد وصل لحينه يحمل رسالة يصر على أن يسلمها إليه يدا بيد.

التفت همو إلى خادمه ابن الزارة وقال :

- هذا يوم الأخبار، اللهم اجعل في قدرك اللطف، والشمس ما تزال على بعد قامتين من مغيبها، يا له من يوم طويل.

أذن لرسول القائد الصهر فدخل وأخرج من جرابه رسالة مختومة بالشمع وسلمها للقائد همو وانسحب، وخرج معه المسخر بعد توصية له بالضيافة والعناية.

فتح القائد همو الرسالة وقرأ فيها :

" صهرنا العزيز القائد محمد بن المرحوم بكرم ا لله القائد عبد ا لله، السلام عليكم ورحمة ا لله تعالى وبركاته، وبعد، فنسأل ا لله أن تجدكم رسالتنا هذه في مديد العافية أنتم وأهليكم. وإنما المقصود أن ننبه سيادتكم إلى أن مجذوبة بلهاء اسمها فاضما تاعجانت من أهل إيالتك، تطوف بالأسواق وتقول كلاما لا يعجب في حقك، يروجه المغرضون ممن لا خلاق لهم. وهذا الصنف من الآدميين كما في علمك ساقط التكليف ولا يفيد فيه السجن ولا التعزير وليس فعل ذلك من العوائد. ولكن ما لا ينال بالقوة ينال بالحيلة. وإنما قلنا لك لأن ما يضرك يضرنا .وما يسرك يسرنا. وعلى المحبة والسلام. "

قرأ همو سرة ثانية، بالجهر في الثانية، رسالة صهره حتى يعلم ابن الزارة مضمونها، وشعر باعتزاز وهو يقف على تضامن صهره معه في هذا الأمر البسيط، ومع ذلك فقد جاءت رسالته لتبدد جانبا من شكوكه إزاءه. ثم قال لابن الزارة :

– ما هذا الذي تقوله عني المجذوبة في الأسواق ولم تعلمني به أنت الذي تدعي أنك تحيط بأخبار السهل والجبال ؟

ضحك ابن الزارة وأجاب : هل أنت بطال إلى حد الاشتغال بأقوال المجاذيب ؟ أنا أخاف عليك سكوت العقلاء ولا أبالي بصراخ المعتوهين، العقلاء يسكتون ويدبرون.

ولكن همو أصر على أن يعرف ما تقوله المجذوبة حتى إنها أثارت غيرة صهره في السهل، ورأى أن كلام ابن الزارة يخفي

عجزه عن حسم مثل هذه المادة التي تتنافى مع هيبة الحكام. ولما رأى منه ابن الزارة ذلك الإلحاح قال :

إنها تتكلم فيك وفي أنا أيضا. وفي كل مرة تخرج بلحن جديد. كانت تقول في يوم السوق الأخير :

همو ركلاتـــو حمـــارة وابن الزارة يضرب لو الطـــارة.

همـــو : لا أقبل هذا ولا يجوز التغاضي عنه كما تريد. فلا بد من حل.

ابن الزارة : نذبح علـى سيدي بو المجاذيب في تادلا فهو يحكم عليهم. ليسكتها أو يميتها. وإذا لم تنفع فيها الدعوة ننفيها إلى بلاد فزاز فتنقطع عنها أخبار هذا البلد.

خرج القائد همو وتبعه ابن الزارة يريد أن يستنشق هواء ما بعد العصر في الجنان المجاورة للقصبة وهو ينوي أن يشرب الحريرة قرب الصهريج والبئر مع بعض أعيان البلدة ليسري عن نفسه من نكسات النهار.

قضى همو ساعة ترويح عن النفس كما توقع. ولما عاد إلى الدار جره ابن الزارة إلى الغرفة المعهودة. ولما جلس أخذ ابن الزارة يضحك ويضحك ويضحك ملء شدقيه. وصاحبه ينظر إليه ولا يعرف سبب ما اعتراه. ولما تمالك ابن الزارة قال :

– لا تحسب أن النهار قد انقضى بكل عجائبه. فأنا أخبئ لك عجيبة المغربات. ولا بد أن تعدني بأنك ستضحك كثيرا بعد سماع الخبر. لا بد أن تعدني. لابد أن تضحك وتسترسل في الضحك معي إلى منتصف الليل. أعطني بذلك كلمة قائد ابن قائد.

همـــو : أعدك إن كان في الأمر ما يضحك. بعد هذه المصائب التي نزلت بي اليوم.

ابن الزارة : عندما كنت في الجنان جاءتني مساعدة ضيفتك وديعة الوزير عندك الطباخة، دادا العنبر وقالت : هل أنت حقا خليفة سيدي القائد ؟

فقلت لها : أنا خليفته. وماذا في جعبتك ؟

قالت : أمرتني دادا العنبر أن أبلغك كلاما تبلغه للقائد ولا يعلم به غيره.

فقلت لها : سأعلمه ولا يعلم بذلك العلم غيره.

قالت : تقول دادا العنبر وأنا شاهدة على ما تقول. إنها كانت مخطوبة لأحد فرسان الحضرة أياما قبل أمر سيدي الوزير برحيلنا معكم، وقد فضلت أن تفسخ تلك الخطبة وترضي سيدي الوزير في الرحيل مع سيدك القائد لتخدمه. فعليكم الآن أن تزوجوها، وهي إذا لم تتزوج في مدة أربعين يوما فإنها سترحل وتعود إلى البلد الذي ترعرعت فيه. وهي لا تبقى في عناية سيدي القائد مخدومك إلا بما يرضي أهل سيدي الوزير. ولابد على كل حال أن تختار هي خطيبها بنفسها من بين من ترشحونهم لذلك.

لم يكد همو يسمع الخبر حتى انفجر بالضحك. وكلما صحا منه طلب من ابن الزارة أن يعيد عليه تفاصيل الطلب وشروطه. فيعودا معا إلى الاستغراق في الضحك وهما يتنافسان في التعاليق وتصور المرشحين وإجلاء مزايا العروس.

13

تتابعت الأيام على القائد همو بكثرة المشاغل وتزايد الهموم. وكان همه الأكبر تطويع محكوميه حتى يتحملوا مطالب المخزن في الجبايات والتسخيرات ويظهر بهم جديرا بالمهمة المنوطة به. وحتى يتحملوا تكاليف الأبهة التي يصنعها لنفسه بجملة من مقتضيات الكبرانية التي، إن تحققت له، وجد مكانا بين أنداده وضرب له الحساب كل الأصدقاء والأعداء على السواء. فهو يقضي سحابة نهاره وجزءا من ليله يدبر الخطط التي ينصح بها صاحب سره ومشورته ابن الزارة، في أمور داره وأمور إيالته. وهذا ما أبعده عن العناية بعروسته السالمة وهي تعاني وتكابد أحوال شهور الحمل الأولى. وكان القائد قد حسب أنه سينعم بليال من حنانها مثل التي سعد بها بعد رجوعه من السفر. ولقد رأت السالمة كثرة انشغال بعلها وغيابه عن قربها جل الأوقات. وتقززت من ازدياد صخبه وسرعة غضبه. وانزعجت بقوة شخيره في النوم. وبالشخير وحده كانت تعلم أنه دخل بعدها متأخرا إلى فراشه. وكان نومها يهجرها بسبب ذلك في معظم الليالي. فتتعب ويضطرب مزاجها وتشعر بنفورها منه يملأ إحساسها من جديد.

أما ابن الزارة فقد ابتهج لانشغال مخدومه بجد وحدب في ما يبني به مجده الركين. وحدث ذات يوم ما اقنع القائد نفسه بصواب تلك السيرة ووجاهة نظر صاحب مشورته الذي كان يبين له مرة بعد المرة أن الانشغال بالزواج والنساء إنما يبرره تحقيق أهداف أخرى رئاسية يتقوى بها الجاه والحسب.

فبينما كان القائد يتناول فطور الضحى مع بعض جلسائه. ومن بينهم ابن الزارة. إذ طرق سمعه ضرب على الدعدوع بإيقاع الهداويين المعروف وصوت الضارب عليه وهو ينشد كلاما غير مميز

عن بعد. وقد أشار القائد إلى بعض الخدام الواقفين على الخدمة في تلك الجلسة أن يدخل ذلك الهداوي ويكرمه ويتحفه.

وكذلك فعل الخادم. ولما خرج القائد من قبة الجلوس للفطور كان الهداوي ما يزال يتناول طعاما أخرج إليه من دار القائد. ويدخن حشيشا في رأس قصبة عناب طويلة في المدخل الثاني للرياض. وكان القائد تعمد أن يمر أمامه ويتفرس فيه لعله يرى متجسسا عليه ممن يتلبسون بتلك الأحوال وحقيقتهم أنهم عيون السلطان أو رسل معاونيه. ولما رأى الهداوي القائد مارا أمامه قام وحياه واستوقفه. وأخذ دعدوعه وبدأ يضرب وينشد :

الكلام خصو تفهام
الحكام خصو القوام
والليف يتبع اللام
الاحمق يتبع الوشام

سمع همو ذلك النظم. وما كان ليتوقف عنده لولا ضحك ابن الزارة وتعقيبه : أصبت أصبت يا منصاب. والمنصاب يقال للهداوي إذا كشف عن جسمه ما عدا العورة. ولما دخل القائد وتبعه ابن الزارة إلى بيت المشاورة قال القائد :

– ماذا ظهر لك في صاحب الدعدوع ؟ ولماذا ضحكت من كلامه ؟

فأجاب *ابن الزارة* : ألم تفهم كلامه ؟ إنه واضح، وواضح أنه يقصدك به وأنه مطلع على سريرتك.

القائد : وكيف ذلك ؟

– لقد قال لك إن الرئاسة بشروطها. ومن شروطها تغليب قول لا على قول نعم. ولا تستقيم أبدا لمن همته في اتباع اللذات والعمل برأي النساء أو الانشغال بهن.

همـــو : وكيف تفهم الكلام الملحون بهذه السرعة وأنـت لست سوى دراوي من الواحات ؟

ابن الزارة : صنعتي القديمة في النخاسة، وزبنائي كانوا مِن جميع البلدان، وكان علي أن أحتفظ بالقطيع البشري حتـى أعلـم النساء منه على الخصوص مـا يزيـد ثمنهـن مـن الفنـون. وكـانت زوجتي الأولى التي توفيت بمرض الماء في الركبة مـاهرة في أعـراف القبائل. وكانت دارنا مثل سوق عـام، فمـن داخـل وخـارج، مـن عرب الشاوية ودكالة إلى بربر سوس وعطاويين من بـلاد الفايجـة وتافيلالت.

همـــو : وكيف جاء هذا الهداوي بالكلام علـى مقتضى حالتي على حد فهمك ؟

ابن الـزارة : فهو إما أن يكون جاسوسا مطلعا جـاء يحـذرك من جانب المخزن وإما أنه من الناطقين بعلم الكرش الذي يدركونه بالفراسـة أو بنـوع مـن الرجـوع إلى الفطـرة في حالـة الوجـد الـتي يستثيرها بإيقاع الدعدوع. فهو يطرد عنه قدرا من الضبـاب الـذي يحجبنا عن النظر إلى الأمور كما هي. وقد عرفت منهم مـن كـانوا عفاريت سواحق في باب الكشف.

همـــو : كل ما تسعى إليه هو أن أبتعد عن بنت القـائد ولد الشهباء، وأنت الذي جئت لي بها !

ابن الـزارة : صنعتي القديمة علمتني ألا أنساق للألفة لأنهـن مشترياتي ومبيعاتي. أما أنت فأريدك أن تكـون صقـرا، تهـوي في وقت غير معلوم لفريستك فتغنم وتعود إلى قمة الجبـل. ولا أريـدك أن تكون دجاجة كل همها أن تحضن على التبن وتفقس البيض.

همـــو : إن السـالمة مشـغولة بخيلهـا تتمسح بهـا وتشـم روثها، ومصيبتها أنها لا تقبل ما تقبله الأخريـات. فهـي إمـا أن تستبد وإما أن تنفر.

ابن الزارة : عليك بالمداراة، لأننا لا نريد أن تشتكي إلى والدها، وعندما تضع الولد ستنشغل به وبالخيل، ولا بد أن نبحث لها عن جماعة من المتملقات وفرقة من المغنيات المألوفات في بلدها، تستدعيهن مرة أو مرتين في الشهر، وفي زوجتيك الأخريين إن عدت إليهما ما تقضي به وطرك وهما أصبر على الشخير.

همو : وماذا فعلت بخصوص الطباخة التي تطلب العريس ؟

ابن الزارة : سويت الأمر مع الخادم العبد مسعود، فلونه نحاسي وعيناه جمرتان وعضلاته مفتولة، وقد وعدته إن تزوج بها ستة أشهر أن أجازيه بخادمة جبلية تولّه بها، على شرط أن يتزوج الآن بالعنبر ويتعبها حتى تطلب الطلاق وتسكت عن تخريفها بالمرة.

همو : ولكن مرشحك في عمر أصغر أولادها، وكيف تأمنها على التعلق به إلى الأبد ويحدث عكس ما تتوقعه منها من التضايق؟ وإذا زوجته بأخرى فقد تغضب الطباخة و تثير فضيحة وتشتكي إلى الوزير.

ابن الزارة : لا تبالغ في ضرب الحساب لأصحابك بفاس، ثم إنني أعرف قدرات هذا العفريت، فدعني أمضي في خطتي.

أظهرت الأيام للقائد همو أن ابن الزارة يحسن التدبير، وقد أنقذه من الوقوع ضحية شيء مخيف ذاقه بالقرب من عروسه بعد رجوعه من حفلة الهدية، شيء يسمى مهاوي النساء، يوفر لذة عظيمة ولكنه سابق لأوانه بالنسبة لقائد ناشئ يتربص به الأعادي وتحاك ضده الدسائس وتثقله الديون، وليس له من عدة الحكم ولا من مظاهر النخوة ما يبرز به أمام الأقران.

وقد تشجع همو في مشاريعه بعد أن عاد باروخ من مراكش ببيان حقيقة الأمر الذي جعل الخليفة يكاتبه، وطمأنه على كل شيء، وبلغه استعداد أصحابه التجار لتقديم سلف جديد إلى القائد بمقدار أضعاف ما قدموه في السابق، على أن يكتبوا له براءة بالأجل الذي يرضيه وبالمنافع التي يتيحها كرمه ولا تضر بمصالحهم.

وبالفعل، ذهب باروخ مرة أخرى برفقة ابن الزارة إلى مراكش خفية، واتصلا بالتجار وتكاتبا معهم، وعادا بمال كثير. ولما وضعاه أمام القائد وانصرف باروخ، قال ابن الزارة لهمو وهو ينفرد به :

– أنا أتيت بهذا المال وأشهد علي المقرضون بقبضه نيابة عنك. فدعني أصرفه بمقتضى ما يعود عليك بالنفع حتى نصل إلى المقصود. سنخصص نصفه لكراء عسكر من شذاذ الآفاق وشراء عدته، تضرب به الضربة الأولى في الجبل.

قضى ابن الزارة شهرا كاملا وهو يطوف في أسواق القبائل حتى تواعد سرا مع خمسين من المشاغبين الذين يركبون الخيل ويحسنون المشي في الشواهق ويعرفون صنعة التسديد بنار البارود. وفي خلال ذلك الشهر أرسل باروخا إلى الدار البيضاء وعاد بأحمال من عدة البنادق وغبرة البارود وحبته والرصاص.

قرر ابن الزارة، ووافقه همو، أن يكون أول شيخ يأكلونه، أي يهاجمونه ويسبون منه، هو شيخ قبيلة شعاب البساتين. وكان قد تظاهر بالتفاف الأعيان عليه إلا واحدا منهم كان يأتي إلى دار القائد همو ويظهر أنه يشتغل لحسابه حتى ينفض الأعيان من حول ذلك الشيخ ويسهل تطويعه. غير أن تلك المحاولة طالت، وهذا المتآمر قد أكثر التسويف. واستحلى مجالسة القائد همو

وألوان الطعام عنده وكؤوس الشاي بالحلوى المسماة بالقريشلات[1] في رياضه، بل إن ابن الزارة تحقق من كون ذلك المتعاون كان يكذب في أخباره ودعاويه.

نزلت شرذمة العسكر على دار الشيخ على حين غرة في غلس يوم فأسرته وأهله وحراسه وأشعلت النار في مخازن تبنه ووضعت السلاسل في عنقه وفي أعناق أولاده ومعاونيه ونهب من داره كل نفيس واقتيد صغار النساء إلى دار القائد لاستخدامهن. وعين ابن الزارة أحد أعيان قبيلة مجاورة مكانه إلى أن يطيع الأعيان ويتفقوا على من يرضاه القائد، ثم طافوا بالقبيلة. وفعل مثل ذلك بسبعة من كبار الأعيان. وفي ليلة الغد تلقى أهل القصبة العسكر العائد من الغزو بالزغاريد والأعلام والأهازيج. ورأوا المحاربين يقودون أمامهم حشرا من الأسرى وآلاف الأبقار والأغنام وأحمال الأشياء.

امتلأ السجن بكبار الأسرى، ووزع صغارهم على مرابط بهائم السكان المجاورين لقصبة القائد. وكان من مكر ابن الزارة أن أرسل قبل يومين من تاريخ الغزو رسولا سريا يستدعي ذلك الرجل المتآمر على الشيخ المنهوب. وطلب منه أن يأتي بصحبة ولده الأكبر الذي تعود على أن يتناول معه القريشلات عند القائد ويأخذ منها كيسا لأهل داره، وقال للرسول أن يستضيفهما إذا حضرا بدار رجل بالقصبة يثقفهما إلى أن يطلبهما القائد.

وفي غد رجوع الجيش جيء بالرجل المتآمر وولده ولم يكونا على بال مما جد في الأمر، وهو يعتقد أن القائد سيستقبله ويتحفه على العادة بحلوى القريشلات. فإذا بالرجل يسمع. وهو ينتظر محروسا بباب دار القائد، أن الذي كان يتفاوض عليه من الإطاحة بالشيخ قد أنجز بقوة الغصب والسلاح. فخارت قواه وتوقع كل

---

[1] نوع من الحلوى

شر ووبال، وتركوه هنالك يوما وليلة فريسة الخوف والجوع، وفي صباح الغد خرج له بعض الأعوان ووضعوا أمامه خشبتين تصلحان لحمل سقف بيت، وقالوا له : هذه لك وهذه لولدك. وأمر سيدنا القائد أن توصلا الخشبتين في يومين إلى فلان، يقصدان الرجل الذي تولى مكان شيخ قبيلته الأسير، وقالوا له : إذا تأخر رجوعك ببراءة الوصول فستنفى من ذلك البلد بأولادك.

حمل الرجل وولده الخشبتين على الأكتاف واتخذا طريق الصعود في الجبال، وفي ساعة من مقاساة العذاب في العقاب قال الولد لوالده : هلا استمرأت أيها الوالد ما يكفيك من القريشلات !؟

دوّى خبر الغزو في قبائل الإيالة وما جاورها، وعرف الشيوخ المتمارضون في الطاعة أنها ساعة الإذعان أو الهلاك، وزاد الطائعون في التنافس على الخدمة وإظهار الفخر بالسابقة فيها. وكانت النتيجة هي أن الوفود تنتصب بباب دار القائد كل صباح وهم بين من يريد أن يسلم ويهدي وبين من يريد أن يتظلم وبيده ما يلزم من نفقة أهل المعاينة وبين من هو مطلوب في جائرة ارتكبها أو إخلال يطلب منه الاعتذار وبيده ما يشفع له في المسامحة.

ووقف القائد همو بالمشاهدة على حسن تدبير ابن الزارة وصواب نظره، فأراد أن يبين له رضاه عنه. فألح عليه حتى قبل أن يزوجه بإحدى زوجتيه الأوليين بعد أن يطلقها، وأن يقبل منه اختيار زوجة ثانية من بنات القبيلة التي وقع غزوها وجيء بهن إلى الدار للخدمة. لكن ابن الزارة قال لهمو : نفعل كل ذلك بعد إخراج الصقر الأخير من وكره.

14

اتسعت أموال القائد همو بعد أن دانت له أهل الجبال، إلا كبير الشيوخ، الشيخ احماد نايت ابرايم. سيد أكبر القبائل وأغناها، وهم أهل رأس الوادي، فهو الصقر الأخير الذي يعنيه ابن الزارة. كثير ماله بخيرات أرضه وتجارته مع قوافل الصحراء، والشيخ احماد منيعة حصونه، كثيرة خيله ومغاوير فرسانه، لم يذعن من قبل لأحد القواد قهرا، وإن كان يسالمهم. وسبق لأجداده أن تعاملوا مع سلاطين سابقين وأخذوا منهم ظهائر الإقرار على عمل المشيخة. توارث الأبناء عن الآباء الإباء والنخوة ورسوم التنعم برقي المعاييش وعوائده وآلاته مما لا يتخيله حتى النبيل المتحضر، كما درجوا على مراعاة قواعد البر وفنون المصانعة وتأليف القلوب والمداراة. ولم تمنعهم الأريحية من اللجوء إلى المكر والدهاء مع أعداء لهم أو متآمرين عليهم في بعض الأحيان.

قضى القائد همو ومعاونه ابن الزارة ثلاثة أشهر وهما يستعدان لأكل الشيخ احماد، أي غزوه، كان يهيئ المقاتلين مع جميع فرسان القبائل الطائعة، ويهيئ عدة القتال ومئونة الحصار، لما يعلم من منعة قصبة الشيخ. وزاد على ذلك إحكام التآمر عليه مع شياطين القبائل المجاورة، فرشا ووعد وتوعد، إلى أن ظن أنه استكمل ما يلزم من شروط الاستعداد لتحقيق الانتصار على غريمه.

وبينما كان القائد منهمكا في شأن تحضير القتال، اشتغل من جهة أخرى باستكمال مراسيم الرئاسة وأبهتها، وكان الذي تولى كبر ذلك هو ساعده اليمين ابن الزارة، فاتخذ المشاورين عنه ورتبهم مراتب. واتخذ الحرس وجعل لهم اللباس المنظم الأنيق، وجعل لهم المناوبة، وصنفهم إلى مكلفين بالإقامة والمكرسين للأسفار، واستزاد من عدد العبيد والإماء، واستقدم من يدرب

الجميع على الخدمة وعلى آداب التحية والتبجيل، وجدد الأفرشة والزرابي، واشترى النفيس من أواني الصين، واهتم خاصة بآنية الشاي من كؤوس الزجاج البلوري الرفيع ومن الصينيات المصنوعة من المعدن الصافي في معامل بلاد الإنجليز. وكان ممن تعب في اختيارهم وتعيين اللائقين منهم القيِّمون على تحضير الشاي بحسب المناسبات، فقد شرط ابن الزارة شروطا لهذا الاستحقاق، وكان يسردها على آذان القائد كل ليلة حتى مل منها وتركه لتخريفه كما كان يقول، بل انقلب الأمر إلى مسخرة طويلة حيث كان همو يستفز صاحبه فيقول له كلما جلسوا للشاي : زدنا من ذكر شروط القيم الذي تطلبه، وكان ابن الزارة يندفع في ذكر تلك الشروط كما كان يندفع في ذكر أوصاف السجن، والقائد يتعجب لدقائق وصفه، والجلساء من المتملقين يضيفون حَطبا إلى موقد حماسة ابن الزارة فيتفننون معه في صياغة تلك الشروط يضيف إليها كل واحد ويبالغ. وكان من جملة ما قالوا :

– لابد للقيم أن يكون ممن يعرف آداب الصنعة. يعرف متى يدل البخار الخارج من لسان البقراج على حرارة الماء المناسبة لإقامة جيدة، ويعرف كيف الاستواء أمام الآنية واتخاذ اللبسة الأنيقة والعمامة التي لا تبلغ حجم عمامة القائد، ولكنها رفيعة الحاشية محكمة الفتل، ويعرف اختيار مقام الجلسة، بحيث يكون منظر جلوسه أمام الآنية عند تحضير المشروب ذا رونق يبهج العين ويزيد من شوق الجلساء إلى الارتشاف، ويعرف كيفية ترتيب الكؤوس أمام الإبريق المسمى بالبراد، بحيث تدور كؤوس الحاشية بكأس الوسط مثلما ينبغي أن يلتف الشيوخ حول صاحب النعمة، سيدهم القائد، ويعرف كيف يجري اللمسات الأخيرة على هذا الترتيب ولو لم يزلزل نظام الآنية عند حملها إليه ووضعها أمامه من طرف المسخر الذي يحضرها، ويعرف كيف يطل مرة

أولى على البراد وهو فارغ ليتأكد من لمعان قاعدته قبل أن يودع فيه المادة المطلوبة، ثم كيف يعيد غلقه بحركة يسمع فيها قعقعة نزول الغطاء على أطراف الآنية كرنة ناغمة لا كصدمة ناشزة. ثم يعرف كيف يستخدم عينيه في الكلام مع الخادم الذي يأتيه ببقراج الماء الحار، متى يأتي، كيف يصب وكيف يزيد وينقص وكيف ينصرف، ثم يعرف كيف يترفق بالحق الذي فيه حبوب الشاي ويحتفن منه القدر اللازم، ويقوم بحركة تجعل الجلساء الذين يراقبونه يتأكدون أن تلك المادة من أنفس العينات، ثم يهوي بها، ولا يكون في راحته عرق يشد حبة منها يضطره إلى طردها بشكل يقزز الناظر أو يقلل من شهيته للشاي، ثم يعرف قدر الماء الذي به تحسم من مادة الشاي قوة تركيزه، وبحسن حركة ذلك التقطير الخفيف بمخض خفيف يتبعه صب المحلول الزائد في كأس الفضة المعد لذلك، وأن يعرف كيف يأخذ النباتات المعطرة من نعناع وغيره من آنيتها بيدين، لا بيد واحدة، ويتحرى في عدم إسقاط ورقة منها لأنها لو سقطت لا تصلح أن توضع في الإبريق ولا أن تعاد إلى الآنية، وليس لها مكان في الصينية، ويكون أخذ تلك النباتات بمقدار، بحيث يبقى على شيء منها لتجديد النكهة في الإبريق الثاني أو الثالث، وأخطر ما في النبات المعطر أن يشوبه خلط بنبات ليس منه، يكشف عنه القيم بعين فاحصة فيزيله دون إشعار الجلساء ومخافة إحراج المضيف بمعرة تلحق الذين أعدوا عدة الشاي من داخل داره، لأنهم لو قدموا الحشائش في إقامة الشاي لكانوا كمن يريد أن يعلف البهائم، ثم إن تلك الحشائش منها السام ومنها ما يفسد لحموضته أو زعاقته عمل الشاي والجلوس إليه برمته. كل هذا ينبغي أن يتنبه إليه القيم على تحضير الشاي، ولكن التحضير نفسه هو في معرفة مقدار الشاي حسب أنواعه، والسكر حسب أذواق الكبراء في المجلس،

ولا سيما الضيف الرئيسي، وإذا لم يكن فالمهم أن يرضى المضيف الذي هو القائد، ولا يفرد له تقطير خاص به بحسب زيادة الحلاوة ونقصها إلا إذا أمر أو وافق بعد سؤال يكون بالإشارة، سؤال ضيف الشرف أو من يسامته في المقام يكون بواسطة المضيف لا من قبل القيم مباشرة. وإذا كانت الأعراف تسمح للقيم بتذوق المادة فلا يكون ذلك من قبل القيم الماهر إلا مرة واحدة على سبيل متعة المراسيم، لا على سبيل التجريب، لأنه لا يخطئ في حرارة الماء ولا في مقادير المواد ولا في الوقت اللازم لتفاعلها. والتذوق مما تشترط فيه الأناقة، ولا سيما في حركة اليد والرأس والفم وعمل الشفتين في الارتشاف، فلا يكون بالغ الصمت ولا يكون بامتصاص شديد يسمع له دوي كالشخير. ويعاد الكأس بحركة لطيفة تنم عن الارتياح إلى المتحصل، وفي أقصى الأحوال يعالج التركيز بصب كأس كامل ويعاد صبه في الإبريق وينتظر هنيهة ثم يفرغ الشاي في الكؤوس. ويكون البدء في الإفراغ بكأس الوسط ثم في الذي يقابله فيصب في الذي في يمينه ثم في الذي عن يساره وهكذا إلى أن يصب في الكؤوس كلها، وقد يشفع له في أن يبدأ من اليمين بعد أن يصب في كأس الوسط. ويكون الصب في غاية المهارة لأنه لحظة المتعة الكبرى بإخراج المادة الذهبية اللون ووضعها في قوالبها، بحيث يكون ذلك الإفراغ بحركة رشيقة أيضا فيها صعود وهبوط، تكون اليد فيها أعلى ما تكون، والصب قد بلغ نصف المقدار في الكأس، وميزة مقدار الشاي في الكأس عند الأكابر علو عرض أصبعين. وعلامة الإقامة النفيسة والإفراغ المواتي أن تطلع فوق الشاي في الكأس عمامة لجينية لطيفة لا هي بالرقيقة جدا ولا هي بالغليظة التي تذكر بلعاب الإبل حين الاجترار. وأن يسمع للصب صوت كالخرير الممتع للآذان المنبه إلى أن وقت استخلاص المشروب قد حان. وعلى القيم النبيه أيضا أن يمكن المسخر بيده

من الكؤوس لتوزيعها وهو يتجنب أن يمرر راحته فوق الكأس، بأن يحرص على مسكه من جهة قاعدته بأصبعين، وأن يحرص بالخصوص على رصد كل كأس، وإن تشابهت الكؤوس، حتى يعرف الذي شرب منه من الجلوس، وإذا أعاده المسخر فارغا أعاده القيم إلى موقعه من الترتيب ليعود مرة أخرى إلى صاحبه الذي شرب فيه، وتلك مسئولية القيم لا مسئولية المسخر.

وقيم الشاي بين إفراغين ساهر على آنيته، ماسك بفوطة ينفض بها الذباب أو النحل أو الزنابير أو غيرها من الهوام التي تجذبها حلاوة السكر، وقد يستعيض عن الفوطة بعرش من شجر الجوز أو غيره، تصلح أوراقه لنفس الغرض، ويضفي لونه وتحريكه بهاء على المنظر، ولا يغفر لقيم الشاي أن يضرب بالفوطة أو ورق الشجر كأسا فيسقطه أو يكسره، كما لا يغفر له أن يتهاون في فحص الكؤوس حتى لا يكون في بعضها شق أو يكون غير منشف من الماء البارد فيتكسر عند صب الشاي الحار فيه، ويفسد المنظر برمته بحيث تحمل الصينيات لتبديلها وإعادتها إلى المجلس.

وقيم الشاي في مجلس الأكابر حاضر غائب، حاضر قد يطلب منه العلم ببعض الأمور مما له علاقة بتدبير شئون الناس، ولا يبادر بالتدخل في الحديث الدائر. ولو كان لديه علم بشيء يجهله المتكلمون أو يتظاهرون بجهله، ثم إنه غائب لأنه مؤتمن على الأسرار، فقد يكون ثالث ثلاثة أو رابع أربعة، تمر على مسمعه الأخبار وتعلن الآراء وتعطى الأوامر وهو لا يشرب الشاي في المجلس الذي يكون فيه قيما.

سعد القائد همو بالعثور، بعد التنقيب، على شخصين ممن يمكن أن تتوفر فيهما شروط قوامة الشاي حسب الشروط العجيبة التي كان يضعها ابن الزارة، وغيره من حذاق المجالسين للقائد،

وعند حضورالشخصين جلس القائد وحاشيته لاختبارهما، وانتشى لما رآه من حذق كل منهما.

وكذلك سعد القائد بتجميع أفراد فرقة عازفين مصحوبين بقينات للفرجة كل يوم، اختارها ابن الزارة ورتب نظامها. ووجد همو أن الجلوس لسماع أنغام تلك الفرقة هو الدواء لأرقه و كناسة قلقه قبل النوم، حتى إن شخيره قل، وفهمه للأمور بدأ يتبدل، فصار أكثر تقديرا لكلام ابن الزارة عندما يصور له مستقبل حياة الرئاسة والجاه وما يتوقف عليه تحقيقها من الجسارة.

لما تزايد عدد المترددين على القائد همو من جميع الآفاق، وتكاثر خدامه وحاشيته، رأت السالمة أن معظمهم منفر بقذاراته وأوساخه فأرسلت إلى ابن الزارة وقالت له : قل لصاحبك، وتعني زوجها القائد، أن يبني حماما لسكان السوق المجاور للقصبة واجعلوا فيه أوقاتا لكل من يمرون قرب القائد أو يدخلون إلى الدار. وعودوا أصحابكم على دخوله إذا جاءوا لأغراض الحكم أو للبيع والشراء.

حمل ابن الزارة الخبر إلى القائد وفرح به لأنه يدل على أن السالمة مازالت تهتم بأمر أبهته بالرغم من انشغاله عنها بتدبير الشئون، ولأنه لا يريد أن يتسبب لها في الأرق وهي تكابد حملها وهو يشعر أنها تحتقره لعنف شخيره.

بادر القائد بالأمر لبناء الحمام وسماه الناس، حتى قبل تمام بنائه، حمام السالمة، إذ شاع أنها صاحبة الفكرة فيه، وكان القائد قد شكر لزوجته مبادرتها في نفس اليوم وبشرها بأن الدخول إلى الحمام سيكون بفلس واحد، وأن المداخيل ستكون مخصصة لصدقاتها على المحتاجين.

كون ابن الزارة حول مخدومه حاشية من الجلساء الورعين، وارتاح لهم القائد لأنهم لم يكونوا ينقصون من قدره لا بسبب قلة

بضاعتـه في العلـم ووضاعـة نسـبه في الأنسـاب ولا بسـبب سـلوكه المتقلب بين مكائد الحكم وقسـوة الإجهـاز علـى الأعـداء وخلواتـه للترفيه على النفس، وإن كانت أخبارها لا يصـل منهـا إلى النـاس إلا القليل. وقد جعل له ابن الزارة في مجلســه اليومـي مزّاحـين لا يتركون جلباب الوقار على أحد إلا إذا كان من الورعين المجانبين للفضول حقا. وبعد أن اجتمع للقائد كل هذا الإقبال، لم يعد يأبــه لأمر الديون التي تراكمت عليه، وكل الذي بات يشغله هو ما كان يسميه ابن الزارة : إخراج الصقر الأخير من عشه، ويقصد به أكل الشيخ احماد نايت ابرايم.

15

كان القائد همو على أهبة الخروج لغـزو مشيخة احمـاد نـايت ابرايم عندما تلقى أول رسالة من الوزيـر الـذي مـا فتـئ يظهـر لـه مخصوص عناية، وجاء فيها :

"وبعد، فإن محبتك في جانبنا وحرصنا على مصلحتـك جعلتنا نخـبرك، علـى سـبيل السـر، أن سيدنا أدام الله في الصالحـات ذكره، ينوي في حركته، بعد شهرين، إلى مراكش، أن يمر ببلـدك ليقف على مدافن بعض الصالحين هناك، فهو وإن كان أعـزه الله عنصر كل البركات، يضرب لرعاياه المثال في التحنـث والخشـوع، وعليه فاشرع في الاستعداد واغنم فرصة عمرك للظهور بمظهر القـوة والحزم والكرم المعهود فيك، وبه الإعلام."

قرأ همو كتاب الوزير ولثمه وأعاد لثمه، وهو بين وقـع المفاجـأة وأثر الاندهاش وشدة الشعور بفضل الوزير من جهة، وبمـا يـترقب من فوائد التشريف السلطاني أثناء الزيارة من جهة أخـرى. دخـل إلى الغرفة التي يجتمع بها بابن الزارة وأعاد قراءة الكتاب بصـوت عال ومساعده يسمعه، وعندما أنهاه قال ابن الزارة معلقا :

– القوة والحزم والكـرم، يـا ليتـه أمهلنـا حتـى نخـرج النسـر الأخير من وكره، فقد خزن الكثير مما يستعان به على هذه الأمور.

فقال همو : دعنـا مـن خيـالاتك ودبـر المطلـوب في شـهرين، فالوزير قد قال إنها فرصة العمر، وهو محق. ففي مثلها ربح فلان وخسر فلان، ومن يـدري ؟ فلعلـه يعطينـا مدفعـا وتحـل بـه كـل مشاكلنا.

أشار ابن الزارة على همو بأن يستدعي جميع الشيوخ والأعيـان ويطالبهم باللازم ويقسم عليهم تحمـل النفقـات. وعندمـا اجتمعـوا وأقاموا يوما وليلة في انتظار استقبال القائد، عين ابن الـزارة اثنـين

من أولئك المدعوين وكلف الأعوان المقربين من القائد أن ينسبوا إلى ذينك الشخصين أمورا ملفقة ويهووا عليهما بالضرب بسببها حتى يتسامع الحاضرون بذلك ويتهيأوا لأخذ كل ما يقال لهم أو يطلب منهم مأخذ الجد، وينفذوه بأقصى ما يكون من السرعة و المراعاة والانضباط.

تحقق ما خطط له ابن الزارة، وخرج الشيوخ والأعيان من دار القائد همو وهم من الخوف بشدة حتى إن الواحد منهم يكاد يمشي على أربع، ومن الافتتان ببذخ داره وفراشه وأثاثه وألوان الطعام والشراب الذي قدم لهم وأنواع المراسيم التي شاهدوها وخدامه يؤدونها في منتهى النظام والامتثال.

وكان من جملة أمور الاستعداد الشروع في بناء رياض جديدة، هي عبارة عن قصر في جوانبه الأربعة غرف فسيحة ذات قباب سداسية الأركان مغطاة السقف بالخشب المزوق بالألوان البهيجة. وأمام الغرف والقباب أروقة مرفوعة على السواري متنوعة الأقواس متماثلة الأشكال. والأروقة تحيط بأحواض أربعة كبرى مربعة بينها مماش. وفي كل حوض مغروسات من الأشجار والورود التي انتزعت بجذورها ووضعت هنالك، وصادف الزمن منتصف الشتاء.

لم ير الناس في ذلك البلد ولا تصوروا بناء مثل ذلك الرياض ولا تخيلوا أن تشيد في ذلك الأمد القصير. فقد كان يقال لهم إنهم يبنون للسلطان قصرا سينزل فيه، وهم لم يتخيلوا أن يروا السلطان في حياتهم، ولم يسمعوا به إلا في حكايات المسنين وأخبار الجدات وفي خطب الجمع والأعياد. وقد حشر لذلك البناء مئات العمال ونحتت جبال الأحجار وطبخت آلاف قطع الآجر وقطعت الأشجار السامقة، بل إن دجاجات القبائل تكرسن لإعطاء جبال من البيض دعت إليه الحاجة ليدخل في نوع من تبليط السواري

والجدران والأرضيات يسمى بالجبس المدلك. يمتاز بملاسته ولمعانه حتى إنه يشبه حجر البلاط.

عندما انتصف العمل في البناء وقامت الاستعدادات الأخرى على قدم وساق. وصل الميقاتيون من حضرة السلطان وهم يحملون رسالة تؤكد مرور جلالته في موعد متأخر بشهر عن الموعد الذي أخبر به الوزير. وعاينوا محلات مرور الموكب ومراحل نزول محلة السلطان وقرروا ذلك على الورق بالساعات والمسافات وبمتطلباته من المؤونة والعلف والماء. وكان مرورهم تفريجا على القائد: إذ عرف منهم كيف تكون الرحلة والزيارة بتفاصيلها. حتى إنهم قالوا : إن سيدنا لن يبيت في قصبة القائد. ولكنه من شيم كريم خلقه وإحسانه ورفقه بخدامه. سيدخل داره ويستريح بها هنيهة ويشرب ماء. وقد يتناول لقمتين من عصيدة الذرة بالسمن. وهو طعام أهل تلك الجبال. أما أنواع الطعام الشهي التي سيُقدم في مآت الأواني تحت المضارب. إنما سيكون لحاشيته من كبار الدولة والكتاب والحرس والعسكر والأهل ممن يرافقونه. وقد عجب القائد ومعاونه ابن الزارة من دقة التقييد التي وصف فيها الميقاتيون رحلة السلطان في تلك المرحلة. حتى إنها تكاد ترى بالعين قبل وقوعها بما أحكمت أمورها ومجرياتها. وهال القائد وصحبه أن كبير الميقاتيين قال إن سيدنا بعد التطواف بشهير المزارات سيتصدق على الزمنى وذوي العاهات والطلبة والقراء والشرفاء وسيستمع لشكاوي المظلومين. فلم يرع القائد سوى أن يتصور نفسه وهو يبحث عن جميع المظلومين ليقدمهم صفا صفا إلى السلطان. وقال لمعاونه بعد انصراف الميقاتيين.

– كل شيء مما وصفوه وطلبوه يهون. إلا هؤلاء المظلومين. فأين سنجد لهم هؤلاء المظلومين. إني لا أراهم !

فقال ابن الزارة : أما أنا فأراهم. وأرى أن كلامهم سيكون نعمة تنزل عليك. إنهم أعداء أعدائك من الشيوخ. فهذه فرصتك للإطاحة بهم. فقل لي كم تريد لكل واحد من مظلوم. إننا سننصب نواب قبيلة كاملة يرفعون الشكوى بصاحبك الشيخ احماد نايت ابرايم. فظلمه باد للعباد. وأي ظلم أعظم من النفور من الطاعة ومن التخلف عن مثل هذا المثول تحت حكم من يحمل الظهير ؟

سري عن القائد وعاد إليه شيء من الارتياح بسماع كلام صاحبه. حتى إنه قال لنفسه : ما لهذا النخاس يفهم في كل مرة وأنا لا أفهم !

وقبل موعد زيارة السلطان بنصف شهر كان كل شيء قد تهيأ وكمل في مكانه. وحتى السدر والشوك قد قطع على جنبات الطريق والأحجار قد أميطت على بعد عشرات الأميال من القصبة في أرض إيالة القائد. وكان آلاف الجبليين قد أعدوا العدة للنزول والحلول في الأماكن المعدة لكل قبيل. وميرة الموكب كلها قد حضرت. وعلامات الزينة قد نصبت. وقلب القائد ينقبض بالانفعال يوما عن يوم. وصاحبه ابن الزارة يقيم له أنواع التسليات والملاهي لتزجية الوقت والترويح عن الخاطر. وكان يحلو للقائد أن يدخل رياضه الجديدة وقد تم تشييدها وصناع التفريش من يهود ومسلمين يعملون ليل نهار في الخياطة وحشو الطنافس بالصوف وريش النعام ونصب المخامل والستائر وتعليق الآنية والدوالب الخشبية الرفيعة وساعات الحائط والمرايا المجلوبة من البلدان.

وعنَّ للقائد ذات صباح أن يدعو ذلك الرجل الورع القيم على إمامة الزاوية الكبرى. فشاركه في إفطاره عند الضحى. في الرياض الثانية. وكان ينتظر منه أن يبارك له قصره الجديد. فلم يسمع منه شيئا من ذلك. ثم قال في نفسه ربما لم يعلق لأنه لم ير مثل هذا الصنيع العجيب ولم يخطر على باله مثل هذا الفعل العظيم.

ثم أخذه ودخلا من البوابة الواصلة بين الدارين. وطاف بـه القـائد في جنبات ذلك البناء الأعجوبة. وهو يرقـب ملامـح وجهـه وهـي لا تتغير. فلما أنهيا الطواف قال القائد للرجل :

– وماذا ترى أيها الإمام في دارنا الجديدة هذه ؟

فأجاب الإمام على الفور، وهو يبتسم كالساخر الحذر :

– أرى أنها من ضخامتها ستشكل إذا خربت كدية عظيمة.

القائد : ومن سيخربها ؟

القيم : الذي يبلي كل جديد. إنه الزمان. الزمان يا سيدي القائد.

التفت القائد فإذا أحد كبار مسخريه هناك يعـين بعض صنـاع الأفرشة. فناداه وابتعد عن الإمام ليلقاه ويوصيه بـأمر. ثم تظـاهر بأنه تذكر أمرا يقضيه بداخل الدار. وذهب المسـخر بالإمـام حتـى أخرجه إلى حال سبيله. أرسل القائد مـن يبحـث عـن ابـن الـزارة ليلتحق به في غرفة جلوسهما للتشاور. فوجده هذا الأخـير يغمغـم في غضب وصخب وهو يقول :

– مالي أهدي الجواهر للدجاج ؟ والدجاج من سـقاطته يحسـب كل ما في العالم لقطا من حبات الذرة والشعير !

ولما سأله ابن الزارة ماذا كان كلام الشيخ وما أغضبه منه. قال همو :

– إنه الحسد يحرق صدورهم. نتجـرع المـرارة لـتزيين وجهـهم بين الناس ويأبون إلا الخلود في التعاسة التي شبوا عليهـا في هـذه الجبال. فمثل مصفر الوجه هذا لا يدعى لمجلـس ولا يطلـب منـه رأي في شيء. فهو يحمل الموت في أوصاله ويفتري على الدنيـا. لا أدعوه مرة أخـرى إلى داري ولا يدخلهـا بعـد اليـوم. يـاللعجب ! اليهودي يعيننا وينافح عنا. وهذا الناكر للجميل يجلب لنا النكـد بترهـات زهـده. قلـت لـك لا يدخلـن داري بعـد اليـوم. اطلـب المضحكين والمغنين لـيروحوا عنـا هـذا المسـاء حتـى نسـمع أصـداء أنغامهم ترددها جدران الرياض.

16

وصل ركب السلطان وسط المحلة المتكونة من حريمه وحاشيته ومن الخدام والحكام ومن العسكر. وكانت الحوافر تثير الغبار الذي يعلو في السماء ويلف ما عدا السلطان الذي في صدر الركب. وفي الميمنة والميسرة والمؤخرة فرسان يجرون في كل اتجاه.

ولما دخل السلطان إلى أرض إيالة القائد همو تلقاه هذا وهو نازل عن فرسه وهو في حال خنوع وتذلل. ولما قبل الأرض أمامه وعفر الخد في التراب صدر له الإذن بأن يؤخر بقية مراسيم السلام إلى باب قصبته وأن يسبق إلى هناك.

وعند باب القصبة كان الموكب قد مر أمام حشر من أهل القبائل المصطفين على الجانبين. الفرسان على خيلهم لإظهار ما يعول عليه من النجدة. وهم يركعون برؤوسهم كمن يصلي بالإيماء. ولكل جماعة شيخ يتميز عادة بزينة سرج فرس وبجمال العدة التي في يده. والكل في ملاحف ومآزر أو جلابيب. تعلو رؤوسهم العمائم الناصعة البياض. وتلمع تحت الآباط خناجر فضة ملوحة منقوشة. وبعضهم تقلد إلى جهة اليسار. الدليل في محافظ رائقة من الجلد مزين بأراويق خيط الصابرة الأبيض أو الأرجواني أو الأخضر. وعلى صدور الفرسان تقاطعت مجاديل حرير أبيض وأسود وبهما تحمل عدة الصلاة وعدة القتال. وفي يد لجام وفي أخرى حربة أو مزراق أو عدة من سلاح البارود الجديد.

أما الملأ المصطف من الراجلين فهو كل سكان الجبال برجالهم ونسائهم وشيبهم وشبابهم وأطفالهم. منهم المحمول على ظهر والمسعف باليد والذي يقدر أن يلهث وراء الكهول. وحتى الشيب من الرجال والنساء من يحمله أهله أو المشفقون عليه فوق الأكتاف أو على دواب الحمير والبغال ترخيصا. لأنهم كلهم تشوقوا لطلعة

السلطان. رؤية العمر. قلما فاز بها أحد من الآباء والأجداد لأن السلطان الشريف لا يمر قريبا منهم سوى مرة في القرن أو مرتين. وقد لا يمر بأرضهم لعدة قرون. وها هو اليوم يتكرم على أبصارهم الخاشعة فيعوج ليحل في قصبة إيالتهم. والناس يحفظون أخبار الملوك وقلما يرون أحدا منهم. ويعرفون لهم التخصيص والبركة والسطوة المهيبة.

الركب يتقدم والحرس يطردون عن السلطان ما استطاعوا. ودفعهم ولو بشراسة لا يفت من عزم الناس على قضاء ما جاءوا إليه. التبرك بالسلطان الشريف. يتطارحون أمام دابته حتى تكاد تدوسهم أقدامها. ويترامون على مواقع حوافرها حتى إنهم يلثمونها. ويجمع من ساعفه الحظ شيئا من روث الدابة ليحرقه للاستشفاء من الألم. ولو وجدوا قربا من دابته لقطعوا خيوطا من أهذاب سرج فرسه أو حتى من أطراف سلهامه.

ولما وصل ركب السلطان إلى باب القصبة توقف ليجود على الحشود بالنظر إليه والتملي بطلعته. وبلغ الوجد غايته. وكانت دائرة واسعة قد تكونت أمام القصبة من فرق أهازيج القبائل تتعالى أصوات أناشيدها في السماء. وكأنما تغالب في علوها الغبار الذي جاء طائرا وراء الموكب. وعلى ذلك الدوي الذي تكونه ضربات الطبول وأصوات طلقات المدافع وبنادق البارود وأصوات غناء الرجال والنساء. كانت الأرض تهتز والقلوب تتفتق. فسقط عدد من النساء مصروعات ووقف بعض المقعدين على أرجلهم يمشون. وفاضت دموع الشيوخ من المآقي على اللحى وارتعشت الأيدي والشفاه. ورأى من استطاع من آلاف المتحلقين كيف تقدم القائد همو وسط عبيد أشداء مصطفين ووقع يقبل الأرض أمام السلطان وهو على فرسه وسط الدائرة. ورأوا كيف تبعه كبار الشيوخ وفعلوا مثل فعله. ولما رأى الناس أن القائد ينوب عنهم في ذلك الولاء

والشريف يتقبل سلامه تناسوا في القائد ذلك المتجبر الرهيب وكادوا يغفرون له قساوته. بل كادوا أن يحبوه. فهو في الحقيقة لا يظلمهم وإنما يظلمهم الشيوخ. وهو يظلم الشيوخ الظالمين. وإلا ما كان السلطان ليفرده بتقبيل يده دون الشيوخ.

ورأى الناس من بعيد أن السلطان أومأ برأسه وحرك شفتيه. وفهموا أنه كلم القائد همو. وكان هذا الأخير أمام فرس السلطان يطأطئ رأسه سمعا وطاعة. ثم سجد ثانيا على الأرض وانسحب. ولم يشك الناس في أن السلطان في كلماته القليلة قد استوصى بهم خيرا. فلذلك جاء إلى بلدهم. ولا شك أن القائد والشيوخ سيكونون أرحم بهم بعد هذه الزيارة.

تحرك السلطان بزيه الأبيض فوق فرسه الأبيض وخديم له آخذ بلجام الفرس. بينما أخذ خادم آخر بمظل عظيم يعلو كالتاج هامة صاحب الملك. وتحرك في إثره من جاء معه في نظام. ودخل من باب القصبة. وعلا هتاف من كانوا هناك على جوانب الطرق :

الله يبارك في عمر سيدنا. الله يبارك في عمر سيدنا.

وكانت المرأة المجذوبة قد عادت إلى الظهور ذلك النهار. تجري أمام الصفوف وتشكر هذا وتسب ذاك. ولا أحد يستطيع أن ينهرها. ولما كان السلطان يتقدم وسط أزقة القصبة كانت تمر أمام ركبه وتخترق صفوف الحرس وتصل إلى الخادم الماسك باللجام وهي لا تأبه بأحد ولا يعترض سبيلها أحد. وهي تقول :

مولاي السلطان عفا عليا — الله يبارك في عمر سيدي
همو وشيوخو. هدا عليا — فجهنم ندفعهم بيدي

وفجأة رأى الناس أن السلطان قد توقف فرسه ومد يده إلى المجذوبة وقبلتها. واستمع إلى كلامها الذي تردده وضحك له.

وأشار لخادم من حاشيته أن يعطيها دراهم ويحفظ كلامها الملحون. وعجب الناس لحلم السلطان ورفقه بتلك المرأة المجذوبة. وقالوا إن السلطان سيسأل القائد همو عن شكاية المجذوبة وما تقصده بكلامها المتظلم. وقال آخرون إن هذه المهبولة غررت بنفسها لأن القائد يستطيع أن يلقيها في مطمورة وتصبح نسيا منسيا بعد مرور السلطان.

وصل الركب إلى باب الرياض الجديدة التي بناها القائد. ولم ينزل السلطان، ولكنه دخل إلى وسط الرياض على فرسه. وكان في المدخل صف من الصبيان وفي أيديهم ألواح القراءة. فكان أن أشار السلطان بأخذ لوحة أحد التلاميذ فقرأها فإذا فيها قوله تعالى : إنما يريد الله أن يذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيرا. فنودي على الوزير الأعظم وأمره السلطان أن يكتب بتلك المكرمة إلى البلدان. حيث تيمن السلطان بذلك الفأل الحسن، وأمر بظهير توقير للصَّبي صاحب اللوح وأهله وأغدق على الصبيان والطلبة مالا. وعد زيارته تلك فتحا. ودخل دون الحاشية إلى وسط الرياض وسط أحواضه فجال ببصره على أركانه وأكبر فعل القائد وفخامة إنجازه. وتبسم وخرج. وهو على ما يبدو منتش بموافقة ما قرأ في اللوح لحال انتظاره لمزيد من المبشرات. وتوجه بعد ذلك إلى ضريح كبير المبجَّلين في البلد واسمه سيدي إدريس. وكان قد أعيد ترميمه وتجديد دربوزه وكسوة قبره. وهناك نزل السلطان من على الفرس وترجل خطوات والناس يهتفون بمباركة عمره. وقد دخل وحده الضريح وأغلقت الأبواب. ولم يدخل معه أحد من الحراس ولا من غيرهم. وتصور الناس أن السلطان صلى ركعتين ودعا لصاحب القبر. ووضع دراهم طيبة في صندوق الصدقات. ولكن العارفين بالمقامات وأحوال الروح قالوا إن السلطان

انفرد بصاحب القبر ليخرج إليه ويتحدث معه. لأن أصحاب المزارات هم من الشهداء الذين لم يموتوا بأرواحهم. ولأن السلاطين هم من الصالحين الذين وهبوا أن يتحدثوا إلى الشهداء من الأموات فيسألوهم عن أحوال الآخرة، ويسألوهم خاصة عما قرأوه في اللوح المحفوظ من أحوال هذه الدنيا وكيف يكون مصير أهلها. فيبشروهم أو ينذروهم. ولا يجوز في كلتا الحالتين أن يطلع على تلك المواقف عندهم أحد ولو كان من المقربين.

ولما انصرف السلطان من ذلك الضريح استمع، وبجانبه قاضي المحلة، إلى شكاوي المظلومين: وتقدمت جماعة قالوا إنهم من قبيلة رأس الوادي وشكوا أن شيخهم احماد نايت برايم مصر على شق الطاعة وعدم الامتثال لقائد السلطان. واستدلوا بتخلفه عن المجيء للمثول بين يدي السلطان في هذه الزيارة. وتقبل السلطان شكواهم، ودعا لهم، وسئل القائد عن جلية أمر المشتكى به فقال إنه يطلب إعانة السلطان بمدفع يستطيع به أن يخرج الشيخ المتمرد من قلعته الحصينة. ولم يرد السلطان على كلام القائد همو. بل أشعره بعض أهل الحاشية أن في طلبه ذلك سوء أدب. لأن الأمر لم يهيأ له من قبل مع من يهمه الأمر بالحضرة. ثم تقدم جماعة آخرون وشكوا أن القائد همو غصب نصف ماء ساقيتهم لأنه خلخل الحجارة التي تعترض مجرى النهر لتحول الماء ساقيتهم وهم في المجرى الأعلى، وتلك الحجارة لا تمس بمقتضى الأعراف، فحكم السلطان أن يعود الأمر إلى ما كان عليه العرف أن ترد الحجارة إلى مواقعها.

وأكبر الناس عدل السلطان وإنصافه الذي لم يحاب القائد ولا غيره، وتعجبوا لأن غير هاتين الجماعتين لم تتقدم للتظلم. والواقع أن عددا كبيرا من الناس قد جاءوا لإبلاغ شكاويهم إلى

السلطان. ولكن ابن الزارة كان قد أدخلهم إلى إحدى دور القائد، وأمر لهم بالطعام والشراب. وكلف الخدم بإدخالهم إلى الحمام ليستعدوا للقاء السلطان. وأمر الخياطين بأن يقضوا الليل ساهرين حتى يخيطوا لكل واحد من المتقدمين للشكوى إزارا أو جلبابا جديدا يرتديه عند الاستقبال. ولما تنظف جميعهم وارتدوا ما خيط لهم خرجوا وتقدم بهم حرس القائد إلى ساحة المسجد التي كان فيها موعد تقديم الشكاوى، غير أن السلطان كان قد انصرف عند وصولهم.

خرج السلطان وركبه من القصبة وتوجه إلى أجنة أقيمت فيها المضارب لتناول الغذاء، وقد نصبت الخيام على العشب الأخضر وسط سواقي ماء تحاذيها الورود، وواحدة من تلك السواقي نهر صغير يخرج من تحت صخرة ويخترق تلك الجنة وتسقط مياهه في شلال شاهق تبدو مياهه كالدر المنثور من فوق السحاب. يشرب منه الريح ويعيد خفيف ذراته اللجينية إلى البساتين فيغمرها برحيق الندى. ولما رأى السلطان عدة المضارب والأفرشة والآنية وترتيب الخدمة وجمال المكان قال للمقربين : هؤلاء هم الملوك حقا، إنما نحن لهم الخدم. ونقل ذلك الكلام السلطاني بعض الحاشية إلى القائد ففرح به وتخوف منه واحتال حتى تقرب من كبير الوزراء فأدى واجب الأدب، وسأله عن حال خاطر سيدنا. فقال له : نحن بجانبك !

وقبل العصر كان الحفل قد انتهى، وقدمت الهدايا من المال الناض والخيل المسومة والخدم والإماء والتحف. وقام القائد بواجب الكرم المتعين إزاء كبار رجال الحاشية والمقربين. وقام الركب ليستأنف حركته. وودع الناس السلطان في جو حماس مثل الذي استقبلوه فيه، وسار القائد همو في الركب حتى وصل

السلطان عند وقت المغـرب إلى مضـارب نزولـه في الليـل في حـدود أرض إيالة مجاوره في السهل. القـائد ولـد الشـهباء. صهـره والـد زوجته السالمة. فسلم القائد همـو، وعـاد أدراجـه إلى قصبتـه وهـو يطير على فرسه وحوله أعوانه. وكان يشعر كأن السـماء انفتحـت له وغفر له ذنبه أو كأنه ولد من جديد.

17

جلس القائد في القبة الكبرى من رياضه الجديدة. ودخل عليه الشيوخ واحدا واحدا يهنئونه على زيارة السلطان ويهادونه، وصرفهم ليبيتوا في ضيافته. وأظهر لهم في تلك الليلة من الكرم وأنواع الفرجة والنظام ما أنساهم كثيرا من المضايقة والعنف والتمحيص الذي صاحب معاملته إياهم حين الاستعداد لزيارة السلطان. وزاد يقينهم بأن القائد قد أرسى دعائمه في بلاد المخزنية عندما استحق المرضاة السلطانية.

أما القائد فقد انفرد بعدد من أعوانه واللبقين المرحين من جلسائه ليراهم يأكلون ويشربون وهو مكتف عن الأكل والشرب بحال زهوه واسترداد أنفاس راحته بعد شهور من التعبئة واللهاث في مسابقة الوقت والهلع من كابوس الخوف من العواقب الذي كان يلاحقه ليل نهار. ولكنه كان يستمتع مع أولئك الجلساء بغناء المغنين وعزف العازفين ورقصات القيان. وكان الذي أنساد التعب وبرد راحته ما كان هؤلاء يرددونه على مسامعه ويتسابقون في إمطاره به من آيات التملق والإعجاب بقيامه المخزني أثناء الزيارة السلطانية. وكانوا ينقلون إليه تفاصيل ذهل عنها أو لم يشاهدها أولم يسمعها أو لم يكن لها وجود أصلا وإنما اخترعوها لإرضائه. تهم حركات السلطان وإشاراته وتقريظات رجال الحاشية وما ظهر عليهم أو منهم من تعابير الإعجاب والمباركة.

وفي وقت من الليل أشار ابن الزارة إلى الجميع بالانسحاب لأن القائد قد استسلم للنوم وأخذ في تسريح أنفاس تعلو بالشخير.

وفي الغد، اشتغل جيش من الأعوان ورجال القبائل في تفكيك الخيام وإحصاء المواعين والأفرشة وإعادة كل شيء إلى أهله ونصابه. ودخل ابن الزارة الذي رتب لهم النظام، دخل على

القائد ليتناول معه الفطور على العادة. وهنالك سلم له رسالة من صاحبه الوزير الذي لم يكن في الركب ولكن شخصا من الحاشية حمل منه تلك الرسالة وفيها :

"وبعد، أنعم الله عليك بكرامة رضا سيدنا بعد زيارته، أما ما ذكرت من أنك تتمنى أن يجود عليك حفظه الله بمدفع تمهد به ما بقي ممتنعا من حصون المتمردين عليك، فقد ذاكرت العلاف الكبير في هذا الأمر وكبير طبجية سيدنا فعلمت أن الأمر متعذر لأن بلادك كلها جبال. وقررنا أن نعوضك بعدة خفيفة نتوسط لك في شرائها من بعض أهل الأجناس في الدار البيضاء، فأرسل متى احتجت إليها عشرة قناطير. وأدامك الله على محبتنا والسلام."

تذاكر القائد وصاحبه في مضمون رسالة الوزير، واتفقا على أنه الإذن الصريح في غزو عدوه الشيخ احماد نايت ابرايم. ولكن لا بد من شراء العدة التي ذكرها الوزير لأنه ربما طلبها وأدى ثمنها مقدما نيابة عن القائد. وفكرا في من يكون ثقة وحازما حتى يوصل المال الكثير إلى الوزير بحضرة فاس ويعود بالعدة من الدار البيضاء ويحتاط بحيث لا يشعر به أحد لا من جانب المخزن ولا من جانب قطاع الطرق من المتاجرين في مثل هذه السلع.

وبعد أن رتب همو وابن الزارة كيفية إرسال المبعوثين لقضاء ذلك الشغل المهم، التفت ابن الزارة إلى همو وقال :

– صهرك اليوم في الامتحان !

يقصد القائد ولد الشهباء الذي يمر السلطان بإيالته.

فقال همـــو : حبذا لو كان هناك من يأتينا بالأخبار !

فقال ابن الزارة : لقد أرسلت الهدهد ليأتي بالخبر.

قال همـــو : إذا سخرت كل من لنا حاجة بتسخيرهم من الناس صدقنا أنك تسخر الطير أيضا.

فقال ابن الزارة : لعلك نسيت زوجتك السالمة ومولودتها. ألم تتفرغ لهما الآن للمجيء بهما ؟

هنالك تذكر همو أن القائد ولد الشهباء أرسل إليه قبل شهرين يطلب منه أن يسمح للسالمة بالانتقال إلى بيت والديها وهي في شهر حملها الأخير ثم تذكر أنها وضعت بنتا قبل عشرين يوما وأنه وافقهم على تسمية تلك المولودة باسم نجمة.

أطرق همو برأسه كمن خجل أو أذنب وفكر في مشاغله وملاهيه وتعبه ونسيانه، ثم رفع رأسه وهو لم يعد يحس بأي شعور بالنقص أمام صهره ولا أمام زوجته. وقال لابن الزارة :

- ترحل أنت هذه الأيام وتحمل هدايا وملابس وتأتينا بالبنت وأمها ونقيم لها عقيقة أخرى، وما أظن أننا أفسدنا معهم شيئا نعتذر عنه.

أراد ابن الزارة أن ينفذ أمر مخدومه. وطاف على حوانيت سوق القصبة فلم يجد فيها شيئا يفي بالغرض، فذهب إلى مراكش وأجل سفره إلى دار أهل السالمة حتى أعد الهدايا اللائقة، ورحل بصحبته عونان وخادمتان، ولما وصل ووقع به الترحيب ووجد القائد ولد الشهباء في حفلات يتوالى فيها الليل والنهار، لأن السلطان جدد له الظهير وأهدى إليه مدفعا من صنع الألمان. وفكر ابن الزارة في أن ذلك الأمر سيغيظ مخدومه القائد همو.

ولما قابل ابن الزارة زوجة همو وبنتها نجمة وجد السالمة وكأنها لم تلد ولم تعتصر الأنفاس في المخاض، بل ظهر على وجهها بهاء وفتنة، وقد زاد شعرها طولا وقل وزنها وزادت رشاقتها في عينه النخاسية حتى إنه خاف أن يستيقظ فيه حسه القديم فيتمنى أن يعرضها للبيع على يد من يملكون كنوز الجواهر، وفجأة وجد النخاس نفسه يقدر لهذه المملوكة ثمنا ويتخيل لها مشتريا. وقال في نفسه : وعلى كل حال فصاحبي همو لا يملك ذلك الثمن، ثم

إنني من مخافة الله لم أبع إحداهن في الماضي إلا لمن يوفي كل حقوقها. وصاحبي لا يقدر أن يقوم بهذه العربية المكتملة ويقوم في نفس الوقت بمتطلبات قيادته. ولذلك كنت أخاف عليه منها وعوجته عن الانشغال بها، ترى هل يقدر عليها بعد أن يستكمل إخضاع أهل الجبال ويكثر لديه المال ويكون له في الحضرة من يذود عنه !؟

كان ابن الزارة يفكر في كل هذا وهو يشرب الشاي في دار السالمة ويأكل من أنواع الطعام والحلوى على مائدتها، والسالمة وأمها بين جيئة وذهاب منشغلتان معا بالوليدة الصغيرة نجمة. بنت القائد همو كما لو كان لسان حالهما يقول : هذه بنتنا وهي لا تحتاج إلى أحد. ثم قالت أم السالمة لابن الزارة : هل رأيت نجمتنا ؟ إنها لا تشبه قائدكم، وهذا من حسن الحظ، ولربما لو كان ولدا لأشبهه. لا خوف عليكم من البنت. المهم أنها جميلة كأمها.

ثم علقت السالمة على كلام أمها وقالت : إنها لا تهمهم.

فهم ابن الزارة أن السالمة محقة في عتابها، فهم لم يحضروا الميلاد ولا العقيقة لأنهم تشاغلوا بحكم أهل الجبال وبناء الرياض والاستعداد لزيارة السلطان، وقال :

– لا، لا، أبدا، إن القائد والدها لا ينام من شدة الشوق لنجمة وأمها، وأنا الآن هنا لنرحل إليه، فهو ينتظرنا.

فقالت له أم السالمة : إن ابنتي لن ترحل معك، وستعود إليكم بعد أن تكمل الأربعين يوما بعد الوضع. فهي في حاجة إلى معونتي في تدبير أمر نجمة، وهي في حاجة إلى الراحة والنوم أيضا والطقس هنا آلف من الطقس هناك.

أحس ابن الزارة أن المرأة تتكلم وكأن المدفع السلطاني في يدها.

وهي تقصد ما تقول ولا داعي لنكء الجراح. فقال :

– حبا وكرامة. المهم هو أن نأتي نحن لصحبتها من هنا وأن نعرف يوم وصولها لأخذ الاستعداد لاستقبالها على غاية رغبة القائد.

عاد ابن الزارة بخفي خفين وتنبأ بالنفرة الأبدية بين السالمة وهمو، ولم يستسلم للفكرة التي تراوده على أنه ضليع في فساد الأمور بين الزوجين، لأنه بخبرته يعلم أن مخدومه القائد كان لابد أن يتزوج امرأة مكتملة الجمال والنسب والحسب، يستحقها بمقامه وإن لم يكن يستحقها بشخصه. لأنه لا يستطيع أن يحكم إيالته ويحكم امرأة. وهو لا يملك عدة حكم امرأة كهذه. لا يستطيع أن يفتح حصونها المنيعة ولا أن يهزم جيوشها الجرارة حتى تستسلم. فالأمر لا حل له ولا حيلة تنفع فيه إلا حيلة الغيرة. الغيرة التي تنسي المرأة نقائص الرجل، لأنها تنشغل بكل ما يتيح لها أن تهزم أختها المرأة ولو بكثير من التضحيات.

أخبر ابن الزارة مخدومه بعد رجوعه بما كان من أمر زوجته وأهلها. وغضب همو لذلك وعدها إهانة مقصودة، لكنه اهتم أكثر بكون السلطان أعطى صهره مدفعا ولم يهتم بطلبه هو في الموضوع. ورأى أنه سيكون الخاسر في كل خصومة بينه وبين صهره لأنه لا يعرف أسرار كل صلاته بحاشية السلطان.

وعندما عادت السالمة وابنتها أظهر القائد همو الملاطفة والعناية، حتى إنه اعتذر صراحة للزوجة عن افتتانه بأشغال الحكم والخصومات مع أعدائه. أما هي فقد أظهرت تجاهه اللامبالاة وصبت اهتمامها على وليدتها الصغيرة. وتأكد لهمو مع مرور الأيام أنه لن يطمع في إصلاح ما فسد في نفس زوجته. بل أنه رأى ما يدل من جهتها على قلب ظهر المجن. حيث إنها

تركت في بيت والدها ذلك العبد الذي أتت به للعناية بتهيئ القائد كما تحب أن تراه.

وهكذا كانت السالة لا تضحك إلا في وجه ابنتها إذا كانت تلاعبها. وهي تظهر التعب في الليل والتأفف والانشغال في النهار. ولا تهتم من مشاغل الزوج بشيء. ولا تقبل صوت ذباب في حجرة نومها لكي لا يوقظ الصبية ويكسر نومها. حتى إنها قالت للقائد : إنك لا تستطيع أن تنام بعد هنا لأنك تزعج ابنتي. وأنا لا أرضى لابنتي أن تنام في حضن الخادمات والمرضعات. ولكن الذي أغضب الزوج وأحنقه هو أن السالة لم تواجهه يوما بقول لا كما لم تتعطف عليه بقول نعم. وهو الذي رأى منها يوما أنها تملك ما لا تملكه الأخريات.

وقع ذلك في أيام ظن فيها القائد أن أمره نافذ في كل شيء. وأن لا أحد يستطيع أن يفسد خاطره أو يتحداه أو يقاوم إغراء ما صار يمتلكه من الحكم والمال.

أحس ابن الزارة بورطة صاحبه مع زوجته التي يظهر أنها صممت على أن تهين القائد وتسخر منه. لما رأت أنه منشغل عنها. فأراد أن يحاول ما اعتاده من التخفيف عنه فقال له :

– لا عليك. ألم أقل لك إنني سأسوي الأمور. دعنا أولا نخرج الأسد الأخير من عرينه.

18

دخل همو على زوجته السالمة صباحا في غرفتها وكان هو قضى ليله في الرياض الجديدة، فوجدها ترضع وليدتها نجمة، وتأمل في وجه بنته الناضر، ونظر إلى ذلك الضرع النافر، فكادت ركبتاه تفشلان في حمله، وارتبك، ومد يده إلى جيب قميصه وأخرج سلسلة من الذهب جاء بها إليه الصياغ أمس، وهم بأن يعلقها في عنق نجمة وهي ما تزال منهمكة في رشف الحليب، فإذا الأم تحول بيدها دون أن تتكلم بينه وبين إزعاج البنت. واكتفى الأب بوضع السلسلة في طرف السرير وانصرف.

انصرف همو إلى ما هو أهم، وكان يترقب أن ينهي ابن الزارة في ذلك الصباح كل الاستعدادات لخروج المقاتلين "لأكل" الشيخ احماد نايت ابرايم. وكان الذين ذهبوا بعشرة قناطير من المال إلى الوزير بفاس قد عادوا بالسلعة من الدار البيضاء، وجربها من سيستعملوها في غابة هناك بإشراف مدرب نصراني من الدار التي باعت السلاح.

خرج ابن الزارة في تستر تام تحت طي الظلام على رأس خمسمائة مقاتل ومعلم وبغال لحمل المنهوب وحبال لربط المواشي التي سيعودون بها والأنعام. وبعد سير نهارين وليلة ونصف ليلة، عبر العقاب والجبال والوديان والشواهق. دخل الغزاة أرض مشيخة احماد نايت ابرايم. وزاد فيهم الحذر والخوف من الكمائن، وكان ابن الزارة قد اشترى من قبل ضمائر بعض إخوان الشيخ من أعيان وصعاليك. فكانوا تواعدوا مع حركة الغزو، فتلقوها في كل منعطف، وأخبروا بآخر ما يعلمونه من شئون الشيخ المطلوب وحراسته واستعداده. فاستفاد ابن الزارة من وشايتهم أن العدو خالي البال مما دبر له من الغزو المباغت. فتوقعوا

أن يجدو الشيخ بين أهله وسط كنوزه وماله مستغرقا في نوم منتصف الليل قبل قيام المهللين للفجر في صوامع قصبته. ومع ذلك فقد زاد الفرسان في التحوط حتى كادوا يخنقون أنفاس الخيل والبغال. وكانت الدواب نفسها قد أذعنت لقبضة اللجام المتوترة. وعرفت أن من كانوا على ظهورها لا يريدون منها أن تمس الأرض إلا مسا خفيفا. وكانت الحركة تتقدم بإيقاع تحكمه حتى نخسات المهامز وشدات اللجام. فكان الفرسان من شدة الخوف قد استقام الشعر في رؤوسهم وتلوت فيهم الأحشاء. وكانت الخيل تعاني عذاب الفرسان حتى إنها كانت تعض على حديد اللجام. وقد كادت تقطع منها الأشداق. حركة أخرست فيها رنات الأجراس والسلاسل. كلما تقدمت كوكبة الغزو كلما غلب ما تقف على ما تسير.

ولما دار العسكر في المنعطف الأخير ظهرت قصبة الشيخ احماد في رأس تل عال وسط الوادي. تحيط بها أجراف من كل جانب. وظلال أبراجها تكاد تركع أسفل التل تحت ضوء قمر لو سقط فيه إلى الأرض سمن الزيات لجمعه. وهنالك في مواجهة القصبة أشار ابن الزارة بالوقوف. لأن الخيل قد استقامت آذانها علامة على القرب من شيء مخيف. وأكثر ما تفعل ذلك عند وجود عدو مختبئ. وزاد من توجس المقاتلين أن نافذة غرفة كل برج في القصبة بها ضوء يبدو خافتا وراء خشب مخرم. يمر أمام كل نافذة طيف شخص واحد ثم يعود.

لم يسبق لابن الزارة ولا لمعظم المجيشين معه أن رأوا هذا الحصن ولا حصنا مشابها له في الكبر والمنعة. يكاد يمتد على سعة مدينة صغيرة. يعلو كل ركن منه برج سامق يضيق كلما ارتفع. وسطح الأبراج والسطوح التي بينها محاطة بجدران مقطعة حوافها بشرفات مفتوحة من الأعلى تصلح للرماة. وكلما أضعف

ضوء الفجر المقترب كثافة إزار الظلام كشر الحصن عن أنيابه أمام الغزاة. حتى تراءى لبعضهم أنه الموت الزؤام. إذ لا يقدر أحد أن يصعد إلى ذلك التل وهو يهاجم. وتيقن ابن الزارة نفسه أن الشيخ المطلوب أسد في عرين حقا. فلا يؤدي لداره سوى طريق واحد من الجرف الخلفي. ولا يربط التل الذي عليه الحصن بالجبال المجاورة سوى قنطرة عليها حنايا تحمل قواديس المياه من عين في الجبل. وقد علم ابن الزارة أن لا فائدة في كسر تلك الحنايا وإبطال الساقية لأن بالحصن نطافي يكفي ما بها من الماء لأعوام عديدة.

وزع ابن الزارة مقاتليه مائة من كل جهة تسد الطرق المؤية إلى الوادي وإلى البساتين. وعندما تكشف كل شيء بضوء الصباح الباكر أمر ابن الزارة عشرة فرسان من المائة التي لم يعين لها مكانا ليتقدموا في اتجاه الحصن كما لو كانوا زائرين على العادة. ولكن هؤلاء سرعان ما عادوا لأنهم وصلوا تحت باب الحصن في الطريق المتعرجة من جهة طريق الدخول ولا أحد قطع عليهم الطريق. وتيقنوا أنها خدعة. فخافوا وقالوا إن الذي سيستفز المتحصنين ويبين جلية أمرهم هو الضرب بالرصاص من بعيد ومن جميع الجهات. وأذعن ابن الزارة لرأيهم وأمر بالضرب. ولكنهم وبعد ساعة من الضرب. والشمس قد أشرقت على قمم الجبال. لم يتبين أنهم نالوا شيئا بضربهم لا من الأبواب ولا من النوافذ ولا من الحيطان. وكل شيء في القصبة أهدأ من تلك الجبال. والحصن كأنه عمران مهجور. ولا أحد جاء إليه أو خرج منه لشغل في البساتين أو لرعي ماشية.

قلق ابن الزارة لذلك الموقف لأنه كان يتوقع أن يجد إخوان الشيخ يعترضون طريق تقدمه فيشتت شملهم بما حسب أنه قوة ضاربة في يده. لا يملك الشيخ مثيلها من العدة والشجاعة والنفر

لأن رجالها من خيار رماة القبائل ومن عصابة شذاذ الآفاق الذين يبيعون قدرتهم على القتال.

اختار ابن الزارة عشرة من هؤلاء وأمرهم أن يصعدوا إلى الحصن من طريقه العادية ولا يتراجعوا حتى يقتحموا الباب. وإن واجهوا كثرة فروا ورجعوا بالخبر اليقين. ثم أرسل إلى المرتفعات المطلة على جهة باب الحصن نفرا ليرصدوا ما سيقع عندما يقترب الفرسان العشرة من مدخل الحصن.

ذهب الفرسان العشرة وتقدموا إلى أن وصلوا إلى الحصن فوجدوا الباب مردودا غير مغلق، ولا صوت يدل على حركة في الداخل. فرأى الذين كانوا يرصدون بنظارات الهند أن الفرسان دخلوا ثم رأوا أن الباب قد أغلقت من ورائهم دون أن يتبينوا من جاء يغلقها.

عاد المترصدون وأخبروا ابن الزارة بما رأوا. وانتظر عودة الفرسان العشرة ولكنهم لم يعودوا. فتيقن أن الحصن عامر بالمقاتلين وأن خبر حملته كان معروفا وفهم أن العيون تراقب حركات جنده وسكناتهم وأن الأمر قد يستمر على تلك الحال لعدة أيام وأن الغنيمة لن تنال بسهولة، وزاد قلقه بذلك وهو الداهية الماكر الرزين.

وعند نهاية وقت الضحى. أقيمت لابن الزارة ومقربيه خيمة تحت شجرة جوز. فاستراح بها وأفطر. وأمر الآخرين أن ينزلوا من على ظهور الخيل والبغال ويستريحوا ويوردوا بهائمهم ويعلفوها.

وعند الظهر أمر عشرين فارسا من كل مائة بأن يصعدوا إلى الحصن ويهاجموا متدافعين حتى تتبين قدرة من بداخله على القتال. وتقدموا على مقتضى أوامره متتابعين في الطريق التي تحاذي أقل الأجراف وعورة. ولما وصلوا فاجأهم مقاتلون من أعلى

شرفات الحصن بالضرب بالرصاص. بادئين بالتسديد إلى من في مؤخرة المهاجمين. فكانت كل رصاصة تطلق من الحصن تصيب فارسا فترديه قتيلا. وإذا أصابت الفرس سقط وذهب بصاحبه في هاوية سحيقة. ولما أراد من كان من المقاتلين في المقدمة أن يتراجعوا فرارا تدافعوا مع من كانوا يلونهم فاختلط الحابل بالنابل وسهل الإجهاز عليهم فلم يمض سوى وقت قصير حتى هلك الفرسان ولم ينج منهم بأعجوبة سوى ثلة يعدون على رؤوس الأصابع.

ولما رأى ابن الزارة ما رأى ارتاع وانتفخت أوداجه وتعصر كبده في بطنه حتى اختلطت أحماضه بزبد فمه وهو يصرخ ويسب ويلعن ويتوعد. ولما تحقق من جاءوا معه للقتال بما وقع تسلل عدد منهم في ثنايا تلك الشعاب وعادوا أدراجهم إلى قبائلهم. وتعقبهم المقربون من عساكر ابن الزارة فردوا بعضهم وقتلوا بعضا آخرين.

وقرر ابن الزارة أن يقوم بعسكره من ذلك المكان حتى لا يدركه الليل. وهو لا يأمن بعدما رأى أنه لا يستبعد أن يخرج إليه من بين الحجارة من أصحاب الشيخ أيت ابرايم من يبيد رجاله عن آخرهم. وتراجع بضعة أميال حتى تحصن بين الجبال في مكان لا يباغت فيه. ونصب خيامه وجلس يضرب أخماسا في أسداس. يبحث عن الحيلة التي يحقق بها المراد. ويتجنب بها عار الهزيمة الذي يعرض للخراب كل ما بناه القائد همو بإشارته هو.

وعند العشاء برقت في ذهنه فكرة شيطانية مًا. وطلب إحضار خمسة فرسان من ثلاثة قبائل مجاورة وأرسلهم في مهمة لم يطلع على جليتها أحد. وأمرهم أن يرجعوا بالمرغوب قبل شروق شمس الغد.

ولما وصل المبعوثون بما طلب أمر بقيام نصف عدد رجاله. وتقدم بهم إلى أن توسط الوادي الذي يطل عليه حصن الشيخ احماد وسط بساتين بها أنواع أشجار الثمار. وهنالك وزع على العساكر ما في الأحمال التي جاء بها المبعوثون. وهي المناشير الطويلة العريضة التي تصلح لقطع أشجار الجوز التي عمرها عشرات السنين وأشجار اللوز الرائقة. فعين لهم أشجارا سامقة من التي تثمر. فبدأوا بقطعها وأخذت تهوي إلى الأرض. ثم أخذوا في قطع أشجار الجوز ذات العروق العريقة والجذوع التي لا تلفها سوى أذرع عصبة كاملة.

رأى ولدا الشيخ ابرايم من مكان من قصبتهما ما لم يخطر ببالهما. وعرفا أنه إبليس الذي لا يغلب حل بساحتهم. يقطع الأشجار ويفتت بقطعها أكباد هؤلاء الذين قضوا في سقيها وتعهدها السنين الطوال. والذين ورثوها فبجلوها كما يبجلون الأجداد. وهنالك أمر الولدان أصحابهما على الفور برفع الأعلام البيضاء علامة الخضوع والاستسلام.

رأى ابن الزارة أعلام الاستسلام فقفز طربا لنجاح حيلته. وتجمع حوله مقاتلوه يهنئونه وإن كان بعضهم قد ظنها من داهية رأس الوادي مجرد حيلة، وتوقع الشر في شكل غير معهود.

أرسل ابن الزارة عشرة من الفرسان ليأتوا بصاحب الحصن الشيخ احماد. إلا أن الشيخ لم يكن هناك. فقد رحل مع العيال عندما علم أن المقاتلين خرجوا إليه من قصبة القائد. وكان رصد العيون لذلك. وإنما ترك ابنيه ليدافعا عن داره. وهو عالم أن الحصن لن يسقط بسهولة. وكان يعلم أن ابنيه يعرفان كيف يفاوضان على الاستسلام إن كان ليس منه بد. وهكذا خرج الولدان مع أصحاب ابن الزارة. والابنان هما عبد الله والحسين، وهما في أواخر أيام الشباب. رجلان وسيمان معتدان. كبرا في نخوة المجد

وكبرياء من لا يستغنون عن الفروسية وأنفة ذوي اليد العليا ممن توارثوا الاعتقاد بفعل الوقار في النفوس التي يراد جلب محبتها. ولما وصلا عند ابن الزارة تقدم الولد الأكبر وهو الحسين فسلم عليه وقدم إليه نسخة من ظهير والد سلطان الوقت. وفيه أمر العمال بعدم تعدي المعروف على الشيخ وأسرته، وقال :

– والدي الشيخ لا يمانع في خدمة الشريف، وقد حرمتمونا من رؤيته عندما مر بكم في هذه الأيام. ونحن نحمل ظهير والده ونطمع في أن يجدده لنا. نعطيكم الأموال، ولكننا لا نقبل أن لا تفضحوا أحدا من رجالنا. والوالد يقبل أن نذهب معكم رهينة حتى تسوى الأمور بيننا. ولنا في مراكش تجار سيبلغون سيدنا الشريف إذا لم تقبلوا معنا السلم على المعروف.

أظهر ابن الزارة بعض الغلظة في الرد على جواب ولد الشيخ لكي يبين انتصار جنوده ويرضي عجرفة القائد إذا تسامع الناس بما أسفرت عنه حملته لأكل الشيخ احماد. ولكنه بحصافته أدرك أن الغرض هو أن يحقق استسلام الشيخ لصاحبه القائد وأن يحصل على طاعة أعوانه الظاهرة، دون أن يقع في ما يوجب بلوغ الخبر إلى السلطان.

أمر بوضع القيد في رجلي ابني الشيخ، وذهب مع خمسين من المقاتلين دون أسلحة إلى الحصن. ولم يكن الشيخ احماد هنالك ولم يكن في الحصن امرأة ولا عجوز ولا صبي، وإنما رحل جميعهم إلى واحة بعيدة بمسيرة يومين، تقع في الطرف الصحراوي لشيخة الشيخ احماد وتسمى واحة الحناء. أما المقاتلون الذين كانوا في الحصن إلى حين خروج ابني الشيخ، فقد أكلتهم الأرض، نزلوا في مطامير لها متنفسات على واجهات الأجراف التي عليها الحصن، ولم يكن يعلم بتلك المطامير أحد، إلى أن جاء وقت اللجوء إليها في تلك الساعة فدلهم عليها عبدان من أصحاب الشيخ وتوليا الردم

على أبوابها بعد الإغلاق. ولما لم يجد لهم أصحاب ابن الزارة أثرا حسبوهم فروا بين وقت خروج ابني الشيخ اللذين صالحا على ألا يخرج معهما أحد حتى يلقيا صاحب القائد.

غضب ابن الزارة لكونه لن يعود بسلسلة طويلة في أعناق عشرات الأسرى المتعثرين يمكن تشغيلهم أعواما طوالا في ما يستقبل من بناءات القائد. ولكنه ألح على ابني الشيخ حتى علم أن في المسارح والعزبات القريبة مواشيهم فأرسل من يقتادها ويوصلها بعده. وأرسل فرسانا آخرين ليدخلوا دار الشيخ ويضعوا في أحمالهم كل ما يجدون فيها من آنية الفضة والنحاس ومخزونات الميرة والطعام.

أزعج ابن الزارة من يوصل الخبر بالفتح إلى القائد وبأنه قادم بولدي الشيخ رهينتين. حل القيد من أرجل الأسيرين ووضعه في الأيدي، وأركبهما وسارا خلفه محروسين وشدد الحراسة حوله، وأخذ طريق الرجوع عبر مسارب غير معتادة خوفا من الكمائن. وزاد في الاحتياط بأن أركب وراء كل واحد من الأسيرين عبدا سيذبحه لو تعرض الركب لهجوم غادر من أصحاب الشيخ احماد.

أوشك ابن الزارة أن يخرج من أرض مشيخة احماد نايت ابرايم عندما خطر له أن يعوج على بعض القرى من هذه المشيخة ويخرج من كان حاضرا بها من الشبان والكهول ليقتادهم أسرى كما لو كانوا شاركوا في القتال ضده إلى جانب شيخهم المهزوم. ولما كان على مشارف قصبة القائد أمر بإنزال ولدي الشيخ احماد ووضع عنقيهما في سلسلة مشتركة. وكان القائد بعدما وصله الإعلام بانتصار جيشه قد أعلم جيرانه وسكان القرى المجاورة أن يخرجوا ليروا دخول جيشه الظافر وكيف أذل العصاة المتنطعين.

وبعد أن أدخل الأسرى إلى السجن، وعلى رأسهم ولدا الشيخ احماد، استضاف القائد ثلاثة أيام أولئك المقاتلين الذين عادوا مع

ابن الزارة وأرسل إلى شيوخ القبائل وأعيانها، وحضروا أيام تلك البهجة، وفي تلك المدة وصل الذين جاءوا بالغنائم فخرج الحاضرون هناك ورأوا آلاف الأغنام والأبقار تقام لها الزرائب خارج قصبة القائد وضاق بها الفضاء. كما رأوا عشرات البغال تحمل أكياسا من الغنائم بها مختلف الأمتعة والآنية وما خف أو ثقل من كل نفيس ونافع.

انصرف المقاتلون المعبأون من القبائل وانصرف الذين جندوا بالكراء وانصرف الأضياف، ورجع القائد إلى صاحبه يشاوره في ما ينبغي أن يعمل بالأسيرين، ولدي الشيخ. واتفقا على أن الفتك بهما غير ممكن لأنهما استظهرا بظهير والد سيدنا السلطان. واتفق القائد ومستشاره على أن المهم هو إرغام أنف الشيخ احماد وإجباره على تخصيص نصيب من موارد بلده للقائد وإدامة طاعته على ذلك. وقال القائد : ومن يضمن لنا أن يدوم على الطاعة بعد أن نسرح ولديه ؟

فأجاب ابن الزارة : أنا أضمن لك ذلك. وقد كنت وعدتك بشيء حان الآن وقته وحل ظرفه.

وقال القائد : وما ذاك ؟

قال ابن الزارة : أن أزوجك امرأة تغار منها العربية التي صارت لا تأبه بك. فللشيخ احماد بنت في سن الزواج، في جمال اللؤلؤ ونفاسة المرجان، ولا تنس أنني كنت نخاسا في بداية حرفتي أعرف مقادير النساء من وصفهن. تتزوجها وتضرب عصفورين بحجر. تثير بها غيرة زوجتك بنت ولد الشهباء، وتكون عندك بمثابة الرهينة التي بها تضمن طاعة والدها الشيخ احماد. فهو يحبها حبا شديدا.

19

عرض القائد على زوجته السالمة أن تكون في النافذة تنظر إلى المقاتلين وهم عائدون بالأسرى، فأبت. وعرض عليها ابن الزارة أن تختار ما يليق بها من الآنية والحلي التي سلبت من دار الشيخ احماد فرفضت، ولكن خادمتها التي رأت تلك الآنية وتلك الحلي عادت إليها وهي لا تتمالك أنفاسها من التعجب، وهي تقول :

– سيدتي، إن ما جاءوا به لا يمتلكه حتى كبار القواد. وقد جردوا نساءه المسكينات من حلي لم نر له مثيلا حتى عندنا في دار مولاي والدك !

لم تقاوم السالمة فضولا دفعها لترى حلي النساء لأنها تعشق الحلي ولأنها تعتبره علامة على أذواقهن وشخصياتهن، والخادمة قد هولت لها الأمر، وهي كانت تظن أن من في تلك الجبال لا يلبسون إلا الخشن من كل شيء. فذهبت لترى تلك المنهوبات. وهنالك في المخزن وجدت خمسة صناديق صغيرة من الحلي، أخذت تلعب فيها وتتعجب من بديع الصنعة حتى وقعت فيها على قلادة لا تحملها في العادة إلا الشابات اليافعات.

ألهب منظر الحلي خيال السالمة وبدأت تتساءل عن عدد النسوة اللائي ملكن هذه المصوغات، وكيف انتزعت منهن، وماذا يكون الغزاة قد فعلوا بهن، وكيف الآن حال أم الرجلين الأسيرين في سجن القائد. وكيف حال الزوجات والبنات والأخوات ! ولكن الذي أثارها على الخصوص هو جمال تلك القلادة، فهي تعرف من تلك الحلي ما هو للجدات وما هو للأمهات وما هو للبنات، فإن كانت القلادة من قديم حلي زوجة الشيخ في عهد عزوبتها فإن هذه المرأة هي بالقطع من دار مجد ورفاه وذوق. وإن كانت لهذه الأم بنات فلا شك أنهن على مثل حالها من النعمة.

عادت السالمة بالقلادة إلى غرفتها وإن كرهت أن تمس منهوبا وهي لا تنوي أن تلبسها ولكنها تريد أن تقضي منها منتهى إعجابها. فإذا بها سلسلة عجيبة التشبيك والتخريم وفي رأسها عنبرة من الفضة أيضا. وفي محل شدها وراء العنق قفل على هيئة رأس سلحفاة لدرء شر الشياطين. وعلى فرض أن السلسلة تدور مرتين بالعنق قبل أن تهوى على الصدر لتنتهي العنبرة حيث ينبغي أن تنتهي من الصدر، فإن صاحبة القلادة تكون ولا شك في مثل قامة السالمة طولا. وما كانت تظن السالمة أن في بنات الجبال من تكون فارهة القامة دون إفراط مثلها. ولكنها تأملت في حجم العنبرة ففهمت أن صاحبة السلسلة لا بد أن تكون أقل منها ثخانة وسمنة وإن كانت هي نفسها من هيافتها تعيرها أمها بأنها تشبه عروسة القصب. ولما نظرت إلى الزمردة التي في رأس العنبرة الفضية تخيلت أنها لا تواتي إلا ألوانا من الثوب الفاخر في الملابس تفضلها ذوات البشرة البيضاء الصافية.

تحيرت السالمة في ما جرها إليه فضولها من التكهن، لكنها وجدت متعة في تلك اللعبة، لعبة الخيال، وسرعان ما عاد إليها شعور الشقاوة بالتفكر في نسوة دار الشيخ المغلوب. وما يكون مر بهن من المحنة عند اقتحام رجال القائد لحرمتهن، هكذا تصورت، لأن العائدين حكوا بوصية من ابن الزارة أفاعيلهم المكذوبة في غزو دار الشيخ احماد، على غير ما وقع بالفعل. ولذلك تمنت لو أنها سافرت إلى هناك بأجنحة طير مبارك لتحط فوق سور ذلك البيت وتواسي المكلومات وتتحقق على الخصوص مما إذا كانت معرفتها بأمور الزينة المواتية قد هدتها بالفعل إلى مواصفات المرأة صاحبة القلادة، بل إن هذه المرأة قد صارت في ذهنها حقيقة واقعة حتى إنها تمنت لو لقيتها في الحين، فهي تعيش في وحدة مع وليدتها، وما أحوجها إلى صداقة امرأة نبيلة.

في الوقت الذي كانت فيه السالمة تداعب هذه التخيلات، كان الطالب الذي يكتب رسائل القائد همو يعيد على مسمعه بحضور ابن الزارة الرسالة التي أمره أن يكتبها إلى الشيخ احماد نايت ابرايم، وجاء فيها :

" محبنا الشيخ احماد نايت ابرايم، السلام عليكم، وبعد، في بالنا أن وقت العصيان الذي أظهرت قد فات، والآن هداك ا لله إلى الصراط المستقيم، وما كنا نريد لك المحنة، ولكنك أبيت أن تستعين بنا على الزمان من يوم تقلدنا أمر الخدمة المخزنية. وها نحن ما زلنا نترجى معك الخير، بل أردناك تكون منا ونكون منك. وها هو ولدك الأكبر أشفقنا عليه فأخرجناه من قبر الأحياء، لأننا نرعى ذمة الدم الذي نسعى إلى أن يكون لنا معك، فنحن نريد أن تصهر لنا بابنتك التي اسمها كيما[1] تكون زوجة لنا على الكتاب والسنة. ولا شك تفهم مقصودنا من الخير، نريدك تعمر دارك ويكون لك عندنا سهم وحظ. ونحسم الأمر، والعرس يكون إن شاء ا لله بتمام الشهر، فمثلك يربي الريش في أقرب وقت، فعد إلى دارك، ونريد يعود لنا بالجواب ولدك ويبقى هنا إلى وقت العرس، وبعودته يخرج من عندنا ولدك الثاني ليعينك على أمور الزمان. وعلى المحبة والسلام."

وبعد مسير يومين وليلتين وصل ولد الشيخ إلى أبيه بالرسالة ووجده وهو في واحة الحناء، وأخبره بكل ما وقع، وقرأ عليه الرسالة مرتين. وسكت الشيخ إلى أن زفر زفرة قوية، وقال : إنا لله وإنا إليه راجعون، ثم خرج إلى المسجد وأطرق هناك ينتظر صلاة الظهر، وبكى في إطراقه بدموع خضبت لحيته وسقطت على حجره ولم يبك في حياة شبابه وكهولته قط. بكى لأنه يحب ابنته

---

[1] كيما، اسم شائع عند قبائل الأطلس الكبير.

كيما ويعرف أنها الجوهرة الفريدة كياسة وتقوى ورقة. والخبر الذي عند الشيخ احماد أن القائد همو، وهو طارئ على المعالي، بسيط الفكرة. يستفزه الذباب، وكل همه في الغزو. لذلك فالشيخ احماد يخاف منه على ابنته، بل لا يرضاه لها، ولكنه لا يأمن أن يفتك بابنه الأصغر الذي بقي في السجن إن هو رد خطبته التي هي في الحقيقة عرض لاستبدال رهينة برهينة. ثم إن السلطان الشريف قد مر منذ أيام قليلة في زيارة قصبة همو، وقدم إليه القائد مشتكين مزورين على أنهم من مشيخته يستنكرون عصيانه، والعصيان لا يحبه السلطان. فكر الشيخ احماد في كل هذه الأمور وقرأ العواقب وقال مرة أخرى وكررها : إنا لله وإنا إليه راجعون.

عاد الشيخ من المسجد وجلس إلى ابنه ليسمع منه ما يرى في طلب القائد، لكن الابن سكت ولم يجد جوابا. وأعفاه الوالد، ثم ذهب إلى زوجته وأخبرها، وكانت قد علمت من الولد من قبل، فقالت :

– كان يطلب مالنا وكنا نقدر عليه، والآن يطلب دمنا ولحمنا. ليته طلب أن نخرج له عن كل شيء ونسيح في البلدان، ابنتي كيما لن تطيق هذا الزواج، إلا إذا قلتم لها أن تفدي أخاها، وهل همو جاد يريد الزواج أم يريد الانتقام !

كلف الوالد ابنه أن يحدث أخته كيما ويشرح لها الموضوع، وكان جوابها كما توقعت الأم، إنها مستعدة لتفدي أخاها، سجينا بسجين. وكانت الأيام الموالية محاولات من الأم للتمويه على البنت وإقناعها بأن الأمر يتعلق بزواج، كأي زواج بين الأعيان، كأن أمر الخصومة بين القائد والشيخ صار من خبر كان. لكن كيما التي تشربت كل نسك أهلها في مواجهة الأقدار قد أنهت الأمر مع نفسها بالإذعان من جهة واليأس من جهة أخرى.

سكتوا عن الموضوع جميعهم يتجرعون مرارته، وكان أول من عاد إليه هي الأم عندما أرادت أن تخرج الأب من الصمت وتفاتحه في ما يهمها، حيث قالت له :

– أما وقد أجبت القائد بقبول مصاهرته فلا بد أن يترك لنا أجلا حتى نأخذ للعرس عدته. لكن الشيخ أجابها غاضبا :

– سأضعها في جهة من تليس وأضع في جهته الأخرى تمرا وحناء وأرسلها إليه دون علمك حتى تبكي أنت على ما يهمك من رقص العرس وزغاريده.

وقع العرس في حدود الأجل الذي حدده القائد، وحتى وإن لم ينفذ الشيخ تهديده للأم بعدم إقامة العرس أصلا، فإن هذا العرس قد اختزل اختزالا حتى إن أهل كيما تظاهروا بالفرح وهم ومن واساهم من أهل المشيخة أخرجوا البنت بنحيب مثل نحيب عزاء الميت.

أما القائد فقد أقام بعكس أهل عروسه عرسا فاخرا أصر على أن يحضره كل أهل العروس ما عدا والدها الذي أشفق عليه من مشقة الطريق، وكاد جميعهم يعودون وهم مقتنعون أنهم غلطوا في مشاعر إساءة الظن بالقائد. وقد قالوا إنه أراد بهذا الزواج أن يستديم ولاء الشيخ، ولكنه في نفس الوقت أظهر أنه قد هام بكيما بعدما قيل له عنها ما قيل من المحامد والصفات. غير أن الأم بعد أن تأكدت أن بنتها هي رابعة زوجة للقائد دون المطلقات المحتفظ بهن في حريمه قد اكتأبت وعاد إليها الخوف على بنتها من الضرات، ولا سيما من بنت قائد السهل التي لم يظهر لها أثر أيام العرس الثلاثة التي قضتها الأم بصحبة بنتها، ولذلك أكدت على أمور كثيرة ينبغي أن تنتبه لها الأمتان اللتان أعطتهما لكيما ضمن جهازها، واحدة مسنة في عمر الأم وأخرى في عمر البنت.

دخلت كيما دار القائد همو ودهش العريس لفتنة عروسته، إذ لم يكن يتوقع أن الجبلية ستتفوق على زوجته بنت قائد السهل حتى في القد والقوام، ولكن السالة كانت أكثر اندهاشا منه عندما رأت ضرتها الجديدة، فهي لم تعلم بتدبير هذا الزواج إلا يومين قبل وصول كيما، وذلك عندما تجسست خادمتاها على ما كان يجري من التهيئ للعرس في الرياض المجاورة. وقد شعرت السالة لما تأكدت من حقيقة الأمر وكأن سفودا يغرس في أحشائها. وانعزلت في غرفتها ساعة وهي تبكي على مصيرها. وفكرت في سعادة أمها التي لم تأت عليها ضرة ولا يخطر أن يفكر والدها في اتخاذ ضرة لوالدتها. فسبت الجبليين، ثم فكرت في أنها تظلمهم لأنهم في الحقيقة لا يفعلون شيئا من ذلك إلا المتأثرون منهم ببعض عادات المدن، ثم استعادت بعض راحة أعصابها فأرضعت وليدتها. ثم قطعت عنها الرضاعة لأنها فكرت أن حليبها في تلك الآونة مليء بالغضب. وسيتسبب لها في الوجع ليلا ويحرمها من النوم ويذهب بنضارة وجهها. وتأملت وقالت في نفسها : الواقع أن لا داعي للغضب. فالمرأة التي سيأتي بها همو ليضيفها إلى الأخريات هي في الحقيقة أسيرة وليست عروسا. دخلت بمثل الشروط التي دخلت بها هي. إرضاء مصلحة الأب قبل كل شيء. فهي مظلومة ولا يحق لها أن تحنق عليها. أما همو فلم يعد منذ مدة يستحق حتى أن تحنق عليه. فهو مشغول بغزواته وبالبحث عن الشأن العظيم بين القواد. ولكن هيهات. فهي التي تعرف أصول هذا الشأن في دار والدها تستبعد أن يدرك منه همو ما يريد في يوم من الأيام. والدليل على ذلك هو أن السلطان أعطى لوالدها مدفعا ولم يعط القائد همو مدفعا. والسلطان لا يعطي ولا يمنع بلا موجب. ومر في ذهن السالة أنها هي نفسها قبلت أن تأتي ضرة

على أخريين. فهي اليوم لا تعاني إلا من مثل ما تسببت فيه لغيرها، ولكنها رفضت لنفسها هذا الاتهام، لأن الأخريين سابقتان عن عهد همو في القيادة ولا تصلحان له بنسب ولا بحسب. وليستا ندتين لها حتى تتحمل معرتهما، فهما كمجرد خادمتين راضيتين بمصيرهما. أما هي فلا ترضى أن يسمع عنها ما جرى ولا سيما عند أهل قبائل قيادة والدها. فذلك سبة لوالدها في عرفهم، ثم ساورها شعور خبيث في إرادة الانتقام من أبيها وهي تكن له الحب الشديد، فإذا لاكته الألسن اليوم عند أهله فلأنه يستحق أن تلوكه الألسن. حيث أرغمها على الزواج. وحيث استغل حبها له ليدفع بها في مصير لم يضرب له ألف حساب.

عاودت السالمة كل هذه الهواجس وغيرها طيلة اليومين السابقين عن العرس. وحاولت أن تقرر في عزمها إذا كانت ستمضي في فكرة الانتقام من همو أو عروسته أو منهما معا. وفكرت حتى في أن تتنازل عن كبريائها ونخوتها وتتنافس مع الأخرى وهي متأكدة أنها ستفوز في الحرب. ولكنها كرهت هذه الفكرة لأنها تذكرت صخب همو وشخيره وعنفه وبعض روائحه. وتذكرت انصياعه لابن الزارة. هذا الشيطان الذي أصبح عدو القبائل كلها. ثم قررت أن تنتظر، ولكنها شعرت بالخوف وعرفت أن غرائزها، وهي التي نشأت في النخوة والدلال، هي جانبها الضعيف، تمنعها حتى من أن تتكلم معه في الموضوع أو أن تصفعه أو تبصق في وجهه أو تطلب منه أن يرسلها إلى دار والدها. وهي حديثة العهد بالرجوع. ثم عاودها الخوف مما ستعيشه ليلة وصول العروس الجبلية، فهي لن توقد شمعة في جهتها التي تسكنها، وستلوذ بوليدتها وتتسلى بملق خادمتيها. وترفض أن تأكل مما سيقدم إليها. ولكنها لا تريد أن تسمع ما لابدّ أن تسمعه

ولو نزلت في بئر عميقة، صرخات الغيرة في باطنها. وهي لا تريد أن تتخيل ما ستتخيله حتى ولو غابت عن وعيها بمعجون تهيئه لها الخادمة. وقائع الزفاف. بل إنها لا تريد أن تغيب عن بنتها، وهي في الحقيقة كل دنياها، فلماذا هذه المتاهة في الأوهام ؟

20

مرت الأيام الثلاثة الأولى من وصول كيما إلى دار همو والسالمة تعيش حالة ذهول. لكنها. وبينما كانت تتخير من بين حليها أقراطا. تذكرت القلادة التي جاءت في ما نهب من دار كيما. وبحثت عنها حتى وجدتها. وتأملتها من جديد. وأرادت أن تقف على حقيقة تكهناتها بشأنها. ما إذا كانت بالتحقيق قلادة كيما أو قلادة أمها وما إذا كانت كيما على ما تصورت من النظر إلى القلادة. فإن غمتها ستخف كثيرا لأن ندتها ستكون من مقامها في الجمال أو الذوق أو تكون تقارب ذلك المقام. وللوقوف بلا تصبر على جلية هذا الأمر أمرت السالمة خادمتيها اللتين من دار أمها أن تسعيا بكل الوسائل حتى تريا العروس وتأتيا إليها بأوصافها. وأن تدبرا لها. إن أمكن. حيلة لتراها بأم عينيها قبل اليوم السابع للعروس حيث ستجلى لكل من في الدار وتلبس الحزام وتضع يدها في بداية الشغل بفتل الكسكسون.

وفي وقت العصر. من الغد كان جميع من في الدار من الرجال قد خرجوا للفرجة في ميدان الفروسية الذي تطل عليه رياض القصبة. وكانت النساء بمن فيهن الإماء والخدم قد صعدن إلى القباب وتكدسن في الشرفات ذات الشبابيك لتتبع سربات الفرسان. إذ ذاك تسللت خادمتا السالمة إلى الجناح الذي به بيت العروس من الرياض الجديدة واقتربت بتلكؤ شديد من شرف غرفة الرقاد. فإذا بهما تفاجئان العروس وخادمتيها في وضع لم يكن يتوقعنه أبدا. ذلك أنهن كن في الصلاة. صلاة بطيئة كصلاة شيوخ الرجال. ورأين امرأة حسبنها ملكا. وذهلن من بهائها وجلالها الفاتن. نضارة شابة كعاب تفجرت في وجهها البادي فتنة أنوثة

خيالية تسلب منها اللحاظ والرموش ونصاعة الغرة ويستر منها المنديل الحريري الأسود شعرا يتدلى على نصف قامة المرأة.

عادتا لسيدتهما مرتبكتين وأنفاسهما مضطربة ولعابهما يسيل وحيرتهما شديدة. كما لو كان عليهما أن تعودا بخبر مخالف يفرح سيدتهما. وكما لو كان مما رأتاه ما يدخل على قلبها النكد. وبعد تردد وكلام متقطع فهمت سيدتهما حالهما وقالت : أفصحا ! أنا لا أريد أن تكون ضرتي هذه معيبة في شيء وإلا سقط مقامي عند الناس، أريدها ندة لي في الجمال والأنفة والبهاء وكل شيء. هل وجدتماها قردة عرجاء من الجبل جاء بها همو ليجرح كرامتي أو ليرد على إهمالي له وإعراضي عنه ؟ أفصحا !

إذ ذاك زال عن الخادمتين ارتباكهما وانطلقتا تصفان العروس وبهاءها في البذلة البيضاء وفي الركوع والسجود. وكيف أن قوامها هو قوام مولاتهما وكيف أنها لا تفوقها في شيء ولكنها لا تزري بها في شيء.

فقالت السالمة : لقد بردتما حرقتي وأطفأتما جمرة غيرتي. فامرأة بهذا الجمال لا تغار منها امرأة في جمالي. فالغيرة بين نساء شاكات في جمالهن وغير متذوقات للجمال إذا بدا في غيرهن ليقدرنه كما ينبغي. إنني سأحبها. وأنا في حاجة إليها. فكل ما في هذه الدار قبيح وسمج مقزز. سأحبها. وسأصلي كما تصلي. لأن أمي ذكرت لي أنها بدأت المداومة على صلاتها منذ يوم ولدت لها و أكملت الأربعين يوما في حياتي. نذرت ألا تقطع الصلاة. وذلك شكرا لله وحتى أحفظ أنا من العين. حتى أكبر وأنا أراها تصلي مرات كل يوم. إنني شديدة الشفقة على هذه المسكينة. وستحتاج إلى سندي لتواجه قلة عرفان همو ومكائد صاحبه ابن الزارة.

تعجبت الخادمتان وكانتا تستعدان لمؤازرة سيدتهما في الحرب ضد هذه الجبلية الدخيلة. لكن مولاتهما قد قلبت لهما ظهر المجن بعد كل ما أبدينه في الأيام الأخيرة من مواساتها وإبداء ما خلنه يخفف من تعاستها.

وفي ظهر اليوم السابع أقيم الحفل المسمى بحفل شد حزام العروس. ولم تفرط العجائز من النساء في عادة البلد في هذه المناسبة. إذ أن جلوس العروس أمام القصعة لفتل الكسكسون علامة على بداية ممارستها لأعمال ربة البيت ولابد أن يسبقه طقس السلام على الزوجة الأولى. والزوجة الأسبق هنا هي السالمة، ابنة قائد السهل.

علمت السالمة من العجائز القائمات على إبراز العروس ما تقتضيه العوائد في هذا البلد من جلوس الزوجة الأسبق في كامل حلتها يوم كانت عروسا، وعليه فستجلس، وحولها نساء أخريات من الضيفات، وممن في الدار لتسلم عليها العروس. ووجدت السالمة تلك الفرصة مناسبة لتلتقي بكيما. وبالرغم من أن السالمة تكره كل ما يذكرها بعرسها الذي يظهر أنه أفضى إلى حياة لا ترضى بها. بالرغم من ذلك فقد رأت أن الطقس المفروض عليها لن يكون مبارزة بين ضرتين بل سيتيح لها أن تتجلى في زينتها الكاملة لتحيي هذه المخلوقة السامية. فهي ستفسد على البارزات الفضوليات متعتهن في رؤية الجبلية تقبل رأس سيدتها الزوجة السابقة، أي من ستخاطبها بقول "للا". أي مولاتي، وذلك بأن قامت السالمة وكيما متجهة إليها لتقبل رأسها فتلقتها وعانقتها عناقا حارا ترك جميع الحاضرات مشدوهات مستنكرات لعدم احترام بنت السهل لطقوس الجبل.

تقدمت إحدى الماشطات وأدارت حول خصر كيما حزاما من الحرير الأسود في رأسه درهم من الذهب، وبعد ذلك قامت السالمة

وأخذت بيد كيما وأجلستها بجانبها وأشارت إلى الخادمة الصغرى التي جاءت مع كيما أن تجلس نيابة عن مولاتها لفتل الكسكسون. وأعادت الحاضرات تقليب شفاههن امتعاضا من هذا الإصرار على إفساد الطقوس. لكن السالمة أشارت إلى الحضارات فشرعن في الضرب على الدفوف والعزف والغناء.

وجدت السالمة ما قالت خادمتاها في جمال كيما حقا. ولكن مجرد وصف من استرق النظر. فمنذ وقوع بصرها عليها وهي تشعر وكأنها تعرفها من قبل، وكأنها رأتها في أحلامها، أو في خواطرها في اليقظة، وهي الآن لا تشك قط أن كيما هي صاحبة القلادة المنهوبة، ولكنها لن تسألها حتى لا تنكأ جراحها وحتى لا تثير كوامنها بالتفكير في ظروف وصولها إلى دار همو زوجة بعد أن أهين والدها بوضع الحديد حول عنقي ولديه.

كان وجه كيما بالفعل هو وجه أسيرة لا تخاف قطع رأسها ولكنها تبدو وكأنها تؤدي واجبا في صمت، وكأنها لا تشعر أو لا تهتم بما يحيط بها من احتفال وبهجة. ولما رأتها السالمة على ذلك المظهر قلقت وهي التي تريد أن تستعين بها على عزلتها، ورأت أنه لا بد من مرور عدة أيام قبل أن تتأكد مما إذا كان ذلك الوجوم والخشوع البادي على وجه كيما وقار العرائس في تقاليد بلدها، تقتضيه تلك الساعة ثم يفوت. أو هو من مرارة تشعر بها وهي تقدم زوجة لرجل استعمل القوة في امتلاكها، أو أن ذلك المظهر يصدر عن طبيعة تنسكية متأصلة في روحها أو في أخلاق جنسها.

انتهى بروز اليوم السابع عند مغيب الشمس، وكانت كيما تبدو مستعجلة في العودة إلى غرفتها. ولكنها. وهي تفارق السالمة. همت بأن تقبل رأسها، فنفرت السالمة وتضايقت ولم تدعها تفعل، ولكن كيما ضحكت لها وعانقتها وانصرفت. والسالمة تطلب منها أن تأتي إليها في ضحى اليوم الموالي لترى ابنتها وتذهب معها إلى

الإصطبل لترى خيلها. ولم ترد كيما بكلمة. ولكنها حركت رأسها إشارة إلى القبول. وتبسمت فأسفرت عن أسنان في لون العاج وفي تراص حبات الرمان.

امتعض النساء الحاضرات في البروز وتحدثن عما رأين بأنواع التعليق والنكت والتأويل. وقد غاظهن ما غاظهن من جرأة السالمة على الاستهانة بالأعراف. فهي لم تقم بدورها الموكول لها كزوجة أسبق. فلم تتح لهن أن يتفرجن على إذلال تلك الجبلية الطارئة على الدار ولم تدعها تقبل رأسها حسب العوائد، وأكثر من ذلك وأدهى كونها ابتدعت نيابة الخادمة عن مولاتها العروس في فتل كسكسون اليوم السابع.

أما ابن الزارة الذي توقع أن يكون ذلك اللقاء الأول بين السالمة وكيما بداية انطلاق مخططه في إذكاء منافسة بين المرأتين يستفيد منها صاحبه القائد الذي عاملته بنت قائد السهل في الشهور الأخيرة معاملة مهينة. فقد اندهش لما سمع. وخشي أن يكون قد غلط في فهم النساء. وخاف من أن يكون بعضهن يولدن بلا غيرة أصلا. ولكنه رأى من الحكمة أن ينتظر الأيام المقبلة. وتمنى لو كان صاحبه القائد يستطيع أن يظهر فحولته بحيث يوقظ ما قد يكون مات من نوازع الشراسة الأنثوية في المرأتين.

لكن ابن الزارة خبر في أيام اشتغاله بالنخاسة في شبابه أن ظروفا معينة تفرغ النساء من حيويتهن. ولو كن على قدر كبير من الكمال في المظهر. فيتحولن إلى أدوات طيعة وهمم فاترة أو يتصرفن بافتعال مفضوح ينطوي على كثير من الدسيسة والمكر السلبي. وقد خشي أن يكون حال كيما من هذا القبيل. سيما وأن زوجها القائد شخص أهوج سطحي الإحساس لا يستطيع أن يسبر أغوار الصدف ليبحث عن الدر. ولا أن يعرف قيمة هذا الكنز الذي جاءه كما لم يعرف قدر الكنز الذي فتح له من قبل. وبهذا الشعور

أحس ابن الزارة مرة أخرى بأنه مذنب، وأنه يتحمل قدرا كبيرا من المسئولية في المصاهرتين معا. لأنه هو الذي دبرهما. وهو كان يعرف مسبقا قدر المرأتين الغاليتين. وهنا أدرك أنه ما يزال يتصرف تصرف النخاس الذي كل همه أن يوصل البضاعة ويأخذ الثمن ولا يهمه مصير من باعها بعد ذلك. لكنه قال في نفسه إنه بريء لأنه لا يأخذ ثمنا الآن، بل إنه تخلص من شخصية النخاس عندما أحب تلك المرأة وهاجر مضحيا من أجلها. أما في خدمته لهمو فقد وجد نفسه مدفوعا بغاية نبيلة في نظره هي بناء قيادة بشروطها. وكمال زوجة القائد من هذه الشروط. ولكنه راجع نفسه مرة أخرى واتهمها لأن من سلوك النخاس الذي ما زال يحكمه بالرغم من ورعه السابق عدم الاهتمام بالأهلية في الزوج. وإلا كان عرف أن القائد، ولو ملك المال وكانت له صولة الحكم والجاه، لا يقدر بالضرورة على إرضاء زوجته إذا كانت مع قدر كبير من أوصاف الكمال، وكانت قد كبرت في الإباء والدلال وعلى العوائد المرهفة للأحاسيس. وها هو يقف من صاحبه القائد همو وكأنه يتهمه بأنه ضحل النفس بالفعل، وإن كان طيبا في العمق. فقد حكى له قبل يوم أنه لما رأى عروسته كيما تتصرف معه كما تتصرف الخادمة المطيعة وهي في وجومها وفي خشوع كخشوع الصلاة أراد أن يتحبب إليها وقال لها : إنني طيب، إنني من أجلك أطلقت سراح أخويك من السجن، فما كان منها بعد سماع ذلك الكلام إلا أن انتحت جانبا من الغرفة وجلست تبكي وتنتحب وقتا طويلا من الليل.

21

جاءت كيما إلى غرفة السالة في غده، وجاءت معها خادمتها الكبرى، ولم تدر السالة سر تلك الصحبة، وإن تضايقت بها، كانت كيما في بذلة حريرية خضراء تحتها لباس أبيض، وكان في جبهتها خيط ذهبي رقيق يختلف في تشبيكه وفي ترصيفه بالحجارة عن الخيط الذي وضعته في بروز الأمس.

عانقتها السالة وشعرت وكأنها تريد أن تذوب بين يديها، لأنها على ما يبدو لم تكن تتوقع منها وهي ضرتها التي ينتظر منها المكر والغيرة مثل ما بدا من كرم نفسها بالأمس ومن إشعارها بالأنس في دار ظنتها ستكون لها بمثابة قبر الغربة إلى الأبد.

قبل أن تجلس كيما توجهت إلى حيث يوجد مهد نجمة في جانب من الغرفة، وأخذت تنظر إليها وهي نائمة، وأخرجت من حاشية فستانها دينارا ذهبيا قديما ووضعته في يد البنت وأمها تنظر إليهما معا، وهي في تلك الآونة، ودون معرفة طويلة بكيما، هذه المخلوقة الملائكية التي جيء بها ضرة لها، تشعر بحب لها يكاد يعادل في قلبها حبها لابنتها، وإن كان من طبيعة أخرى، أحبتها كما تحب الخيل لسر وقر في صدرها واستفز لديها قوى الخير وأعدم ما دون ذلك، حب نزل بها كما ينزل قطر جاءت به في زمن القيظ رياح باردة غير متوقعة، وتذكرت ما كان يحكى عن جدة لها من جهة الأب، وأنها أحبت إحدى ضراتها حتى كانت تشتغل لها كالخادمة. وهي لا تتوقع أن يتحول الأمر بينها وبين كيما إلى مثل ذلك الاستعباد، ولكنها من الآن تتوقع أن تجعل كيما تحت حمايتها، لأنها تحتاج إلى تلك الحماية من زوجها همو ومن ابن الزارة والخادمات، ومن كل أنواع المتآمرين. كانت

السالمة تقلب هذه الأفكار في ذهنها وهي تنظر إلى وجه كيما الجالسة على أريكة أمامها.

وجه كيما حينئذ لا تفارقه البسمة. ولكنها لا تتكلم. ووجهها ينم عن حالة تأهب للكلام. ولكن الكلام لا يأتي. فهي من ذلك كالخجلى. والدم يعلو على بياض الوجنتين ثم تختفي حمرته.

أرادت السالمة أن تقطع حبل الصمت فسألت كيما سؤالا عن أحوالها وعن حاجاتها. سؤالا بين النساء معروفا قصده ومغزاه في تلك الحال. وعندئذ رأت السالمة أن كيما قد التفتت إلى خادمتها وهي تضحك. التفات المستفسر عن معنى كلام السالمة الذي وجهته إليها. فإذا الخادمة تترجم لكيما كلام المرأة الأخرى في لغة بلدها.

قالت السالمة في نفسها : يا للعجب ! كيما لا تعرف لغتي ؟ لم أكن أظن أن مثلها لا يعرف لغتي. ما أبعدني عنها بهذا الحاجز وما أقربني إليها إذا سكتنا وتكلمنا بالعيون كما فعلنا في الأمس. لا ينبغي أن أحرجها. يا للعجب ! ما أسوأ حظي.

كانت السالمة من الكياسة بحيث أخفت دهشتها وتظاهرت باعتبار ذلك الأمر عاديا. وإن كان له وقع الطعنة في كيانها. وهي التي قضت تلك الليلة تبني آمالا على القرب الحميمي الذي يمكن لها أن تقيمه بينها وبين كيما. أما والكلام بينهما متعذر. وإقحام المترجمة غير مجد. فآمالها قد تبددت في الهواء.

قررت السالمة أن تتعلم لغة كيما ولم يخطر لها ذلك على البال من قبل. ولكن الأيام أظهرت أن التفاهم بينهما لا يحتاج إلى استعمال لغة من اللغات، ثم إن كيما تفهم عموما الكلام الذي تقوله السالمة بلغتها العربية. وإنما صعوبتها في الرد وتناول الكلام.

أفاقت الصبية نجمة من نومها وبادرت الأم إلى حملها واشتغلت بها. وكيما مشدودة إلى البنت تتبع الأم أينما سارت بها

عند تبديل أقماطها وتحميمها وتعطيرها وإرضاعها، حتى رضيت، وهي تكتشف ما حولها بعينين سوداويين كبيرتين وحيوية وقادة تنم عن تميز الصبي وعن فطنة تواتي جمال الملامح. فإذا بكيما تمد يديها لتحمل البنت. فحملتها مدة والوليدة مستسلمة هادئة، وكيما تبدو وكأنها متعودة على تلك المناجاة المشفوعة بعبارات تدليل نابعة من عواطف سنية ومن حنان دافق يسري للصبي في ضمة إلى الصدر يشعر فيها بدفء وسكينة.

وبعد حين أرادت السالمة أن تأخذ البنت نجمة لتودعها ذراعي الخادمة. حتى تفرغ هي لمجالسة كيما. ولو كان الكلام غير سلس بينهما. فأذعنت كيما وأعادت إليها البنت. وعند فراغ ذراعيها وقع بصر السالمة على شيء لم تتنبه إليه وإن كان في عادتها أن تهتم به لدى غيرها من النساء، ألا وهو تزويق الحناء في راحتي كيما. عمل كثيف رائق في اليد اليمنى في أحسن رونق بعد أيام وغسل جعل اللون الحنائي مشوبا بصفرة وهو يقاوم محو الزمان ومحق العوادي، والراحة اليسرى بتزويق مخالف لم تشاهد له السالمة مثيلا، فما تمالكت. ولأسباب لا تتبينها كلها: أن أسلمت البنت للخادمة وعيناها مشدودتان إلى راحة كيما، فما شعرت إلا وهي تتجرأ وتأخذ بين يديها الراحة اليسرى لكيما وتتأمل تزويقة الحناء. فإذا هي شكلان غير عاديين: نقطة كبرى وسط الراحة وخط يمتد من وسط البنصر كأنه جذع وتتفرع عنه خطوط كأنها أغصان على الجانبين في طرف الراحة المرتفع الذي يلي البنصر.

رفعت السالمة عينيها وهي أقرب ما تكون إلى كيما في هذا الوضع لتلتقي العينان وتندفع دماء الخجل إلى وجه كيما فإذا السالمة تسألها :

– ماذا تسمون هذا الشكل ؟ وما معناه ؟ ومن عمله في يدك ؟

فضحكت كيما وقالت : تاسغارت د وايور.
وتداركتها الخادمة وترجمت كلامها للسالمة وقالت : نسميه الشجرة والقمر.

فتعجبت السالمة ورددت : الشجرة والقمر، الشجرة والقمر، ثم ألحت في السؤال حتى عرفت أن التي رسمت ذلك الشكل امرأة مجربة معروفة في قبيلة كيما تسمى باشا، تنسب إليها أمور من قبيل السحر ومعرفة التعامل مع النجوم، صنعت ذلك الشكل على يد كيما اليسرى بحناء باتت ثلاث ليال تحت القمر بعد أن اختارت ورقاتها بنفسها، ثم بعد تهيئ المحلول عملت على تقعيده بالزعفران وقليل من غبار البارود، وقصدها حماية كيما أيام العرس وفي الأيام التي يبقى فيها ذلك الرسم في راحتها ما دامت تقوم بتجديده قبل أن ينمحي بالكلية.

ذهلت السالمة لجمال الرسم في تلك الراحة، وأحست مرة أخرى أنها كانت تجهل أمورا جميلة قادرة على أن تجتذبها وتفتنها، أمورا موجودة على ما يبدو بكثرة في أماكن أخرى غير التي ألفتها وحسبتها منتهى الدنيا، ثم قالت :

– هل تقول باشا إن ما يظهر على راحة اليد هو ما يجي: من ثنايا القلب ؟

فقالت كيما بعد أن تأكدت من معنى سؤال السالمة :

– لا أدري، ولكنها اختارت اليد اليسرى ولا ترسم في اليد اليمنى، لأن اليسرى أقرب إلى الكبد.

فقالت السالمة، وقد امتلك ذلك الموضوع مشاعرها في تلك اللحظة : لو كنت في مكان باشا لرسمت في يدك واحدا من هاذين الشكلين، إما القمر وإما الشجرة.

فقالت كيما : إن ألقها أسألها، ولكنها بالتحقيق تعرف أكثر مني.

فقالت السالمة : أنا لا أفهم إلا أنك شجرة تحملين في يدك القمر أو أنك قمر تحملين في يدك شجرة.

فقالت كيما : لم أسأل باشا عن معنى الرسم، ولكن أمي ألحت علي في حمله والعناية به كالحجاب.

فقالت السالمة : كانت ساحرات من مثيلاتها يأتين إلى دار أبي من الجبل، ولم نكن نهتم بهن، وإنما نعطيهن فتوحا من المال والحنطة فينصرفن إلى حال سبيلهن.

فقالت كيما : لكن هذه ليست ساحرة، بل هي امرأة تحبني وتفعل الخير، ولا تفعل الشر أبدا.

فقالت السالمة : أعشق هذا الرسم في يدك، وسأضع مثيلا له في يدي.

فزعت كيما لما سمعت من الخادمة التي تترجم لها الكلام، وقالت وهي فريسة للخوف والهلع : أرجوك، لا تفعلي ! لا تفعلي حتى نرى باشا ونسألها ! أتوسل إليك، فقد لا يكون ذلك الرسم ميمونا على بنتك نجمة !

هنالك تراجعت السالمة عن استخفافها بأمر ذلك الرسم وكفت عن النظر إليه كمجرد رسم يمكن تقليده من طرف أي كان، لأنها سمعت الكثير عن سحر أهل الجبال، ولم تكن تقبل أن تغامر بشيء ما دامت كيما، وهي لا شك تعرف ما تقول، قد ذكرت أنه قد يمس بنتها نجمة، ثم قالت وهي تسدد نظرة عميقة إلى كيما :

– إذن، سأظل أتأمل هذا الرسم في يدك حتى نلقى باشا يوما من الأيام.

حركت كيما رأسها موافقة وهي تبتسم، وقد عاد إليها الاطمئنان.

كانت الخادمة المترجمة تتعجب مما يسري من المشاعر بين المرأتين ولم يمض على لقائهما غير زمن قصير.

ازداد تعلق السالمة بكيما في جلسة ذلك الصباح وقوي إعجابها بكل شيء يتصل بها، جمالها ورقتها وذوقها. فهي تحب الأطفال مثلها وهي تخجل فيعلو الدم وجنتيها وهي تحب الخيل وتعرف أن تعجب بها وأن تلمسها، والخيل تذعن لها لأنها أليفة معها. وقد كانت السالمة تعتقد أن أهل الجبال لا يألفون إلا البغال. والسالمة لا تشك الآن أن القلادة التي نهبها الغزاة هي قلادة كيما قبل زواجها، ولم تعد السالمة قلقة، بعد انصراف كيما، من حاجز اللغة في تفاهمهما، ذلك أن كيما، حتى ولو لم تكن المترجمة حاضرة، تستطيع أن تفهم وترد بالإشارة والابتسامة، وعليها هي أن تتعلم معها لغتها وتشجعها على التكلم بها دون أن تحتقن وجنتاها خجلا وتضايقا، وستتعلم معها شيئا فشيئا، بل وبسرعة لأنها تحبها وستزداد حبا لها. والسالمة متيقنة من أن كيما تعرف سر الرسم الذي في راحة يدها اليسرى : الشجرة والقمر، وإنما منعها من شرحه وتفصيل الكلام فيه عجزها عن أن تخاطب السالمة مباشرة وبدون حضور الخادمة. وقد وجدت السالمة أمرا طريفا في كون خادمة تتفوق على سيدتيها عندما تعمل مترجمة لأفكارهما وتفرض عليهما من أجل ذلك أن تولياها ثقتهما الكاملة.

نامت نجمة وانصرفت الخادمتان وبقيت السالمة ممتدة والنوم لا يسعفها، تابعت تفكيرها في كيما وأشفقت من حالها لأنها لن تجد أحدا يقدر جمالها ورقتها ويعرف كيف يفتح ورود نفسها، وفكرت في أن ذلك من واجبها هي، ولكنها تغار من زوجها القائد، لأن هذه المرأة ستتعذب وهي تؤدي واجبها نحوه بذلك الانقياد الذي هو طبيعة فيها. ولابد أن تتخلى عن شيء من تشددها وأنفتها هي مع همو حتى تسهم في التخفيف من آلام كيما في ما سيأتي من الأيام. سيقول الآخرون : إنها مدفوعة بالغيرة،

ولكن الآخرين قلما يفهمون، المهم هو أن تحقق قصدها بـالتخفيف من معاناة كيما. وهي متأكدة أن الأمـر لـن يعـدو بالنسـبة لهـا أن يكون معاناة.

وفي غده أرسلت السالمة خادمتها الكبرى إلى زوجها همو فقالت له إن سيدتي ترى أن هذه الليلة هي ليلتها بعد انصرام سبعة أيـام العرس. ولما أخبر همو صاحبه ابن الزارة بكلام الخادمة ضحكا معا وعلق ابن الزارة قائلا : ألم أقل لك إن خطتي ستنجح في النهاية ؟

22

مر عام على زواج كيما والتعلق ما فتئ يشتد ويقوي بينها وبين السالة، وكانت هذه هي القابضة على زمام تلك العلاقة، وكيما تحت جناحها من فرط حب السالة لها لا من استبدادها بها. وقد زادت انشغالات همو ومصاريفه وتدخلاته في القبائل بالقوة، وكان في نومه عرضة لكوابيس، حتى إن السالة تعهد للخادمة بالمبيت مع نجمة في غرفة أخرى كلما قررت أن تبيت عنده.

جاء أحد إخوة كيما ليشارك مع أعيان القبائل إلى جانب القائد في الحركة إلى مكان اسمه صخرة الدجاجة استنفر إليها السلطان، وحمل أخو كيما معونة صغيرة فيها المال والعدة وغيرها إلى القائد إسهاما في الحركة التي سيخرج إليها، وحمل رسالة من والده الشيخ احماد إلى القائد يطلب منه فيها أن يأذن لكيما بزيارة أهلها بعد عام كما هي العادة.

وافق القائد على ذهاب كيما لزيارة أهلها. وطلبت منه كيما أن ترافقها السالة في تلك الزيارة. فوافق أيضا.

وبعد أيام من خروج القائد همو ومقاتلوه إلى حركة السلطان، وصل الابن الأصغر للشيخ احماد إلى القصبة، ومعه فرسان وعدد من الحراس والخدم جاءوا بالخيل والبغال التي ستركبها كيما لزيارة أهلها ومعها السالة ومن سيرافقهما من الإماء.

تم حزم كل شيء يتطلب أن يحزم، وكان موعد الانطلاق وقت العشاء. وبدأ الصعود في الجبل عبر مسارب بين الأشجار الباسقة عند مصاعد الجبل، يسمع حفيف أوراقها في الريح، وعبر شعاب تجري فيها المياه تسبرها حوافي البهائم. وسار الركب لا يخترق القبائل إلا إذا حمته الأرفاق وحفته الرهبة التي صار يثيرها اسم همو عند أهل القبائل.

وبعد مضي نصف الليل أو يزيد من السير، أطل القمر من وراء المرتفعات وجعل الراحلين يكشفون عن بعضهم البعض تتبعهم الظلال وتسلمهم المنعطفات إلى سفوح لا تنتهي. الشجر والحجر كل شيء في ذلك الليل ينعم بالسكون انتصبت شخوصا تكاد تتكلم، إلا أن وقع الحوافر وحده يسمع، والخفراء لا يكاد يسمع لوطء أقدامهم صوت. كل آخذ بذيل دابة، والبغال معتادة على مسالك الشواهق مشفقة على الركاب، متمهلة حيث ينبغي، لها أعين ترى بها في حالك الظلام، فما بالك والقمر قد نشر أجنحة نوره على تلك القمم والوهاد ففضحها. وفي الثلث الأخير من الليل، كان القمر قد قضى ما عليه من الخدمة في تلك الليلة واحتجب، وانتصر الظلام من جديد في هزيع من الليل ما لبث الفجر أن كنسه يجلي تلك المراقي والسوامق أمام أعين مثقلة بالنعاس وأجسام هدها كلل مشي ليلة بأكملها، لكنها انتعشت بنسيم الصبح وأيقظت منها الجفون شوارق أنوار احتفلت لها قبل أن تختفي نجوم لامعة تخلفت عن ركب الليل لقوتها، معاندة، كأنما كانت تحرسه.

أماط نور الصباح خمار الليل فأسفر عن ركب بهي تسير فيه نبيلتان تحتلان منه وسطه، تهفو إليهما قلوب من تقدم ومن تأخر، فهما الغاية تتبعهما الخادمات المرافقات، وكل همة الفرسان الحراس، وهم من أعيان القبائل، في الوصول بهما على المرغوب من الراحة ومن الصون الواجب إلى منتهى الطريق، وقد اختيروا من ذوي الأمانة والشجاعة وممن يليق بأن ينسب إليه شرف مرافقة جواهر الخدر وربات الحجال.

وبعد اكتمال الشروق إلا على سفوح تبقى معظم العام سادرة في الظل ولا ترى الشمس إلا في وجه السفوح المقابلة لها. وصل الركب إلى بسيط وسط أحد أودية المرتفعات العليا. وهنالك كان

محسوبا أن ينزل الركب للاستراحة حيث هيئت الخيام وأعدت لوازم الوضوء والصلاة والإفطار والنوم ثم الغذاء واستئناف السير بعد الظهر.

وجرى كل شيء على ما يرام، وكيما مهتمة بضيفتها السالمة مشفقة عليها من تعب الطريق ومن قساوة الهواء في أعالي الجبال، ومن الدوار الذي يصيب من لم يعتد على منعرجات الطريق والنظر إلى أعماق الأودية في مماشي السفوح التي لا تتسع إلا لمواطئ أقدام بغال مدربة وخيول أصيلة متعودة على تلك المواطن. غير أن السالمة تصبرت وكان كل همها أن ترى تفاصيل تلك القمم التي كانت تراها من بعيد. من دارها بالسهل حيث نشأت، تراها منذ فتحت عينيها إذا تغطت بالثلج أو نفضت ثوبها الأبيض ولبست ثوبا داكنا مما يكسوها به الشجر أو تغطي قمما من أصلع الحجر، وقد انتشت في سفرها بما كانت تشم من عطور نباتات كان يتكفل العطارون بإيصالها بعد أن تكون قد يبست وذهب قدر من عنفوانها. ومنذ كانت السالمة وهي معروفة بقوة حاسة الشم، وها هي تتنشق هواء يحمل إليها عشرات الروائح مختلطة فتتميزها وكأنما تقوم بتقطيرها في أنفها رحيقا رحيقا قبل أن تعبئ بها الرئتين وقبل أن تنتشي بها أحاسيسها ويمتلك عبقها أوصالها. عرس للأنف وعرس للعين في تلك الجبال، وشعور المرأتين بأن إحداهما تزداد في سكونها تودادا إلى الأخرى يوما عن يوم. وهما في ذلك السفر تتركان وراءهما دار القائد الزوج همو، وتشعر كيما بالخواطر النفيسة التي تشعر بها كل عروس تعود من بعيد أول مرة بعد الزواج إلى دار والديها، تعود امرأة إلى دار امرأة هي أمها، وتعود زوجة إلى دار زوجين هما الأب والأم، وهي قد عرفت شيئا من طبيعة روابط الوصال الذي نسج حضن الحنان الذي ربت فيه، فهي أعرف بأمها من ذي قبل وأقوى حبا لها الآن، وهي

أكثر حياء تجاه الأب وأكثر إشفاقا عليه من ذي قبل. تظن العروس العائدة أنها قد أحاطت بكثير من أسرار الحياة. فهي مؤهلة لنصح أخواتها الصغيرات ولانتقاد عرائس إخوتها الكبار.

استأنف الركب سيره بعد الظهر. وكان قد ارتفع عن كل السفوح التي فيها النبات وتسلق جبالا محجرة كأنها في أشكالها أنياب الدهر المكشرة في وجه السماء. لا تدع شدة البرد فيها طول العام فرصة لعشب ينبت، ليس في سفوحها الظليلة سوى عروق عتيقة قديمة. شاهدتها المرأتان بأم عينيهما وعرفتا أنها تلك العروق التي تتناولها النساء لتجديد عنفوان الجسد. لأنها قاومت البرد قرونا. فهي تطرد عن الأجسام كل أعراض الكسل والانحلال.

وفي وقت العصر وصل الركب إلى أعلى الجبل. إلى الممر الذي سيفضي به إلى السفح الآخر. وكان الجميع مهتمين باجتياز ذلك الممر دون أن يصاب أحد بمس من الجن فيغمى عليه. لأنه ممر مسكون بالشياطين. ومنه تنزل إلى الأرض الواطئة. وقد تمس حتى البهائم فتبدو وكأنها تختنق. لذلك أخرج كل راجل أو راكب ما معه من حبات التمر والسكر لأنها تطرد تلك الأرواح. ولم يهتم المكلفون بالركب كثيرا لأن المرأتين من ذوات الأبدان الكاملة. ولأن كل من معهن من ذوي الأبدان الكاملة. والدواب من جيد المركوبات.

وبعد اجتياز الممر أطل الركب على السفح الآخر وبدأ في النزول. واستمر النزول الليلة كلها. وداهمت الأنوف روائح النباتات العطرة علامة على الوصول من جديد إلى صدر الجبل الذي فيه النبات. ولم يفت السالمة أن تدرك عبق هذه النباتات العطرة وإن كانت من أصول مشابهة فهي هنا أقوى في نكهة لأن السفح سفح الشمس الذي وراء سفح الظل.

وبعد أن طلعت شمس الغد دخل الركب إلى أرض إيالة الشيخ احماد والد كيما، وهنالك في حدوده وجد الركب خياما وقياما واستقبالا وحفاوة وزغاريد وأعلاما. ونزل الركب للراحة إلى وقت الظهر. ثم تجهز الركب وسار ودار على اليمين ودخل واديا في الجبل محميا من عواقب التعرض للشمس، وهذا هو وادي الشجر والزهر والزرع ومنابع الماء الذي يحكمه الشيخ احماد. وفي كل قرية يرحب المرحبون وتنهال على كيما وضيفتها أوراق الورد، ويقترب النساء لتقبيل أهذاب لباسهما الملقى على الركاب. ومن كل قرية ينضاف فرسان من الأعيان إلى الذين في الركب إلى غاية القرى التي بعدها فيخلفهم فرسان من أهلها.

ولما أرخى الظلام سدوله من جديد كان رجال حاملون لعشرات المصابيح يضيئون للركب طريقه، وتعجبت السالمة لكثرة أولئك الرجال الذين يخرجون من حيث لا يدري أحد، من تلك الشعاب، يفعلون ولا يتكلمون. وتعجبت أيضا من كثرة المياه ذات الخرير ومن كثرة الأشجار التي تضطر الراكبين إلى حني الرؤوس لتجنب أغصانها المدلاة عبر مسالك ممتدة.

وفي بداية الثلث الثاني من الليل وصل الركب إلى دار الشيخ احماد نايت ابرايم. وبعد لقاء حار بين كيما ووالديها، وسلام أم كيما على ضيفة ابنتها، توجهت كيما والسالمة إلى محل نومهما. ووضعت الأمتعة في الغرف، وتقدمت أربع خادمات وأدخلت المرأتين إلى حمام لم تر السالمة مثله فخامة ولا رأت مثل عناية الخادمات ومهارتهن في التنظيف والتمسيد واستعمال الزيوت التي تذهب التعب عن الأجسام. دخلت السالمة أولا ثم دخلت كيما بعد خروجها، كل ذلك في وقت وجيز، ورأت السالمة ما لم تره من قبل من فوط التنشيف وإزارات الحرير التي تشد بخلالات صغيرة رائقة من الفضة.

سكنت المرأتان في غرفة كبيرة، وهي طابق من برج الحصن المطل على الوادي. وفي جانب منها، قدم لهما طعام عشاء مختار لمن هدّه تعب السفر. فجله محاليل ومسلوقات مع عصير قيل للسالمة إنه عصير تين فيه قليل من الخل.

كانت السالمة وكيما تتناولان الطعام تحت عيني أم كيما، وفي كل ركن من أركان الغرفة قنديل، وفي يد خادمة تقف عند رأس أم كيما قنديل آخر، تتراقص ألسنة القناديل وتتراقص معها ظلال النساء الأربع على جدران من الآجر الأحمر الداكن، وخادمة تجيء وتذهب باللوازم، وأم كيما تذرف دمعا مستخفيا في انفعال يعصر حرارة اللقاء ومرارة ذكرى ما كان من الفراق. مرارة تحمل ما اعتبرته غصب بنتها في حرب ماكرة. كانت أم كيما تنقل بصرها من البنت إلى ضرتها، وكانت ترصد إحداهما تسرق النظر إلى الأخرى بين لقمة وأخرى، وكانت بعمق إحساسها ومعرفتها ترى الفرق الذي لا يخفى بين نظر كيما، نظر العناية والترحيب، وبين نظر السالمة إلى كيما الذي فيه عشق حقيقي لكيما، لا أحد سبر غور تلك المرأة خير مما تفعله الآن أم كيما، وهي ذات الروح الذكية التي كانت تصلها الأخبار عن بنتها، وكيف تتعامل ضرتها معها، وقد أدركت في الشهور الأولى أن العلاقة بين المرأتين ليست علاقة ضرتين ولا علاقة أسيرتين في المعاناة، بل علاقة مبنية على شعور الحاجة إلى الأم عند كيما وعلاقة مبنية على الحاجة إلى الحب من جهة السالمة، وقد كان الوضع يثير قلقا عند أم كيما ويريحها في آن واحد، وهي التي أوحت إلى كيما، بدون أن تعرف، فكرة استدعاء السالمة لمرافقتها واستضافتها إشفاقا على السالمة لأنها لا تستطيع أن تفارق كيما مدة غيابها، ولأنها أرادت أن تحكم على الوضع حتى تستطيع أن تنصح بنتها بما يليق.

وها هي أم كيما تتحقق في لحظات قليلة من حقيقة صحة الحال بين المرأتين، من نظراتهما المتبادلة. ولكن المهم هو أنها تشعر بإحساس النخوة والاعتزاز لأن ضرة بنتها التي سيراها من في الدار بعد أن يصبح الصباح، وسيراها كل من سيأتي من نساء القبائل لتهنئتها بزيارة كيما، هي امرأة كاملة الجمال، بل هي طافحة ببهاء النبل في المبسم والحركة.

كانت أم كيما ترحب بالسالمة بلغتها الأمازيغية وتدعو ضيفة بنتها إلى المزيد من الأكل، وتسأل بين المرة والمرة عما قاساه من متاعب الطريق وعما قدم إليهما من وسائل الراحة. وكانت كيما تعلمت كثيرا من كلام العربية في مدة الإقامة مع السالمة. فهي التي تترجم الآن عن أمها، وتعطي للسالمة فرصة رفع بصرها وملء عينيها بالنظر إلى أم كيما لتشكرها ولتفكر في ما لو كانت أمها لقيت أم كيما وكيف ستغتبط بها. ولربما كلفت بها كما كلفت هي بكيما. فلطالما فكرت السالمة في كونها ورثت من أمها هذا الضعف أمام الجمال، فهي التي أورثتها بقدر ما أورثها أبوها عشق الخيل، ولكن عشق الخيل ذهب عن أمها بعد أن تزوجت رجلا له من قوة الإهاب وعمق الوداعة ما لفرس فاره مسوم. وقد قالت في نفسها ذات يوم، وهي تفكر في أمها التي ملأ الزوج كل عيون نظرها إلى الحياة : هكذا يكون الرجل حجابا للمرأة ! وهل كنت معرضة لنفس المصير حتى لا أرى جمالا إلا جماله !؟ ولكن الله سلم.

قامت المرأتان من مائدة الأكل وانصرفت الأم وانصرف الخدم، واتخذتا مكانهما في السريرين ودردشتا قليلا لأن السالمة وجدتها فرصة سانحة لتصف لكيما جمال أمها بتفصيل في كثير من التودد والتلذذ، وكانت كيما تتلقى إطراء السالمة لأمها بخجل شديد لأنها

شعرت وكأنها تصفها هي أيضا. فما لبثت السالمة أن قالت :

– أعرف أنك متعبة وبحاجة إلى النوم. أنا كذلك متعبة وبحاجة إلى النوم. ولكن. اعذريني في ما قلت. فأنا أعشق هذا الجمال.

استسلمت المرأتان للنوم العميق بعد التعب الشديد إلى أن استيقظت السالمة على أصوات عدد من المؤذنين يهللون لإعلان الفجر في منار بجانب الحصن. وسمعت السالمة أن كيما قامت من فراشها مترفقة وتسللت وخرجت وردت الباب وهي تظن أن ضيفتها لا تشعر بها. فهمت السالمة أن عادة من في الدار أن يقوموا للفجر رجالا ونساء. وهي تعرف أن كيما تقوم للصبح هي وخادمتاها في دار القائد وغيرهن رقود. بل رأتها وهي تركع وتسجد فوق البغل عند حلول الأوقات أثناء السفر في طريق الجبال.

جالت السالمة قليلا بفكرها في بنتها التي تركتها لأمها وفارقتها لأول مرة. وتمنت أن يكون لها تحنت كيما. وإن لم يكن لها كل جمالها. لأن نجمة ليست بنت أمها وحدها فهي بنته أيضا. فهي. كأي ولد. قنطرة حية بين عالمين مختلفين قليلا أو كثيرا.

23

بين دار السالمة في السهل ودار زوجها القائد همو في بداية مرتفعات الجبال أقل من نصف يوم مسيرة الفارس الجاد. ومنذ نعومة أظفار السالمة وهي ترى من نوافذ أبراج قلعة والدها تلك الكتلة الضخمة من الجبال التي تسد الأفق من جهة الجنوب. تراها قمما وراءها قمم أعلى. لا توحي إلا بالغامض والمجهول. وبالخوف أحيانا. وأهل السالمة على اتصال وثيق بأهل تلك الجبال. يعرفونهم ويبيعون لهم ويشترون منهم. ولهم عنهم أفكار يعبرون عنها بمختلف الأشكال. وبصيغ مختلفة في الأمثال والأشعار والحكايات. وهم يختلفون عنهم في اللسان وفي صفات أخرى ينسبونها إليهم. ومؤدى مجملها أن الجبليين. و لا سيما عند أطفال السهل ونسائه. أناس يتميزون بالخشونة والشظف في العيش وقلة الأخذ بأسباب التنعم والحضارة في المسكن والمأكل والملبس. وربما انسحب ذلك النظر على أخلاق أهل الجبال وأجسامهم. ولذلك نفرت السالمة من أول مرة من الزواج المقترح عليها بقائد الجبل. لأنه وإن كان قائدا. لا بد وأنه أحرش شحيح قليل المرح قليل العناية بزوجته. قليل الكلام معها. وقد صدق القائد همو حكم السالمة المسبق. ولكنها غير متأكدة مما إذا كان ذلك طبيعة فيه. من جملة طبائع جميع أهل الجبال. أو أن حاله من فقر محتده وقلة علمه وكثرة انشغاله بتأسيس مجد رئاسته وشدة انصياعه لما يخططه له مشاوره ابن الزارة.

وبعد أسبوعين من الضيافة بدار كيما تغيرت فكرة السالمة عن أهل الجبال لما رأت. فقد عاشت عرسا حقيقيا أقيم لكيما ولها لمدة الأيام الثلاثة الأولى. حضره مآت الرجال والنساء من مشيخة والد كيما. ووقفت على ألوان من الطعام لم تكن على علم بوجودها

البتة. ورأت ألبسة رائقة على نساء لسن دائما من القصيرات، وأنماطا من مصوغات الفضة والذهب والمرصعات التي لا يجيد صنعها حتى يهود السهول، ورأت النساء معتزات بطاعة الرجال لأنهم يموتون في القتال غيرة عليهن، ورأت الناس يتبتلون في العبادة وكأنهم أعلموا أن الحشر يكون قبل مضي العام، وشاهدت طاعة رجال لشيوخهم في اقتحام المشاق وهم يبدون علامات الرضى، ورأت علامات ثروة الشيخ احماد ففهمت ما الذي أسال لعاب زوجها القائد، وعلمت أن غزاة القائد لم يجدوا عند وصولهم للحصن غير المقاتلين وأنهم لم يفضحوا النساء ولم ينظروا إليهن وأن ما حملوه من الأمتعة، وفيها الحلي، هو ما تركه لهم الشيخ متعمدا ليعودوا به في ما طلبوه من الغنائم، أما ماله الكثير وآنيته الغالية فقد حملها مع أهله إلى مخابئه في الواحات، ولما خرجت السالمة للتنزه في المنابت التي بجانب النهر الذي يطل عليه الحصن رأت الأشجار التي أمر ابن الزارة بقطعها لإرغام الشيخ على الاستسلام.

رأت السالمة عالما يقوم فيه الناس بكل شيء وهم يحملون إحساسا بالضيم من شيء ما لا يعرفونه أو لا يفصحون عنه، يؤدون كل شيء كما يؤدون الصلاة، وحتى اللهو يحمل نبرة الحزن والندم، فقد أقام عشرات الرجال والنساء فرجة الرقص والغناء المعتادة عندهم في اليوم الثاني لوصول كيما وضيفتها، وتجلت النساء المشاركات بأجمل زينتهن مع كثرة حلي الفضة على الجباه والصدور وفي الآذان والمعاصم والأصابع، مع وضع تيجان من الزهور على الرؤوس، وقد انعقدت الحلقة من وقت العصر ولم تنفض إلا بعد العشاء، صف من الرجال وصف من النساء، وفي طرفي صف النساء كانت العذارى تميزهن مجاديل ملونة متدلية على الظهر من المناديل التي على الرؤوس،

فخروجهن مكفول بعوائد التوقير المتعارف عليها بين الناس، لا أحد يحسب أنهن خرجن لشيء ينتقص أعراضهن. فالأمر جد، يمكن أن ينتج عنه جد في الزيجات التي ستنعقد في ما بعد. وكل ذلك تحت مراقبة الآباء والأمهات.

كانت كيما والسالمة تطلان على حلقة الغناء والرقص من شرفة مستور ما بداخلها بتخريم في الخشب، وكانت أم كيما أذنت لابنتها المراهقة، واسمها عبوش، أن تخرج لحلقة الرقص والغناء تكريما لضيفة أختها. وكانت كيما هي التي اختارت لباس أختها وحليها وتطريتها والزهور التي تضفر في أطراف شعرها، حتى إذا رأتها السالمة على هيئتها، وهي نسخة من أختها في الجمال، أخذت ترتعش وكادت تجهش بالبكاء، ولم تنضم عبوش للحلقة إلا بعد أن أذنت لها كيما في وقت من سمو الإيقاع وتأجج العواطف والانخراط الأقصى لكل اللاعبين والمتفرجين، وعندما ظهرت عبوش في وسط الحلقة ترقص توالت الزغاريد وتناعتتها الأصابع وانفعل النساء والرجال واعتبروا ذلك من تكريم الشيخ لشاعرهم، وانبرت من صف العذارى فتاة في مثل قوام عبوش وأخذت تراقصها في الوسط والدفوف والحناجر تعلن بأقصى ما تملك عن أصواتها، والتمايل المصاحب للإيقاع لم يدع أحدا يثبت بمكانه، واستقر الطرب مدة على إيقاع بيت من الشعر يقول فيه الرجال :

أيها الورد يا زهر الحبَق

وترد النساء :

طوبى للذي يسقيك.

وعندما تعالى هذا الصوت قامت كيما من الشرفة وأخذت ترقص في وسط البرج، تميل يمنة ويسرة في حركات مثل التي تأتيها أختها في الميدان، وعيناها شبه مغلقتين، وكأنها مأخوذة بوجد شديد.

كانت السالمة تنظر إليها مشدوهة، ثم قامت تراقصها وهي لا تحسن ذلك الإيقاع، فإذا بكيما تأخذ بيدها لتعينها على الرقص، ولم تجد صعوبة في ترويضها. واستسلمت المرأتان لما توارد على مشاعرهما من الرغبة الجامحة في الذوبان في ذلك اللحن أو في لحن تأتي أصواته من داخل كل منهما. وكانت أرجاء الحصن تردده وكانت قمم الجبال المجاورة تردده، ثم يذوب في ماء النهر :

أيها الورد يا زهر الحبَق طوبى للذي يسقيك.

كانت السالمة عندما شرح لها معنى الشعر تفكر في شيء تعلم أن كيما لا يمكن أن تفكر فيه، أي المرأتين هي الورد وأيهما هي زهر الحبق ؟ وكانت أظافر الغيظ تنشب قلبها عندما تسمع صوت النساء يطارد في الشعاب المجاورة أصداء الصوت الآخر ويقول :

طوبى للذي يسقيك.

وعندما توقف الضرب على الدفوف وتوقف الغناء لتغيير الصوت اندفعت كل من المرأتين نحو الأخرى وعانقتها وسقت عنقها دموعا غزيرة حرى ثم افترقتا، وخرجت كيما كالهاربة وكأنها خافت أن يفوتها وقت الصلاة. وبعد حين عادت ومعها أختها الصغيرة التي خرجت من الميدان تحت وابل من الزغاريد والهتاف.

وبعد أيام من الراحة والمتعة وانصراف المهنئين، أقام أهل كيما رحلة للمرأتين إلى عزيب الشيخ، طين يقع في واحة يفصل بينها وبين الوادي الجبل الجنوبي المطل على الحصن. وهنالك رأت السالمة الحيوان المعروف بالغزال، أخذ المرأتين فرسان إلى حيث يرصد ويرى الغزال في مسارحه وهو لا يشعر أن أحدا يراه. وقد رفضت كيما وضيفتها أن يصاد لهما الغزال لتطعماه. وهنالك رأت السالمة شجرة الحناء، وكانت على غير العادة أشجارا طويلة يمكن أن يصعد إليها الأطفال الصغار، وقد اشتهت السالمة أن يؤخذ لها غرس تتعهده في دارها لعله ينبت ويورق الحناء لها ولكيما أيضا. ووعد أهل كيما بأن يأتوا لها بالغرس في وقته، وإن كانوا يشكون في أنه يمكن أن يصلح وينمو في دار القائد همو.

وكان العود إلى دار كيما عشية خميس. وفي الغد رأت السالمة كل من في الدار من النساء مجتمعات لصلاة الجمعة، ثم رأتهن يجلسن بعد العصر على هيئة مؤثرة لتلاوة كتاب بلغة الأمازيغ يحفظه النساء ويرتلنه للتعبد وفيه أجمل المواعظ ويسمى بحر الدموع[1]. وكان مجلسا رهيبا تكون من عشرات النساء في مختلف الأعمار، كلهن مرتديات إزارات بيضاء وعلى الرأس شد ملون يغطي معظم الشعر. وأمام الجمع شيخة فوق منبر قصير وبيدها الكتاب. تقول منه عبارة وترددها النساء أمامها وهن يتمايلن وجدا. بحثت السالمة بعينيها عن كيما فلم تميزها بين الجالسات عن بعد، كن في رواق مرفوع على الحنايا في الطابق الأول من الحصن مفتوح على وسطه، وكانت السالمة من حيث تنظر إليهن لا تسمع

---

[1] بحر الدموع : كتاب في الوعظ والرقائق باللسان الأمازيغي، يتبرك الناس بقراءته خاصة في جهات درعة وسوس والأطلس الكبير. ألفه محمد بن علي أوزال المعروف بأكَبيل. وفاته عام 1749/1162.

الصوت إلا خافتا. ولكن قشعريرة كانت تسري في أوصالها وكأنها تسمع وتفهم ما يقال. والأمر ليس كذلك. وفكرت في هذه الشابة الرائعة التي ربيت على أن تنزل إلى هذا البحر منذ نعومة أظفارها. كل يوم جمعة. وقالت في نفسها هل يا ترى ذلك الاستحمام في بحر الدموع هو الذي ألبسها مسحة النسك الدائم. وهل سيفضي حبها لها إلى انتشالها من ذلك البحر أم إلى نزولها هي إليه وغرقهما معا فيه إلى ما لا نهاية ؟ لكن ما هو برها الذي ستخرجها إليه لو قدرت ؟ بر وهم جاف. كانت السالمة لا تتصور أن تضيع في فلواته وهي في بحبوحة دلال الأبوين قبل انسلاخها عنهما بالزواج. كان لابد من هذا الزواج. ولابد من اكتشاف هذا المجهول.

انفض جمع المرتلات بأذان المغرب وسارعت كيما إلى ضيفتها واعتذرت لها عن تركها وحيدة حتى تشارك في ذلك الطقس الذي لن تعذر في التخلف عنه. ونظرت إليها السالمة وهي تستعيد كل الخواطر التي مرت بها وهي تنظر إلى الجمع من النافذة العالية. وكانت تعرف أن تلك الخواطر لا يمكن أن تتحول إلى حديث مكشوف بينها وبين صاحبتها. لأنها في الحقيقة لم تكن تعرف أي شيء هو أفضل حتى لو تأتى. انتشال كيما أو الغرق معها في بحرها.

أعلن عن موعد الغد لإتحاف السالمة بتزويق الحناء. وقد علمت أم كيما أن ضيفتها تحب الحناء فاتخذت كل أسباب نجاح الطقوس الكاملة لتلك الجلسة. ودعيت لإعداد ذلك الطقس وتنفيذه الواشمة الكبرى في القبيلة وهي باشا. امرأة في الخمسين. طويلة القامة. طويلة الوجه. حادة الملحظ. طويلة الأنف. ملوحة الخدين مع قليل من التجاعيد. مخضبة الشعر. تحمل حليا غير معتادة في أشكالها وتزاويقها وأكثرها من اللبان. لا يجاريها أحد

في حسن الجواب وقوة النفوذ إلى نوايا الآخرين، يخافها من لا يتمتع بحبها، وقلما يتمتع أحد بحبها غير أم كيما وبناتها.

وبعد إفطار يوم الحناء دخلت كيما وضيفتها الحمام دخلة غير طويلة فاستمتعتا فيه بأرضية دافئة ومياه غير حارة. وبعد الخروج منه أخذت الخادمات العارفات في تمسيد المرأتين حتى لا يصيبهما الإعياء بطول الاستلقاء للحناء، وأحضرت حلاوى وأكلات لا تحتوي على سوائل. ووضعت في متناول الضيفتين أطباق من الزبيب واللوز. وشرعت باشا في تزويق المرأتين مستعينة بمساعدتين لها تخطط لهما وتنفذان. وقبل الشروع غنت جوقة من الإماء أهازيج على إيقاع طارات صغيرة. وفي الأهازيج إطراء محاسن المرأتين وكيف أن الحناء يشرف بتخضيب أعضائهن.

وكان الحناء في نوعية محلوله غير مألوف، وأقلام النقش لها مقابض من الفضة، والآنية في بديع التزويق، والوسائل من رائق الطراز. والطقوس متوالية، تتوالى فيها الأهازيج والزغاريد وتقديم الهدايا ومرور الخادمات المشتغلات بنثر أوراق الورد والرش بماء الزهر والتلويح بمجامير الفضة التي يحرق فيها البخور.

وعندما أرادت النقاشة أن تبدأ في نقش الحناء على اليد اليسرى للسالمة طلبت منها الضيفة أن ترسم لها مثل ذلك الرسم الذي في يد كيما عند الزفاف.

توقفت باشا عن النقش وتجهمت والتفتت إلى كيما تقول لها بلغتها : إن ما طلبته الضيفة غير ممكن، ولكنها لا تريد أن تغضبها ولا أن تعتذر لها هي، فلا بد أن تأتي أم كيما. وكانت لحظة حرجة بالنسبة لكيما وللناقشة، فلما حضرت أم كيما قالت لابنتها وهي تقدم ابتسامة عريضة للسالمة، قولي لها إن ذلك الرسم حجاب خاص بك ولا يجوز أن يتكرر، وإلا جر شرا على التي رتب من أجلها، أي عليك أنت أو عليكما معا.

سمعت السالمة ذلك الاعتذار وقالت :

– لم أفهم ما تقصده هذه المرأة ولكنني لا أريد أن أجر شرا على كيما.

وفي غد يوم الحناء جاءت النقاشة باشا لتبارك على العادة للمرأتين وتأخذ الهدية وتتملى بصنعتها بعد يبس الخطوط وزوال المادة العلقة بها. قادتها أم كيما إلى منزل كيما وضيفتها في البرج وتناولت معهما فطور الضحى، وعادت إلى موضوع النقش الذي رفضت وضعه في يد السالمة ضيفة كيما، وكيما تترجم لضيفتها قصة لم تسمعها من قبله قالت فيها :

– سر ذلك الرسم ورثته عن معلمتي شطو رحمها الله، ولم يسبق لي أن صنعته لأحد، ولن أستطيع إفشاءه إلا بإذن الصالحين، نعم سأحكي منه شيئا لأن سيدتي كيما مرفوعة على أكتافهم، أنا متيقنة من ذلك. كانت شجرة الحناء في أول الزمان كبيرة تضرب بعروقها في الأرض، وترسل عروشها وأغصانها في السماء، مثل شجرة الجوز، وكانت أوراقها واسعة كراحة اليد أو أكبر. وكان ناقشات الحناء يصنعن رسمها في اليد اليسرى للوقاية من العين ومن أنواع الشرور الأخرى بحسب طقوس تحضر بها مادة الحناء المستعملة في النقش. وفي زمان بغيض مًا عظم الشر ولم يعد نقش شجرة الحناء وحده يكفي في رد تلك الشرور. وسئل الصالحون عمًا ينبغي عمله لوقف الوباء الكاسح، فأشاروا برسم القمر في وسط راحة اليد لأن للقمر غيرة على كل جميل، ثم جعل رسم شجرة الحناء في مرتفع الراحة الذي يلي البنصر، وجعل جذع الشجرة في الأصبع حتى تستقي من القلب، وجعل الفروع في ذلك المرتفع ممتدة إلى نهايته. ولما رأت شجرة الحناء أنها مزاحمة بالقمر متهمة من الصالحين بذهاب التأثير انكمشت وتقزمت إلى حجمها الحالي. فهي ما تزال الشجرة التي تستقي من القلوب،

ولكنها صارت تحتاج إلى فعل القمر حتى تدفع الشر عن الجميلات. هذه بعض قصة ذلك النقش. ولا نصنعه إلا بإذن الصالحين، لمن له اعتقاد فيهم، واستند إليهم من صغره، ولا ينقل الرسم للتزيين لأن غرضه هو دفع البلاء.

لم تأت باشا على نهاية قصة النقش حتى كانت تتفصد عرقا، وتعجبت السالمة من ذلك ورجحت أن يكون الأمر أمر جد، وخافت، وأرادت أن تعتذر عن طلبها لأنها رأت أنها أمام امرأة مسكونة بأمور من أمور الجبال. التفتت أم كيما إلى السالمة في شبه اعتذار وقالت : صحيح أن ما قالته من عوائد الأولين، ونحن نتبعها لا غير.

وبعد انصراف أم كيما والناقشة نظرت السالمة إلى كيما، وهي ما تزال تستمرئ شيئا من الرغيف المخرق المدهون بالسمن والعسل، وقالت :

– هل تكونين القمر وأكون شجرة الحناء ؟

فقالت كيما : لو كنا سنخلص الرجل الذي أنا وإياك في راحته من الشرور التي تهلكه.

فقالت السالمة : با لله لا تنغصي علي متعة هروبي إليك في الجبل. أجيبي هل تكونين القمر وأكون شجرة الحناء ؟

فقالت كيما : أنت الشمس، فلا تحرقيني.

24

انصرمت أيام زيارة كيما لأهلها وحانت ساعة الفراق، وبكوا وبكت وبكت معهم ضيفتها السالمة. وكان طريق الرجوع شاقا على كيما. ولولا أن السالمة كانت مشتاقة إلى ابنتها لتألمت أكثر مما تألمت صاحبتها. وكانت كل منهما تفكر في أمور خاصة بها أو مشتركة بينهما.

وصلت الزوجتان إلى قصبة القائد همو، وكان هو ما يزال غائبا في الحركة المخزنية. وقضتا الليلة الأولى في غرفة واحدة، لكنهما لم تعلقا كثيرا في الليل على وقائع الزيارة أو السفر، لأن كلا منهما تحمل أثقالا من الكآبة. ومع ذلك فإن شدة التعب ما لبثت أن أسلمتهما إلى النوم.

وفي صباح الغد خرجت السالمة لترى خيلها في الإصطبل، وكانت مبتهجة لأنها سترى ابنتها التي ستعود في ذلك اليوم من عند أهلها. وما لبثت أن ذهب عنها الارتياح واستسلمت قبل القيلولة لموجة جديدة من الأفكار الحزينة. وقالت في نفسها : هل تراني كنت أتردد عن الفرار إلى الجبل لو لم تكن نجمة تشدني إلى هذا البيت المفعم بالقنوط، ثم تذكرت كيما. فقد زاد حبها لها. وصارت تكبر مقامها أكثر من ذي قبل بعد أن شهدت من أي محتد عريق هي، وقد أشفقت من جديد عليها أكثر مما أشفقت على نفسها. وتعجبت كيف يمكن للقوة أن تغلب الخير والحب فتمنعه أو تعدمه أو تشتريه أو ترغمه على الصبر والخضوع، فكرة غامضة ساورتها وهي تفكر في حالها وحال كيما وحال زوجها الذي يستحق امرأة عادية مثل أولى زوجاته أو ثانيتهما، لأنه عادي يخلو من عواطف طيبة، لكنه بين عشية وضحاها يصبح وارثا لأبيه في منصب القيادة فيشرئب بعنقه القصير إلى أشياء

كثيرة يتحلى بها كما يتحلى بها من سبقوه إلى الرئاسة، فيبني كثيرا ويمتلك كثيرا ويتزوج بنات الرؤساء أيضا، وهو يظن أن وجودهن في داره يرضيهن ويكفي، ثم تعجبت كيف أن والدها الذي تنسب إليه كل صفات النبل والعراقة في المجد قد استجاب هو أيضا لنوازع القائد همو فزوّجه بنته كما لو كان خاف منه أو طمع فيه، وتبين لها وإن كان هذا الظن يجرها مرة أخرى لاتهام أبيها، أنه طمع فيه، وأقل ما في ذلك الطمع إرضاء أنانية الأب أن تكون بنته تحت قائد يحكم الناس ويفتخر به، ولا يهم بعد ذلك أمرها هي كيف تكون تحته، ولا يهم إذا كان لا يرضيها بمشاركتها في تعشق الخيل، وهو ما كان يرضيها تمام الرضى من أحد أولاد أعمامها حتى وإن كان مجرد فارس لا يملك قصورا ولا يحكم الناس. وفكرت في كيما هي الأخرى، أما كانت تستحق من أبيها أن يقاتل دونها إلى آخر رمق ؟ فماذا كان يحدث لو أن ابن الزارة ومقاتليه قطعوا أشجار ذلك الوادي كلها وخرب ذلك الحصن ونهب ما فيه ؟ ألم يكن إرضاؤها بالتزوج من أحد الفرسان الذين رأتهم يخدمون والدها في كبرياء يستحق التضحية بمشيخة الشيخ احماد والهجرة إلى أعماق الصحراء ؟

ومع توالي الأيام اندمل الجرح الجديد الذي نكأته زيارة الجبل في عواطف السالمة. وانشغلت ببنتها وخيلها والتحف التي تأتيها من أمها ودفء رفقة كيما. أما هذه الأخيرة فقد انشغلت بالصلوات وعافاها من الملالة ما جبلت عليه من التحمل والاستسلام.

رجع القائد همو من حركة صخرة الدجاجة، وكان يتخيل وهو في طريقه إلى داره أنه قد يلقى من السالمة مثل الاستقبال الذي لقيه منها يوم رجوعه من الحضرة. لكن شيئا من ذلك لم يكن، فالسالمة كانت مريضة بالحمى عند دخوله، وكيما تعاني ولا تفعل

ولا تنفعل، ولا تترك شيئا من الأدب. وقد أخبر ابن الزارة صاحبه همو بكل ما جرى أثناء غيابه. وقص عليه ما أبلغه إليه عيونه بخصوص وقائع زيارة الزوجتين لدار الشيخ احماد. وزاد تعجب همو من الوئام الذي ما فتئ يستحكم على غير العادة بين الضرتين، وأراد أن يسخر من مشاوره الذي حسب الحساب لإسعاده على أساس المنافسة المتوقعة بين الزوجتين. ولكن ابن الزارة قاطعه قائلا إن الماء لا يخرج من تلقاء نفسه. فلا بد أن يستنبط، وقال له لائما : الظاهر أنك لا تعرف كيف تفعل. وعلى كل حال فأنت تستطيع أن تصلح بجرة قلم ما أفسدته أنا. سيما وأن الشرع يمنع الجمع بين الأختين وتستطيع أن تجمع شهودا على أنهما تتصرفان كالأختين، فتطلق التي تأمن الشر من جهة أبيها، ولكنني لا أستطيع أن أنصحك بأن أعيِّن لك التي يتوفر فيها هذا الشرط.

فهم القائد خبث كلام صاحبه وقرر أن يتحداه، ومن أجل ذلك دأب ليالي متوالية على المبيت عند كيما، ولم يلق منها غير الاستسلام. ولكن السالمة كانت تتألم لذلك التصرف. وهي في قرارة نفسها، إنما تتألم إشفاقا على كيما من شخير الزوج وكوابيسه المزعجة في الليل، كل ذلك وكيما محرجة صابرة.

وقد فهمت الأمة الكبرى التي أتت بها السالمة من دار أمها سبب القلق الذي يساور سيدتها، وقامت دون توصية ولا اتفاق مع سيدتها بحيلة ناجحة لإنهاء تلك الحالة، ذلك أنها تسللت إلى المطبخ الذي يهيئ طعام القائد، وتأكدت من الطعام الموجه إليه ذات ليلة، فدست فيه نباتا قوي الإسهال. ونجحت الحيلة في إبعاد همو عن كيما عدة ليال. ولكن ما كان قد كان. فقد تأكدت كيما بعد أسابيع أنها تنتظر مولودا.

أخبرت السالمة بالواقع فتكدر خاطرها وأشفقت على كيما من محنة الحمل لأن همو في نظر السالمة لا يصلح أبا كما أنه لا يصلح زوجا، ولكنها ارتاحت من جهة أخرى لأن بنتها نجمة ستتمتع بأخ أو أخت، لا من أمها، ولكن من امرأة تكن لها أمها حبا شديدا، وتمنت السالمة أن يكون ولدا لأن بنتها ستعتز بأخيها الولد وتحتمي به، ولأن الولد إن كان فيه شيء من ملامح أبيه فإن ذلك لا يضره في شيء. ثم إن السالمة قدرت أن كيما ستزداد جمالا ورقة في مدة حملها، وستعيش من خلالها لذة النظر إلى امرأة حامل، لذة فوتتها عليها هي في أيام حملها عوامل المفاجأة والتعب والقلق وعدم الاطمئنان لحالها المداهم على العموم.

وعندما برئ همو من إسهاله الحاد وعاد إلى غرفة كيما، كانت قد بدأت تعاني من أعراض الوحم ومن مضاعفات الأسابيع الأولى للحمل، فكانت كلما اقترب منها زوجها داهمتها الرغبة في القيء، ولو كان ذلك في حالة النوم، فتغادر الفراش وهي عجلى فارة إلى الحمام.

ولما رآها همو على تلك الحال عرف أن الحظ يعاكسه في ما يريد من إدخال الحزن على السالمة، لأنه كان يعلم أن بنت الشيخ احماد لا تقدر على المكر ولا تتصنع في شيء. وصادف ذلك أن صاحبه ابن الزارة قد حدد له فرقة من القيان والعازفين ليستروح بالجلوس إليها من متاعب الحركة التي كان فيها، وبلغ الإعجاب بهمو إلى حد أنه هم أن يتزوج بإحدى تلك القينات زواجا شرعيا، لولا تدخل ابن الزارة الذي أرغمها خفية على السفر إلى خارج الإيالة. غير أن القائد همو وصاحبه فوجئا بعودة بعض المبعوثين إلى القبائل لجمع إعانة للقائد يعوض بها نفقاته في الحركة، دون أن يحملوا إليه كل ما طلب.

اعتبر همو التلكؤ من جهة الشيوخ والأعيان في إرضائه إهانة وسلوكا لا يجوز أن يتعود عليه إخوانه. فقرر أن يظهر بنفسه خلال القبائل بوجه القوة والحزم، لأن الناس ينسون ويحتاجون إلى التذكير من حين لآخر. وهكذا جهز عددا من المقاتلين وفاجأ كثيرا من القرى فأكل وأسر وأحرق وأوثق واستصفى وأخاف، وأخذته العزة. وأراد أن يثبت لنفسه سمعة المحارب المغوار. وأطلق أيدي بعض الصعاليك المرافقين له في أعراض الناس وأموالهم. لكنه لم يتوقع أن يفر أمامه حشر من الناس بأموالهم، فروا إلى جيرانهم من القبائل التي لا تدخل في إيالته وحكمه. فما كان منه، وهو يشعر بالشماتة، إلا أن تعقب بعضهم في غير أرضه فأكل أموالهم ورجع منهم بصفوف من المساجين المقيدين.

ولما عاد إلى داره، وقد جمع ما احتاج إليه من المال وأشفى صدره بالنكاية في أعدائه، احتفل وأعرس ببنتين من بنات القبائل عاد بهما من الأسر. وبهما أكمل أربعا

بعد أن طلق زوجاته الأخريات. ماعدا السالمة وكيما.

لم تأبه كيما لما وقع لأنها مجبولة على الاستسلام ولأنها منشغلة بأحوالها المتقلبة في مدة الوحم. أما السالمة فقد سخرت من هذا الزواج وضحكت ودعت عليه بأن يزوجه الله بالأفاعي.

لم تتأخر الاستجابة لدعوتها لأن النحس جاء يطارد همو في تلك الأيام ويفسد عليه أفراحه. فقد توصل من حضرة السلطان برسالة أقضت مضجعه. وفيها توبيخ له على دخوله أرض غيره من العمال المجاورين عندما تعقب الفارين أمامه من إخوانه. وفيها استدعاء له بالقدوم، فورا بوصول الكتاب، إلى الحضرة للتباحث معه في ذلك الشأن.

أصيب همو بذهول شديد من هول الصاعقة التي نزلت على رأسه، وتوقع ما لا تحمد عقباه، وفارق النوم جفونه. وبات يقلب

الأمر مع صاحبه ابن الزارة، وغضب عليه، وكاد يضربه لأنه في نظره تخلى عنه هذه المرة وتركه ليخرج بنفسه للغزو. ولما هدأت ثورته طلب بعض كتاب الجداول وكتبوا له تمائم حملها في عنقه وأحرق بعض البخور وأرسل صدقات إلى بعض الأضرحة والتفت إلى بعض المساكين والمظلومين. فأطلق الأسرى وسرح عددا من المساجين بضمانات، وأخذ ما توفر له من المال الناض واستسلف مالا أكثر على عجل واتخذ طريق السفر.

25

وصل القائد همو إلى حضرة السلطان وأُذن له في أن ينصب خيمته في ساحة المشور أمام القصر، في انتظار المشاورة عليه، أي إبلاغ أمر حضوره للحاجب ثم للسلطان، وتعيين الوجه الذي سيحسم عليه أمره. وكان من سوء حظه أن كبار الخدام كانوا في تلك الأيام منشغلين بما هو أهم من تحضير حركة للسلطان إلى جهات شمال البلاد.

وبعد أسبوعين تمكن همو من زيارة الوزير الذي أظهر له في ما مضى مزيد رعاية وعطف. زاره في داره وحضر أحد مجالسه التي سبق له أن تشرف بمثلها. ولم يصدر من الوزير ما يمكن أن يفهم منه القائد أن أمره هين. أو أنه بعكس ذلك فادح يتوقع فيه العقاب، ولكن الوزير وعده بأن يزيد له في الاستخبار.

وبعد أيام أخرى قضاها همو في الانتظار، أرسل إليه الوزير يستضيفه في مجلسه مرة أخرى. وأكرمه وقدمه لبعض ضيوفه من كبار الخدام، ولم يسفر اللقاء هذه المرة أيضا عمّا يطمئن همو أو يجعله يتوقع الأجل الذي ستفصل فيه قضيته، لكن الوزير وعده في ذلك المجلس بأن يسوي له الأمور حتى يزور في منازلهم أولئك المقربين.

وفي كل زيارة كان همو يتعرف على خدام آخرين من خدام السلطان، يجد من واجبه أن يقوم بواجب تحيتهم وزيارتهم في منازلهم. ولم يفت الشهر الأول حتى صار له معارف عديدون في الحاشية السلطانية، وفرح همو بذلك لولا أنه غير مطمئن إلى أي واحد منهم لأنهم لا يتطرقون معه إلى الموضوع الذي من أجله حضر، ولا ينفعونه بشيء يخفف من شدة ضيقه وحيرته.

وفي يوم من الأيام دخل على همو في خيمته أحد الحراس، ونبهه، على سبيل النصيحة، إلى وجوب الاستئذان في كل مرة يود فيه الخروج لزيارة أحد معارفه في المدينة. مع وجوب تعيين المكان الذي يتوجه إليه، لأن السؤال عنه يمكن أن يرد في أي ساعة، وقد يكون بغتة، وإن قدر أنه غاب في وقت السؤال عنه، كان في ذلك ما يلام عليه هو وما قد يلام عليه الحراس أيضا.

وبانتصاف الشهر الثاني من غياب القائد همو. احتاج إلى الزاد واحتاج إلى المال توقعا لمزيد من المصاريف، وقد أنجده صاحبه باروخ الذي استقرض لفائدته بعض تجار الدار البيضاء وفيهم نصراني يقوم بوسق مواد تصنع منها الأدوية إلى بر النصارى، مثل ثمرة الخروب وصبار الزقوم، وهذه مواد متوفرة بإيالة القائد همو. وزاد باروخ قدرا في عين القائد لأن هذا الأخير لم يكن يتصور يوما من الأيام أنه سيحصل على مال عظيم من مجرد بيع الخروب الذي لا يلتفت إليه عند قومه ولا من نبات الزقوم الذي لا ينبت إلا في الخلاء، وإنما ألف أن يأخذ المال من بيع الغلال النفيسة والجلود وما شابه ذلك. وزاد باروخ مكانة عند القائد أيضا لأنه تستر على صاحبه لدى هؤلاء التجار الذين لم يتوقعوا أن المستدين قد لا يعود من الحضرة بقيادته أو قد لا يعود أصلا إن هو حكم عليه بالسجن.

وكان حملة الأخبار واللوازم المعروفون بالرقاصين يذهبون ويجيئون بين القائد وبين داره كل أسبوع. وقد بلغه أن عددا من شيوخ القبائل أظهروا التمرد وأوقفوا ما كانوا يؤدونه من المستحقات. وبلغه أيضا أن زوجته السالمة تستأذن في زيارة والديها برفقة كيما، والمكوث هناك مدة إقامة القائد بالحضرة. وكان جواب همو بالموافقة على تلك الزيارة لمدة نصف شهر لا غير.

وفي تلك المدة استدعى الوزير صاحبه القائد، ولقي القائد في مجلسه أحد المعاونين للحاجب. وانفرد به هذا المعاون وسأله عن نزاعه مع القواد جيرانه الذين رفعوا به الشكاية وقالوا إنه دخل أراضيهم وتعسف فيها وجاوز الحدود.

وقد أجاب القائد همو مبينا ما وقع من امتناع بعض إخوانه من أداء ما عليهم من الوظائف، وأنهم فروا من أرضهم عندما خرج إليهم لاستخلاص تلك الوظائف، وأنه استرعى من قبل على أولئك الجيران وطلب منهم ألا يمالئوا إخوانهم جيرانه على ما يقيمونه من أحلاف مع أناس خارج حدود إيالتهم لأن الأحلاف تكون في الغالب من أسباب جرأة الرعايا على العمال.

أصغى صاحب الحاجب لكلام القائد وأعجبه منطقه ووجده رجلا وديعا مؤدبا وإن كانت لكنة لسانه تثير الضحك. وهكذا وعده خيرا بأن يبلغ السلطان دعواه ويعمل ما بوسعه حتى لا يطول انتظاره مثل بعض الخدام الذين قضوا الشهور الطوال قبل أن يفصل في شئونهم.

يظهر أن تأدب القائد همو هناك ولين جانبه ومسكنته صفات جلبت إليه عطف عدد ممن رقوا لحاله ومحنته وهو في المشاورة. وهكذا صدر الأمر بأن يستعد لاستقبال العدول الذين سيأخذون شهادته في ما نسب إليه من التعديات، وفي أثناء انتظار إعطاء الشهادة للعدول استدعاه الوزير لضيافته مرتين ووصله بأناس آخرين من ذوي الأقدار، وبصروه بما ينبغي أن يقال وما لا ينبغي أن يقال عند الإدلاء بالشهادة، وأحس همو أن ناسا كراما يقفون إلى جانبه، وأحس أنه لو يستطيع أن يهديهم الأموال الطائلة لفعل، ولكنه أدرك أنهم وإن كانوا يحبون الهدايا أناس كرام بسجاياهم يرحمون الأذلاء ويجبرون الكسور ويقبلون العثرات.

وزاد من تفريج كربة القائد همو أن صاحبه باروخا أدركه مرة أخرى وحمل إليه أموالا معتبرة من تجار نصارى آخرين يريدون جمع السعتر من جباله، ويهمهم على الخصوص أن يحصلوا على قشرة شجرة الدباغ. ورأى القائد أن هذه الهبات المتوالية عليه هي بحق من فرج السماء، لأن السعتر لا يكلفه شيئا، فهو نبات الغابات التي لا حصر لها في إيالته، أما قشرة شجرة الدباغ فهي على الخصوص في الجهات المتاخمة للصحراء من حكومة صهره الشيخ احماد، ولن يبخل هذا بتقديم المعونة له وإغاثته بما يحتاج ولا سيما في ذلك الموقف، وإن كان القائد همو قد حرص حرصا شديدا على ألا يتسرب لأهله ومحكوميه أي خبر يفهم منه أنه مهدد بغضب السلطان أو بنكبته أو بأي شيء يحط من قدره في أعين محكوميه، فكان يرسل الرسائل إلى ابن الزارة ليقرأها بوسائط طلبة يذيعون ما فيها، وكلها حديث على مجالس القائد مع الأكابر وعنايتهم به واغتنام مقامه بالحضرة للتشاور معه في أمور تقتضيها مصالح الدين والدنيا.

ومع امتداد مقام همو في المشور تعرف على معظم من دون الحاجب من كبار الخدام، وكسب عطف عدد منهم، وفي يوم من الأيام تحقق ما كان أخبر به من انتداب العدول لأخذ شهادته، فسألوه عن الشاذة والفاذة من أمور علاقته برعاياه، وأحصوا جملة ما تملكه منذ تولى القيادة، وقدروا عليه المال الذي يكون حمله في غزوته الأخيرة في الجبال.

وانتظر بضعة أسابيع أخرى قبل أن يبلغه من الأخبار ما يطمئنه بأنه سيستمر في قيادته، ولكنه سيدفع لبيت المال بعض ما استخلصه باسم الجباية من رعيته.

وقبل أن يصدر الإذن بتسريحه وقبل أن يعين له المبلغ المطلوب منه، تردد عليه صديقه باروخ عدة مرات، وفي كل مرة كان على

ما يرام من حسن الإنجاد وإتقان الخدمة وابتكار المخارج التي يرضاها القائد لمشاكله، ولا سيما في ما يتعلق بحاجته إلى الأموال.

عاد إلى القائد همو قدر من الاستقرار في المزاج وذهب عنه الذهول الذي كان مسيطرا عليه، وأخذ يتطلع من جديد إلى مراسيم الرئاسة وأحوالها التي رأى منها هذه المرة ما لم يتأت له أن يراه من ذي قبل.

وكان مما أعانه على تبصيره بأمور كثيرة مجالسة كاتب من كتاب صاحبه الوزير، فقد تعرف عليه في أول مرة استضافه الوزير. وكان القائد كلما جاء إلى الحضرة أتحف الكاتب بهدية سنية، ودس في يده شيئا من المال. أما في هذه المرة فقد كان للكاتب فضل كبير على القائد لأنه كان يتردد عليه في خيمته يوميا، وكان يخفف عليه من الأهوال التي نزلت عليه حتى كاد يفقد تمييزه، والكاتب يحدثه عن أناس استدعوا في مثل شأنه وكانت عاقبتهم يسرا، فيصدقه تارة ويحمل إليه أخبارا مصطنعة تارة أخرى، وفي كل مرة كان يجره إلى أنواع رقيقة من الإحماض والتمزح الحضري كذكر الشائع عن مزايا الزوجات الحضريات ومزايا الزوجات البدويات ونوادر الخدم والخادمات وقصص المغفلين من الأزواج إلى غير ذلك مما كان يسلي القائد ويثقفه في شئون المدنية على حد فهمه. وكان الكاتب يحدثه عن الوزراء والكتاب وكبار الخدام وأحوال بيوتهم وأسرار نجاحهم إلى أن قال له ذات يوم :

– السر كل السر في الزواج يا سيدي همو، خذها مني مجربة صحيحة. فأنا أعرف جل ناس هذه المدينة بمن فيهم الأعيان، وفي كل صباح أقرأ في وجوه من ألقاه منهم، فأعرف كيف بات. انظر إلى سيدي الوزير، صاحبنا ! فقد قضى ثلثي حياته في النكد، واتخذ الأزواج من القريبات والبعيدات، ومن السهول والجبال.

ولم يجمع شمله إلا بعد أن وقع على اللؤلؤة الفريدة، نعم، اللؤلؤة الفريدة، المجبولة على الطاعة، المقطوعة من الجذور الفاسدة، التي تلبس لكل حالة لبوسها، تسكره بحبها وتصحيه بحذقها وتسيره في ما يلبس وما يأكل وما ينفق وما يدخر، جاءته في القفص، ولما وصلت خرجت منه، وأدخلته هو إلى القفص، ولكنها تحميه من الذباب، والرجال يقبلون ذلك ويحبونه.

لما أفاض الكاتب في الوصف تحركت كل دواخل القائد همو وقال في نفسه : هذه رحلة مبروكة إن خرجت منها بسلام، وقال للكاتب : وكيف وصفها ؟ وكيف وجدها ؟ وهل لها مثيلات ؟

فقال الكاتب : الأمر صعب وهين : إنها خارجية شركسية من بلاد الأتراك، أرسل سيدي رجلا عارفا من خلطائه تجار الخزيرات واشتراها له بسكة الذهب، وحسب ما يبلغنا فإن لهن سوقا في بلد قريب من القسطنطينية، يربيهن ناس لهذا الغرض، لا يصلحن كثيرا للولد، ولكن يصلحن للعناية.

قال همو : وماذا فعل سيدي الوزير بالأخريات ؟ قال الكاتب : لم يفرط فيهن، ولكن عمل بقوله تعالى : "لا يكلف الله نفسا إلا وسعها"، فترك لهن الدار القديمة بالخدم والمسخرين ونفقة اليوم والليلة، فهن فيها أخلاط مائجة كما في سوق عام. والمهم أنهن طاعمات كاسيات، ولهن عبيد يحملون ما ثقل عليهن.

أحس همو بقشعريرة قوية تسري في جلد أطرافه كلها، وسرح بخياله فرأى صاحبه باروخا يقول له : نعم، سآتيك بأحسنهن يا سيدي القائد، وتخيلها قد وصلت وقد بنى لها دارا خاصة بها فتخلص بقربها من أسباب النكد كلها، وتخيل أنه سيوفر ما يلزم من المال بالحيلة وسيتجنب العودة إلى مثل الموقف الذي هو الآن فيه.

بقي همو أياما قليلة في المشور ثم سرح بضمان، وأذن له في خلع من يتهاون في الأمور من الشيوخ.

26

ذهبت السالمة في غياب القائد بالحضرة لزيارة أهلها ومعها كيما وهي حامل. فالسالمة تريد أن ترد الضيافة لكيما وأن تستمتع بقربها بعيدا عن دار القائد همو، وأن تغدق عليها الحنان والإكرام بكل ما يتوفر لديها. وقد قررت أن تصلي وتتعبد مثلها وتشاركها في كل ما يرضيها.

رأت كيما قصبة القائد ولد الشهباء فتعجبت لكونها غير حصينة ولا منيعة، ورأت ما بداخلها، فإذا كل شيء أبسط مما في بيت والدها في الجبل، لكن الناس يملأون كل الفراغ باعتدادهم بأشخاصهم وانبساطهم وبطريقة حديثهم وبكثرة كلامهم ورفع أصواتهم والدخول في تفاصيل كل شيء على خلاف طريقة أهلها في الإيجاز. وأول ما واجه كيما هو كون والد السالمة أول المرحبين بها، يكلمها وجها لوجه ويرحب ويسأل ويعلق وكأن حجاب المرأة الأجنبية أمر مستغرب عنده، وهو في كل مجلس حاضر مع أم السالمة وسائر أهله يجالسون ابنته وضيفتها ويدخل عليهم الرجال من أقاربه ومعاونيه بلا شعور بحرج ولا غضاضة. وسرعان ما أحست كيما بعمق صدق هؤلاء الناس وسلامة نواياهم. فذهب عنها ارتباكها وتضايقها، وصارت هي أيضا تبتسم وتضحك وترد في غالب الأحيان بتحريك رأسها لأنها ليست من الطلاقة في العربية بحيث تحاورهم بلا تلعثم ولا لكنة.

رأت كيما أن أم السالمة تشبه أمها في البهاء والوجه والبياض وفي قصر القامة، وكأن الذي غلب في الحالتين هو الرجل، فجاءت كل من السالمة وكيما طويلة على غير قامة الأم. ورأت أنها تشبهها في قوة الحضور والتمكن في تدبير الأمور إلا أن أم السالمة تتميز عن أمها هي بقلة النسك وعدم الانقباض، حيث إنها ما

تفتأ تغمز وتلمز وكأن الدنيا عندها فترة مرح لا يكدر صفوها شيء. وأم السالمة لا شغل لها بعد وصول ابنتها إلا إحاطة ضيفتها كيما بكل أنواع العناية، تقترح عليها كل ما يقترح على امرأة يراد لها أن تتدلل بحملها على من هم حواليها، حتى إن كيما تضايقت لأنها لم تكن تلتفت بهذا الشكل إلى ما يجري في بطنها وتعتبره من شأن الله الذي يرعاه ويكفله، ولا يجوز أن يثار حوله الكلام، بل ينبغي أن يطوى في الكتمان ويلفه غطاء الحياء.

عرفت السالمة أنه ليس لديها ما تتحف به كيما مما ليس في دار هذه الأخيرة. وكانت لا تكف عن استعراض ذكرياتها في ضيافة كيما بحماس وإعجاب أمام والديها وبحضور كيما في بعض الأحيان، وكانت تستمتع برؤية كيما والدم يزيد في وجهها الأبيض المورد، وكانت هذه فرصتها لإخجالها منذ أن اجتهدت كيما وتعلمت لغة صاحبتها، حتى إنها لم تعد تخطئ إلا قليلا في الضمائر، بيد أن السالمة كانت تفتخر مع ذلك بألوان من الطعام غير مألوفة لكيما لا في دارها ولا في دار القائد همو، فهي أطباق مألوفة عند علية قبائل كانت من قبل تعيش على النجعة والرعي، أنواع من الثريد المسقي بأنواع من مختلف ألوان السمن المقبور. أي المتقادم المحفوظ بمعالجات تدخل فيها طريقة التذويب واستعمال نباتات عطرة كالسعتر وغيره، وأنواع من الشواء يختلف مذاقها باختلاف ما يختار لها من الشياه وما يعد لشيها من الأفران يسهر عليها عارفون بإحمائها وتنفيسها وماهرون في دهن اللحم المراد شيه.

جددت السالمة لقاءها مع خيل والدها الذين تعرفهم ويعرفونها، فمن الأفراس ما كانت تخضبها بالحناء، ومن الأفراس ما كانت تضع في آذانها الأقراط أو في أعناقها المجاديل، فكانت كل صباح تذهب بكيما وبابنتها نجمة إلى المرابط أو المسرح الذي بجانب

قصبة والدها، وهناك تمسح النواصي وتذكر قصص أفراس خاصة، وتذكر مزاياها بأعرافها أو حسن قوامها أو براعة جريها، وهناك تجتمع كيما ببعض السائسين ممن يعرفون كيف يصنعون تربية الخيل وإضمارها، وكانوا يقومون بإركاب نجمة على جياد الخيل، فإذا رأتها كيما طفلة رائقة على صهوة جواد تحللت عاطفتها ووضعت يمناها على بطنها وتكاد تبكي من شدة تأثير جمال ما ترى على نفسها المرهفة، صبية بهية فوق فرس هيكل مكتنز.

وذات صباح قالت السالمة لضيفتها كيما إنها ستريها كيف أن الخيل تضحك، فلم تفهم كيما شيئا مما سمعت، وهي قد اعتادت على مزاحات صاحبتها وعلى تفوقها في ضروب الكلام. ولما خرجتا لمسرح الخيل، رأت السائسين يأتون بخيل جاء بها رجال من القبائل وكلها أفراس، وذلك لاستطراق فحول خيل القائد من أجل نتاج أصيل، ولكن كيما قد اختبأت وراء جدار خجلى مما رأت وجعلت تصفق بيدها وتفرك خديها وهي تراقب السالمة التي وجدت على ما يبدو لذة كبيرة وهي تنظر إلى الخيل تقوم بما سيكثر به نسلها وما سيجعل الفرسان تتجدد مرابطهم ويخيفون عدوهم. وبعد عودة السالمة وكيما إلى داخل الدار قالت السالمة : أرأيت يا أختي، هذا ما ينقص قائد الجبل، لا يقصده أحد لاستطراق فحوله إذ ليس له فحول، إنني بسبب هذا النقص لا أعتبر قيادته قيادة.

كانت كيما بذكائها وتوقد حسها قد بدأت تستيقظ من غفلتها لتفهم أحسن من ذي قبل عمق مشاعر السالمة نحوها وتتصور الأحاسيس التي تعبر عنها والحرقة التي تعيشها، فهما مختلفتان في فهم الأمور، ولكن كيما بدأت تتألم من أجلها لأنها أدركت الآن أن السالمة ألفت أن تكون في دارها ومنذ صغرها قريبة من

الفرسان، ووالدها هو سيدهم وكبيرهم، بينما لا يوجد في دار قائد الجبل بديل لهذه المتعة، فالنساء فيها في بطالة كبرى، والقائد فيها بين غزو وهم وشخير.

وفي يوم الاحتفال المخصص للفروسية جاء الفرسان المهرة ليجروا خيلهم فرحا بالسالمة وضيفتها، وخرج النساء إلى مكان الفرجة الكبرى بعيدا عن القصبة، وهو الميدان المسمى بمجرى الكدية، وهي كدية عالية حقا، سفحها العالي ذو ميل شديد، وصعودها بالحبو من الصعوبة بمكان، فما بالك بصعودها جريا على الفرس، وقد أقيمت في جانب من الكدية خيمة خاصة بالسالمة وضيفتها كيما وأهل دار القائد، وكانت السالمة تحايلت حتى لا تصاحبها أمة من دار القائد تعرف أنها من عيون ابن الزارة، ذلك أنه تقرر أن النساء يتغذين في هذه الخيمة ويستمتعن بغناء المداحات قبل وصول وقت الفروسية، وعلى غناء المداحات تواجدت السالمة على أصوات وأنغام كانت تسمعها منذ صباها. وخرجت عن حسها حتى إن كيما خافت عليها أن تكون قد أصيبت بمس من الجنون لأن عينيها انقلبتا ولسانها تدلى ولعابها سال وقوي اهتزازها خارقة ما يطيقه شخص عادي من الاستدامة في الحركة حتى سقطت وصب عليها الماء البارد، وأتي لها بقهوة خاصة صبت في حنجرتها.

ولما أفاقت السالمة عانقت كيما وأخذت تغدق عليها أحر القبلات، وظلت معانقة لها وهما تنظران إلى الفرسان أمام الخيمة التي تبدو منها العقبة الكأداء التي يقتحمونها، فكانوا يجرون واحدا واحدا، وكل من جرى تلاحقه الزغاريد إلى أن يتراجع في ثلث العقبة أو نصفها أو آخرها، فتتلوه تأوهات الأسف. وإذا سقط به الفرس أثار الضحك فيقصى بذلك من المنافسة. وكانت النساء يتناعتن الفرسان بأسمائهم وقبائلهم، وكلهم من الشبان أبناء

الأعيان أو أبناء الأشياخ، ولم ينجح في الوصول إلى قمة الكدية غير فارس واحد، كانت تنتظر السالمة أن يفوز، ولربما كانت تدعو له لأنه ابن عمها الذي كفله والدها وهو بمثابة أخيها. ولكن أمها متأكدة أنها لم ترضعه في يوم من الأيام، فلما وصل اهتز الحاضرون وهلل الفرسان وجروا من جهات غير عقبة الكدية ليلتحقوا به ويحيوه، ومر هو أمام خيمة النساء كالبرق لتحيتهن والاعتراف لهن بأنهن صانعات شهامته. وبذلك أثار حماسهن وزغاريدهن، وكان ذلك قمة الفرجة وخاتمتها.

وفي غده أقام والد السالمة فرجة وقت العصر المسماة عندهم بالحلقة. وفيها جلس أهل الدار بأجمعهم من الرجال والنساء في أبهى حلة، وفي وسطهم الضيفة كيما. وجلس حتى الأعوان والخدم والإماء وبعض الأقارب، ودارت عليهم أنواع المشارب ووضعت أمامهم موائد فيها الثمار اليابسة من جوز ولوز وتين وزبيب وحلاوى وأنواع من لذيذ الرغائف.

بدأت الحلقة بدخول فرقة الهداويين أصحاب الشيخ هَدي، وأخذوا في تقديم قطع من إيقاعاتهم ويتخللها كلام الحكمة الذي ينطقون به، ولم يطيلوا لأن القائد لم يرد إثارة المشاعر الرقيقة لدى النساء الحاضرات إلى حد خروجهن عن حسهن، ثم دخل الحاكي الذي هو قطب الحلقة واسمه بوعمائم. وهو من حذاق هذا الفن، ورث الحكي عن أبيه وورثه أبوه عن أجداده. مشهور بين القصاصين الذين يقيمون الحلقة تحت منارة جامع الكتبيين بمراكش وفي باب بوجلود بفاس، يدخل قصر السلطان إذا دعي إلى إحياء الفرجة فيه، ولا سيما في بعض مناسبات الأعياد. وهو يحكي قصة سيف بن ذي يزن وقصة سيدنا علي مع الغول والنصارى وقصة عنترة بن شداد، وغيرها، وهو الذي يختار ما يحكي، ولكل مقام مقال لديه، يستدعيه الأكابر فيستجيب

لبعضهم ولا يستجيب لآخرين، ومقياسه في غالب الأحيان شهرة المستدعي بالورع أو بعدم الورع عن أكل الحرام، لأن الحاكي يعتقد أنه مدعوم في موهبته بروحانيين أحناف يشترطون عليه مراعاة ذلك الشرط. أخذ بوعمائم يسرد مقامات من تغريبة بني هلال.

بدأ الحاكي وقال : صلوا على الحبيب !

وأجاب من في الحلقة : أنا مصل عليك يا رسول الله.

كررها ثلاثا، ثم قال : كان في سابق الزمان، وسالف العصر والأوان، قوم يدعون ببني هلال، وكان فتاهم المقدار وبطلهم المغوار زعيم يقال له أبو زيد ...

ثم استمر يحكي ويمثل ما يحكيه بحركات قدميه، متقدما ومتأخرا، وبقامته منتصبا ومنحنيا. وبتقاسيم وجهه، باسما وضاحكا وساخرا ومقطبا ومتجهما، وبصوته متوددا أو غاضبا، كل ذلك وعصاه في يده تقوم مقام السيف تارة ومقام الناي تارة، تنعت المسافات البعيدة وتحدد القريبة، والمشاهدون رجالا ونساء، كهولا وأطفالا، مشدودون إليه وأنفاسهم عالقة وأفواههم فاغرة، وأعينهم ساهمة مترقبة، وكان أن قال :

– كان على أبي زيد أن يقتحم الأرض التي طلعت من قسمته ... فاستولى على مدن تلو مدن ... وتلاقى مع البهلوان فاستولى على قلعته ... ثم توجه أبو زيد إلى مدينة مراكش ... فجمع ملكها جيشا للقائه وهزمهم. فقال أحدهم : إنهم قوم بني هلال الذين قتلوا الزناتي، وقد وصلوا إلى أرضنا الآن، والرأي عندنا أن نصالحهم ... ودخلوا البلاد. وقدموا له الدفاتر والأموال ... وأجلس أبو زيد ملكا على العرش بشرط أن يدفع الجزية ...

واستمر أبو زيد بغزو البلاد تلو البلاد ...

وبعد أن استقرت الأمور وهدأت، كتبت سعدى إلى الأمير حسن تشكو همها وكيف أنها مظلومة.

عندما وصل الحاكي إلى هذا القول أشارت السالة بيدها إلى الحاكي وقالت : أعد، أعد !

ففهم الحاكي مرادها، وأعاد : تشكو همها وكيف أنها مظلومة ... واتفق أبو زيد والأمير حسن على الذهاب إلى القصر الذي فيه سعدى وعرض دياب على الرجلين أن يضعا سعدى في آخر الميدان، ومن سبق إليها كانت له، فرضيا، وتم السباق، وجرى الفارسان ...

وقال الراوي : صلوا على الحبيب،

وردد الناس في الحلقة : أنا مصل عليك يا رسول ا لله (ثلاثا)

وتابع الحاكي وجرى الفارسان، وسبق دياب، ولما وصل إلى سعدى ...

فقال الحاكي : صلوا على الحبيب،

وردد الناس في الحلقة : أنا مصل عليك يا رسول ا لله.

وأضاف الحاكي : ولما وصل دياب إلى سعدى ضربها بالسيف فماتت ...

فقال من في الحلقة : ا لله... ا لله ...ا لله ...

وزاد الحاكي : وجن الأمير حسن بموتها، ومزق ثيابه أسى وحسرة ...

وتابع الحاكي إلى أن قال :

- وأراد دياب أن يتزوج بأختها غصبا، وكانت رائعة الجمال، لكن أهلها تآمروا مع الأمير حسن فأدخلوا دیابا على شاب قوي متنكر في ثياب عروس، ولما اقترب من العروس قامت وأمسكت العريس وضربت به الأرض فكادت تدخل طوله في العرض، ثم أوثقته بالحبال، وربطته بالعمود ليذوق العذاب الأليم، إلى أن ...

هنا وقفت السالمة، وقالت :

– أيها الحاكي، دعه في عذابه ...

فضحك الجميع، وقالوا : بالله أيها الحاكي ! لا تزد على رأي سيدتي السالمة :

– دعه في عذابه، دعه في عذابه ...

قامت السالمة والتحقت وضيفتها كيما بغرفتهما بقصبة القائد بعد أن انفضت حلقة الحاكي. وصلت كيما صلاة المغرب وجلست تمازح السالمة متكلفة وهي تشكرها على ما تمتعت به منذ وصولها من عناية أهلها. واغتنمت السالمة انشراح كيما وسألتها عما إذا فهمت كل ما قاله الحاكي بوعمائم، فقالت كيما :

– فهمت أنه قال إن القمر جاء من المشرق، وولد أولادا في المغرب، وأنهم تقاتلوا مع الذئاب من أجل امرأة جميلة لا تترك عريسها أن يستبد بها ...

انفجرت السالمة بالضحك، ولكنها خشيت أن تخجل ضيفتها فتمالكت وقالت :

– نعم يا حبيبتي، تحدث عن بني هلال، ولكن هلالا هذا رجل، إنسان من المشرق، عاش منذ قرون وأولاده قبيلة، وهم أجدادنا نحن ... لذلك يحب والدي أن يسمع أخبارهم من حين لآخر.

فقالت كيما : أفحيث أنت بنت قمر صغير أنت جميلة إلى هذا الحد !

فقالت السالمة : إذا كان كل جميل من أبناء هلال فأنت من بنات هلال أيضا.

فقالت كيما على الفور : إذا كان هلال هذا ولد نساء جميلات وغيره ولد نساء جميلات كذلك فما الفرق بين هلال وغيره ؟

فقالت السالمة : هلال كان يسافر كثيرا ويبحث عن بلاد بعيدة، وليس مثل شجرة الحناء عندكم، لا تكبر إلا عندكم ولا تسافر حتى إلى السفح الآخر من الجبل.

فقالت كيما : أفهم أن الذي يسافر كثيرا لا يلد كثيرا فكيف ولد هلال قبيلة بأكملها، هل كان له آلاف الزوجات، أو كان يقدر على نفقتهن ؟

فقالت السالمة : لكل قبيلة جدها يا حبيبتي، وأولاده يتكاثرون.

فقالت كيما : هل ينتظر منا همو أن نلد له قبيلة كبيرة ؟

فقالت السالمة : أنا لا أزيد على نجمة، وقد صنعت لي أمي أعشابا سأحملها معي، وأنت ستلدين إخوانا وأخوات لنجمة وأحلم بأن أراك تنتفخين مرات وتفرغين، ولا أهتم بوالد أولادك، والمهم عندي أنت.

وقالت كيما : لا أفهم كلامك يا أختي في بعض الأحيان، هل تريدين أن أتعذب وحدي ؟

وأجابت السالمة : لا، لا يا حبيبتي، اعذريني، لقد كبرت في دارنا، ومنذ صغري وأنا أرى الأفراس تحمل وتلد، يا له من جمال !

قالت كيما : وهل تظنين أنني في صحة أفراسك ؟

قالت السالمة : الله يقوينا عليهم، إذا وقع أن حملته بقدرة الله فهو يتكفل بالباقي.

وضعت كيما يدها على بطنها دون أن تقصد شيئا، وتابعت المرأتان دردشتهما إلى أن دخلت خادمة تحمل ماء الغسيل لتناول العشاء.

وفي الغد كان يوم الحناء، واجتهدت السالمة في أن تجعل المراسيم رائقة في مثل بهجة يوم الحناء بدار كيما، وصاحبة

الحناء في دار السالمة تدعى حدُّوم. امرأة عريفة كثيرة المزاح، كثيرة التملق، لم ترتح إليها كيما في قرارة نفسها، ولكنها تحملتها في ذلك اليوم العصيب. وقد استغرقت حدُّوم في تزويق رجلي كيما ويدها اليمنى من الضحى إلى قرابة العصر. وقد أثار غضبها أن كيما امتنعت عن السماح لها بإعادة الرسم الذي في يدها اليسرى وهو لا يكاد يتبين وكانت لم تجدده منذ أسابيع. بل امتنعت حتى عن أن تشرح لها ماذا يعني ذلك الرسم المشكل من نقطة كبيرة في وسط اليد ورسم شبه السنبلة في طرف الراحة.

ولكن هذه الصانعة الماكرة استطاعت بتملقات تمهرت فيها من أن تستدرج السالمة، وكانت كيما قد انصرفت لتستريح في غرفتها محمولة على ظهر إحدى الخادمات حتى لا تفسد حناء الرجلين قبل يبسها. استدرجتها حتى استلت من لسانها أخبارا حول كيما وعوائد أهلها بخصوص ذلك الرسم. وزادت حدوم بأن أغرت السالمة حتى قبلت أن ترسم لها في يدها اليمنى، هي، رسما مماثلا، فالسالمة لم تكن في قرارة نفسها تعطي كبير أهمية لما قالته صاحبة الحناء في دار كيما عن قدسية ذلك الرسم وخصوصيته وآثاره السحرية على كيما وقد هيئ لها بطقوس معينة، ولم تكن السالمة ترى سوى خرافة في ما حكته تلك المرأة من قصة شجرة الحناء والقمر في غابر الأزمان. والسالمة تعمل دائبة على أن تخرج كيما من انطوائها ومن مبالغتها في أخذ كثير من الأمور بجد زائد في نظرها عن الحد المقبول. وترى أن مسحتها التنسكية وقلة انبساطها يضر بجمالها ويحرمها هي من التعبير لها عن كل ما تكنه لها، ويحد من قدر التجاوب الذي تسعى إليه معها. ولذلك فإن كل ما فكرت فيه هو أنها بعدما رسمت في يدها اليمنى ذلك الرسم الممنوع هو أنها ستداعب كيما وتقول لها : تعالي نشابك

اليدين حتى نطبق على بعضهما قمرينا وشجرتينا ! فستكون في ذلك متعة حقا.

ذلك أن السالمة لم تكن تتوقع الغضب الذي واجهت به كيما جرأة واضعة الحناء وتواطؤ السالمة في حمل ذلك الرسم، فقد فوجئت كيما لما نظرت إلى الرسم وصرخت بالويل وكتمت أنفاسها ثم خبأت وجهها بيديها، وتداركت نفسها حتى لا تغضب مضيفتها، وتصنعت ابتسامة وكظمت غيظها حتى ظنت السالمة بالفعل أنها قد تغاضت عما وقع.

وفي غده كان أثر التغيير في المزاج باديا على كيما، ولكنها تصنعت الانشراح، وأغضبها من جديد أن السالمة أتت إليها بساحرة وقالت لها إن هذه المرأة تستطيع أن تحول الرسم الذي في اليد إلى الصدر، وإذا قبلت فإنها تستطيع أن تصنع لنا فرجة بهذا نتسلى بها، بعد عصر اليوم. ولكن كيما لم تعر لما قيل لها أي اهتمام، واكتفت بأن حركت رأسها بالرفض وقالت : لا نكشف في عوائدنا على الصدر إلا للمولود إذا أردنا أن نرضعه، وتبادلت السالمة والساحرة النظرات وكأنهما تأسفان على إصرار كيما على انكماشها، ثم دخلتا مع كيما في موضوع آخر.

وفي ما بعد عصر ذلك اليوم جلست السالمة وضيفتها وأم السالمة وبناتها وبعض الإماء المقربات لشرب القهوة. وكان في تراشق نظرات بعضهن وتبادل الابتسامات سر لم تفهمه كيما، ولكنها بعد حين رأت أن السالمة وبعض الحاضرات قد أكثرن الضحك بلا سبب. أما كيما فقد أحست بحرارة زائدة في جسمها واحتقان دماء وجهها، وارتخاء شفار عينيها وشفتيها وبشيء يقرص أرنبة أنفها، ثم أحست بضيم لا تدري مصدره حتى اغرورقت عيناها بالدموع، وقامت تريد الحمام فإذا بها تجد في نفسها حاجة إلى القيء. وتعذبت كثيرا قبل أن تستقر أحشاؤها في بطنها.

ذهبت إلى غرفة إقامتها وتمددت وهي تحس بثقل في رأسها وصفير في أذنيها ودوار خفيف يذهب عنها ويعاودها. ولما أدركتها السالمة ورأتها على تلك الحال وهي لا تكاد تفصح عما بها، استنجدت بأمها والتحقت بهن إماء عارفات، وقلبنها ظهرا لبطن وحملن إليها محاليل أعشاب، وعصبن جبهتها بمنديل، ثم عملن على تخفيف ما صار يعلو من الحرارة بكمادات من القطن غمست في الماء المغلى، وقمن بإشمامها ثوما وزعفرانا.

وبعد ساعة من المعالجة والعناية، عاد إلى كيما شيء من استقرار نفسها حتى كانت تحاول الكلام وهي تعتذر للسالمة على ما تسببت فيه لها من إزعاج ومتاعب. وما أن تأكدت السالمة أن ضيفتها قد استعادت وعيها حتى أغدقت عليها عبارات الحنان والعطف وهي تقول لها : سامحيني، لا أدري ما عملت، لا يجوز أن يعاكسني الحظ إلى هذا الحد، لا يجوز أن تتعرضي لمكروه في دارنا، بل لا يجوز أن ينالك شر على الإطلاق. لأنك كاملة الخلق. أعينيني بقوة التجلد فإننا لن أنسى لك جميلك. لا تلتفتي إلى ما فعلته صاحبة الحناء، سأمسحه الآن بماء حامض، بل أنا أفضل قطع هذه اليد على أن ينالك مكروه يكدر صفو ساعة من حياتك، أتوسل إليك، سامحيني، سامحيني !

فعلت محاليل الأعشاب فعلها في كيما فاستسلمت للنوم، لكن عارفة من إماء أم السالمة قالت إنها ستقضي ليلها في الغرفة المجاورة بأمر من سيدتها حتى إذا احتيج إليها في الليل جاءت بالقناديل وبما تحتاج إليه الضيفة العليلة.

انزعجت السالمة لتلك الفكرة لأنها لا تريد أن تتصور التعب يعاود كيما بعد الذي حدث، لكن الحظ عاكس أحلام السالمة لأنها استيقظت في منتصف الليل على أنين صاحبتها وهي تتوجع من ألم في بطنها. وكانت الأمة الحارسة قد سبقت السالمة في الإفاقة

من النوم. وكانت حائرة في ما ينبغي أن تفعله لأنها لا تريد أن توقظ سيدتها أم السالمة. لكن السالمة لما رأت صاحبتها على حالة الألم المضن تلك، ذهبت تنقر على باب غرفة أمها وأيقظتها، وعكفت النساء الثلاث على معالجة المريضة بمحاليل أخرى وبإحراق البخور وتجفيف العرق إلى أن رأين كيما تقوم بشقها الأعلى وقد داهمها القيء من جديد ويدها على فمها، وهي تشير بالأصبع تطلب الإناء. ولم يصل الإناء حتى كانت قد أفرغت ما تبقى في بطنها، لأنها لم تأكل شيئا بعد الذي حدث لها وقت العشاء غير الأدوية التي أُرغمت على حسوها.

عادت مرة أخرى تتلوى من الألم وتئن وهي كاظمة، وتتلمظ واللعاب يسيل من فمها وعيناها جاحظتان، ثم جاءها إحساس بالحاجة إلى الحمام فلما قامت رأت النساء الثلاث في ساقها أنها تنزف من الدم، وأخذهن الذعر الشديد، وانفجرت السالمة بالبكاء، وعمدت الأمة بمرافقة كيما حتى أوصلتها إلى الميضاءة. وبعد تردد على بيت الماء عدة مرات وقع الذي كان سيقع وهو أن كيما أجهضت بما في بطنها منذ أقل من ثلاثة أشهر.

ولما رأى النساء تلك الفاجعة تأكد لهن ما كن توجسن، وعرفن العلة وقمن بكل ما يجب في ذلك الموقف، وقدمن كل وسائل تخليص بطن المريضة وإبراء حرارة جسمها وتقويته وتدفئته، وفي وقت الفجر سري عن كيما ألمها واستسلمت لنوم عميق.

واجهت كيما قدرها بما عهد فيها من اليقين والصبر وقلة التشكي ومجانبة التأفف. وكانت الصفرة تغالب نضارة وجهها في حرب ضروس بسبب ما تعرضت له من النزيف. أما أهل السالمة غير أمها وأمتها الكبرى فلم يطلعوا على شيء مما وقع، وقيل لهم أن الضيفة تحتاج إلى بضعة أيام من الراحة قبل أن تسافر.

وأضحت السالمة عاجزة عن كل كلام، تجلس إلى جانب فراش صاحبتها وتخاف النظر إليها، وتشد بيدها وتلمسها بلطف وتضعها برفق وتنصرف وتذهب إلى البرج الموالي وتنظر من النافذة إلى الأفق وتشعر بأن الذهول أوقف إحساساتها وأفكارها، ثم تعود إلى كيما لتواسيها أو تتحدث إليها بنفس الحركة وهي لا تنبس ببنت شفة. كذلك قضت نهارها الأول. وفي المساء كان حال جسم كيما قد استقر، ولكن السالمة بعد انحباس كل الخواطر عند الصدمة الأولى قد وجدت نفسها فريسة لتساؤلات متدافعة، فهي كانت تبكت نفسها تارة وتتبرأ مع نفسها من معرة ما وقع تارة أخرى. فهل يا ترى أجرمت في حق كيما وهي تحبها كما لا يعلم إلا هي ؟ وهل ذلك الرسم الذي نقلته بالحناء من يد كيما إلى يدها هو السبب في ما وقع حقيقة ؟ ولو صح ذلك لكانت هي المسئولة، لأنها استهترت بشيء، لم تفهم معناه. وكيف ستتحمل ذرة من الذنب طول حياتها لو صح أن لعمل من أعمالها أو تفريط ولو قليل من جانبها أثرا في ما وقع لكيما ؟

باتت وظلت ثم باتت أياما وأياما إلى ما لا نهاية وهي تتعذب بهذه الأسئلة، وبما شابهها، وهي لا تستقر على رأي، وتحيرت كيف أن الإنسان لا يستطيع في حالات كثيرة أن يجزم بما إذا كان مذنبا أو بريئا، كل الوقائع أمامها، ولكن هناك هذا الشيء الخفي يواجهها، دائما هذا الشيء الخفي الذي يكسر عمود يقينها رحمة بها تارة وقضا لمضجعها تارة أخرى، قبل هذا كله، لماذا ينزل المكروه بإنسانة لا تمثل إلا الخير والحسن والجمال ؟ لماذا تنتغص عليهما سويعات من الهناء والمتعة ؟ يهمها أن تعرف الجواب، ولا جواب، لا شيء هناك إلا المرارة التي لا تدري متى ستنمحي عن وجدانها، ربما يكون ذلك عندما تتعافى كيما، وتحمل مرة أخرى وتفرح بمولودها وتعود معها إلى هذه الدار

وتقضي معها أياما كلها مرح لا يكدر صفوه بأس ولا شائبة. هذا ما يهمها، ولا يهمها أن يغضب همو أو أن يجد تعلة ليزيد من حنقه عليها، ولا يهمها أن يقول من في دار همو إن السالة تسببت في إجهاض ضرتها بأكل دس لها أو بتعريضها لعين شر رمقتها، أو غير ذلك، فالناس معذورون في ألا ينتظروا خيرا حيث يتوقعون الشر، فالخروج من المألوف يزعجهم.

27

سرح همو من حضرة السلطان بعد الإقرار بأفعاله في دخول أرض الجيران وبعد إعطاء الضمان بعدم العودة إلى مثل ذلك، ومع ذلك فقد وقع تذكيره بالحزم اللازم تجاه الشيوخ وتجاه إخوانه في القبائل حتى يسود الأمن وتؤدى الجبايات على المعتاد.

وصل همو إلى داره بعد أسبوعين من رجوع كيما والسالة من زيارة السهل، ولم يبلغ علم همو ولا أي فرد من أهله ما وقع لكيما من الإجهاض، لأنهم لم يكونوا على يقين تام بحملها وإن ظهرت عليها كل عوارض الوحم، ولم يجرؤ أحد على مساءلتها. وقد تحملت كيما عبء إنكار ذلك للقليلين الذين أشاروا إليه أو تساءلوا عن حالها بالنسبة لذلك الشأن الخاص. فالحمل يحاط بالكتمان في شهوره الأولى ويمكن أن يصدق ويمكن أن ينكر أو يخفى، والنساء لا ينكرن وجود أعراض الوحم الكاذب.

أظهرت كيما التعب والمرض عند استقبال همو، وتصنعت السالة حماسا لإرضائه والاحتفاء به في حدود بضعة أيام حتى تكفي كيما محنة تعامل لم تكن قد تهيأت له بعد الذي وقع لها. والمرأتان لا تتفقان على شيء، ولكنهما تتصرفان كما لو كانت إحداهما تسكن مشاعر الأخرى، وقد زاد إكبار السالة لصاحبتها بعد أن تسترت على ما حدث لها في السهل، وهي التي أرادت ذلك وفكرت فيه وفرضته على السالة وأمها ومن حضر مرضها من إماء أم السالة، وهن كعمق البئر في الكتمان.

كان همو بدوره منهكا بعد أيام الخوف والانتظار التي قضاها في الحضرة قبل أن يُنظر في القضية التي استدعي من أجلها، وبعد عودته لم يظهر لأحد لمدة شهر كامل، وقد تكفل ابن الزارة بتهيئ

حاجاته في الاستجمام، يطيب له النوم بالنهار بأنواع العقاقير وينوع له التسلية في الليل بأنواع الفرجة وألوان المرح.

وبين أكل ونوم وفرجة كان همو يذاكر ابن الزارة في الخطط الجديدة، خطط تمكنه من مواجهة مصاريفه وتسديد ديونه والإنفاق على أبهته وتكثير أصدقائه وحلفائه، كل ذلك بلا حاجة إلى إثارة ما يبرر شكوى إخوانه لدى السلطان. ولذلك عمل ابن الزارة مدة غياب القائد بالحضرة، فرصد عيونه أكثر من ذي قبل حتى عرف من جديد ما طرأ من عيوب الشيوخ والأعيان ووجوه إثارة الشقاق والمنافسات والشنآن، وكان أول ما عمله بعد رجوع القائد استدعاء الشيوخ ومع كل شيخ بعض أعيان إخوانه حتى يحضروا إلى دار القائد بصفة مهنئين على التكريم السلطاني بتجديد الثقة في القائد، وأوعز إلى القادمين للتهنئة بمقادير من المال تناسب المقام يقدمونها تبريكا وهدية. وقد نجح ابن الزارة في خطته لأن الشيوخ علموا باستدعاء أعيان من قبائلهم فخافوا إن هم تخلفوا أن يكون لغرمائهم حظوة عليهم لدى القائد، ولأن الأعيان اعتبروا اختيارهم للقدوم على القائد مع الشيوخ تشريفا وحظوة، ولربما طمعوا في ما هو أعظم من ترشيحهم ليحلوا يوما مًا محل الشيوخ المستبدين بهم.

وكانت تلك المناسبة فرصة جاء فيها الشيخ احماد نايت ابرايم صهر القائد، والد كيما، مصحوبا بزوجته، وحمل الشيخ مالا وهدايا معتبرة سر لها القائد غاية السرور، وأعظم قدرها، وعرف صهره بوجهه لأول مرة، ووقف على رزانته وحكمته وشممه وتواضعه، وكان كلما جالسه يتأمله في شيبته ويحسب كل شعر من لحيته درعا واقية ضد عوادي الزمان وزلات الحكم، ويقول في نفسه : أين لي من ذاك، وكيف حيلتي إليه ؟

ولربما سألت أم كيما ابنتها في تلك الزيارة عن أحوالها الزوجية بقدر ما تسمح به الحشمة في عوائد الأمهات والبنات في قوم كيما، ولربما أخبرت كيما أمها بما جرى لها من الحمل والإجهاض. ولكن الأمر إن وقع لم يثر أي ضجة ولم يظهر على الأم تغير لا في حق السالمة ولا في حق غيرها، بل إن الكلام بين أم كيما وبين السالمة كان كله إطراء لوقائع زيارة كيما لدار السالمة ولحسن ضيافة السالمة في دار أم كيما.

بعد رجوع الشيخ احماد وزوجته أدرك همو حقيقة أنه متزوج ببنت قوم أكرمين لهم قدم في الرئاسة والنخوة، وأن كيما ليست عنده مجرد رهينة حسناء ضمانة من أهلها المغلوبين، وقد خلق هذا الشعور عند القائد ميلا جديدا إلى كيما، فحاول على قدر فهمه ومعرفته أن يتحبب إليها، ولكن كيما ظلت تلك الناسكة المطيعة التي تؤدي الواجب أحسن أداء، ولم يعجب ذلك زوجها القائد، غير أن كيما خرجت من تلك الالتفاتة حاملا من جديد.

أخبرت كيما ضرتها السالمة بخبر حملها بعدما تأكد لها، وسرت له غاية السرور، واعتبرت أنه يكاد ينسخ كل الآثار السيئة التي تركها فيها إجهاض كيما وهي في ضيافتها، وأكبرت سخاء همة كيما لأنها بإخبارها قبل غيرها حرصت قبل كل شيء على أن تفرج عنها ذلك الغبن الذي لحقها من جراء حادثة نغصت عليها أفراحها في دار أمها وكيما في ضيافتها، وعلمت مرة أخرى اعتقاد كيما في صدق عواطفها نحوها. فهي الآن تزرع اليقين في قلب السالمة، وكان يحتمل أن تظل إلى الأبد مشوبة الخاطر بشيء من سوء الظن بعد ذلك الذي حدث. وهذه فرصة أخرى للسالمة حتى تستمتع بما اعتبرته مجلبة لسعادة لا تقدر ونشوة لا توصف، وهو أن ترى من تكن لها عواطف صادقة تمتلئ وتمتلئ بحياة جديدة تضفي عليها البهاء والنضارة وسمو المعاناة ثم تضعه مخلوقا

لم يكن، وقد أودعته كل مقومات الحياة ويمتد فيه جسمها ونفسها وتشبثها بالحياة.

استأنف القائد أشغاله في الرئاسة واستغرقته من جديد تدبيرات الأمور ونصب الحيل للسيطرة، وغايته توفير المال. وبينما كان وكلاء تجار النصارى يقشرون الأشجار ويقتلعون الأزهار ويستأصلون الأعشاب الصالحة لكل دواء وعقار، طلب القائد من صاحبه باروخ أن يبحث عن تجار آخرين من هذا الصنف يكونون يبحثون عن مشتريات من هذا القبيل غير معروفة الأهمية عند القائد وأهله وتكون مجلبة للمال من الأجانب، سواء كانت مما فوق الأرض أو مما تحت الثرى. ونجح باروخ في الحصول على المال من تاجر حاجته في نوار الصبار وتاجر آخر يبحث عن حجر أسود يصنع منه القار ثم تاجر ثالث يجمع ما ينفع في تركيز الصباغة من علق الغدران ورابع يبحث عن المادة التي منها يصنع القطران، وهكذا توالى التجار على إيالة همو، وبقدر ما قدموا من المال أطلقت لهم الأيدي في أرجائها، ورأى الناس رؤوس تلك الجبال ينتف زغبها وتنهب ثمارها، وقد نصبت الموازين في كل شعب وقرية، وبيعت أشياء لم تكن تباع، وكسدت بضائع كانت من قبل مختصة بالميزان والثمن، وقال الناس : لو كانت المجذوبة ما تزال على قيد الحياة لقالت بلا وجل ولا خوف من كلامها المنظوم في وصف الحال ما يبرد الجوف.

استرجع القائد ما فرض له من المال الذي ضاع في النفقات والذخائر، واستبشر من جديد، وطلب صاحبه باروخا فحضر، وقال له : أنت منجدي في المعضلات، فهل تعرف كيف تجلب الكرستيات ؟

لم يفهم باروخ سؤال القائد، وتردد في الإقرار بأنه لم يفهم، ولما رأى القائد شواربه تتراقص ولسانه معلق بين صدغيه وهو يتلعثم قال :

– الواقع أنني نسيت الاسم كما هو، وأقصد النساء اللائي يؤتى بهن من جهة بلاد الأتراك، وهن مشهورات بالجمال وحسن المعشر ... ومنهن زوجات عند بعض الوزراء المرموقين الذين جربوا خائبين هذه الأجناس البلدية من بنات قبائل السهل والجبال على السواء...

تشجع باروخ وظهر أنه فهم المقصود وقال :

– نعم يا مولاي، لي ولد عم في الدار البيضاء، عاش شبابه في الجزائر، وزار بلاد الأتراك، وسكن قرطاجنة، وباع واشترى في الخزيرات، وله زوجة في مالقة، وتجارة في جبل الطر. سأذهب لآتي به إن كان حاضرا في بر المسلمين، وإذا كان حاضرا فهو ولا شك لا يرد لي طلبا، وهو يفهم في هذه الشئون، ويفهم كيف يختار من بين الجواري... هل يأذن لي سيدي القائد في السفر للقاء هذا الرجل الماهر !

أذن همو لباروخ في السفر، وأعطاه ما يلزم من النفقة، وأعطاه قدرا من المال ليغري به السمسار الذي سيأتي به، لأن باروخا قال إن ابن عمه ممن ذهب الحياء من وجههم بمخالطة النصارى حتى إنه لا يتحرك إلا بمقابل من المال ولا يراعي حرمة الأكابر.

عاد باروخ ومعه ولد عمه واسمه ندري، وهو اسم النصارى لا اسم اليهود، وهو طويل الشعر عاري الرأس، بلا قبعة اليهود المعروفة بالشاشية، يلبس ثيابا كثياب النصارى، أعلى صدره مفتوح الطوق، كثير البشر كثير الضحك، لم يقبل يد القائد وإن كان قد انحنى عليها، يتكلم إليه بجسارة وعينه في عينه بلهجة مختلطة بكلمات أخرى غير مفهومة، يحرك يده ولا يستقر في

مكانه عند الكلام، وربما ربت على كتف القائد كما لو أنه كان أليفه في الحياة. وقد رأى القائد منه تلك الجرأة فكان لا يجالسه بمحضر أحد غير باروخ حتى لا يسقط عنه الهيبة مع الآخرين.

تعجب القائد لكون ندري يعرف مطلوبه، وقد صحح له اسم ذلك الجنس من النساء، ونطق به كما نطق به الطالب الذي حدثه به في الحضرة، إنهن الشركسيات. ولن ينسى القائد ذلك الاسم مرة أخرى. ثم إن ندري يعرف الطريق إلى بلدهن البعيد ويعرف أنواعهن وأثمانهن وخصائصهن، وهو متفق مع القائد ومع مخبر القائد على أن الواحدة منهن هي البلسم لكل الجروح. وما حرم منهن الرجال إلا لجهلهم بوجودهن أو لبعد موطنهن أو لغلاء ثمنهن هناك، وغلاء ثمن نقل الواحدة منهن في الصون والحفظ إلى بلد من بلدان المغرب. وزاد ندري في إقناع القائد بأن أخرج إليه من جرابه كتابا فيه خيالات بالمداد لأولئك الشركسيات، فإذا هن كالحوريات كما يتصورهن الناس: خصورا وقدودا وخدودا.

سبعة أيام من كلام اليهودي الجريء وأوصافه أغلت الدم في عروق القائد وتأجج بها خياله حتى صار يشاهد طيف الشركسية المنتظرة وكأنه يقبل عليه ويبتسم له ويختفي، وفي الليلة السابعة اختلى همو باليهودي ندري وقال له : قل لي الآن ما مدة السفر وما كلفة قضاء الغرض برمته ؟ فأجاب ندري :

– السفر يكون عاما ونصف عام : ثلثه في الوصول إلى المكان بعد قطع الفيافي والقفار وخوض الأنهار وركوب البحار، وثلثه لاختيار ذات السعد زمردة العقود، وقد يقتضي الحال كراء سماسرة يشدون الرحال إلى بلاد بعيدة في بلاد أناضول وما وراءها، وثلث المدة في الرجوع.

قال همو : هذه المدة طويلة ! وما هي النفقة التي بها يقضى الغرض ؟

فأجاب ندري : لا أريد أن أغير خاطر سيدي القائد، فمطلوبك متعذر لأن عملة البلد هنا كلها فضة ونحاس وعملة بلد الشركسيات كلها ذهب، ولا أدري من أين ستأتي بالذهب، ولو توفر فإن ألف ألف منه هي ما يكفي. أما الآن فسأعود إلى أشغالي حتى تحضر المال وأعود لخدمتك، فأنا أعبد أصحاب الذوق من أمثالك.

28

كان أول ما فعله القائد همو في سعيه لتحصيل دنانير الذهب هو استدعاء الشيوخ واحدا واحدا وامتحانهم لانتزاع ما قد يكون تحت أيدي بعضهم من عملة المعدن النفيس الموروثة عن الأجداد، وما عند نسائهم من حلي الذهب. ولم يسفر ذلك التنقيب عن نتيجة مرضية. ولم يستثن القائد في تنقيره أحدا من الشيوخ، إذ دفعه الطمع وجرأة الوشاة، وأعماه تخيله للشركسية التي أراد أن يبعث في جلبها إلى حد استدعاء أحد إخوة كيما وتثقيفه ثلاثة أيام وهو تحت السؤال ومضايقات الأعوان وتهديد الزبانية. كان القائد يعتقد جازما أن ما يطلبه يوجد عند صهره، وأراد أن يتحقق من ذلك ويعرف مخبأ الذهب من الولد قبل أن يرسل مبعوثيه لمباغتة الشيخ المتهم. وقد شاع خبر هذا الصنيع عند الناس وإن لم يعرفوا حقيقة طلب القائد. وبلغ أذن كيما أن أخاها قضى أياما ولياليَ في المحنة، فارتاعت وانتكست حتى إنها أجهضت بإسقاط ما كان في بطنها مرة ثانية.

وكل ما فعله همو لإظهار أسفه لما وقع لزوجته كيما هو الانتقام من إحدى الخادمات، اتهمت بأنها هي التي أوصلت خبر إهانة ولد الشيخ احماد إلى أخته، وذلك بأن أرسل الخادمة مع نخاس إلى أحد أسواق السهل لبيعها. وكان مما زاد حنق همو على ولد الشيخ احماد أن هذا الشاب الفارس الوسيم حمل إلى السالمة في مرة سابقة ما كان أهله قد وعدوها به من شجرة حناء تغرسها في وقتها بدارها حسب رغبتها.

أما السالمة فقد حزنت لإجهاض كيما، وعكفت على تخليصها وتمريضها ومواساتها. وطال ذلك التمريض عدة أسابيع لأن كيما نزفت كثيرا، وكادت تذهب عنها نضارة وجهها مدة، وبعد أن

مثلت للشفاء زادت عما كانت عليه من قلة الكلام، ونقل الخادمات إلى السالمة أن كيما تكثر النظر إلى المرآة بشكل غير معهود فيها. كأنها تخاف على جمالها وهي التي لم تكن تشعر أحدا أنها تحس بامتلاكه أو تسعى إلى إظهاره. تفعل ذلك وكأنها تسرق بحيث تلتفت يمنة ويسرة كالخائفة التي تطاردها الأشباح.

تذاكر همو وصاحبه ابن الزارة عن إجهاض كيما ومرضها، وإغراق السالمة في شذوذها من العناية بالخيل وسقي شجرة الحناء المجلوبة لها من دار كيما. والانشغال بكيما وبنتها نجمة وازدياد نفورها من القائد، وتبرمها بشخيره وعدم الظهور بهداياه من اللباس والحلي وغيرها. وفكر همو في تطليقها. لكنه تخوف من انتقام أبيها، وفكر في تطليق كيما أيضا، لأنها لن تعطيه الولد الذي يريده خليفة له، وقال إنها تصلح إماما في المسجد لو كان يجوز لها ذلك، أكثر مما تصلح زوجة.

التفت ابن الزارة إلى صاحبه همو وقال له :

– لا تطلق أيا منهما لأنني لا آمن والدها عليك. وقد تعرض للخراب بتطليق إحداهما كل ما بنيناه. ولا تطلقهما لأنهما ستسعدان بذلك. ولو فعلت لتزوجهما فارسان من الذين لا يجوز أن يطلعوا على أسرارك. لأنهم لو اطلعوا على بعضها ونشروه لتكلم فيك الناس، وأنت لا تحب ذلك.

قاطعه همو وقال : أي أسرار وأي عيوب تقصد ؟

فقال ابن الزارة : المطلقة لسنة كاذبة يصدقها من يسمعها لأنها غاضبة كالهلوف في الغاب لا يملك سوى أن يطعن بأنيابه عندما يصاب بطعنة بالغة غير قاتلة.

قال همو : دعنا من حديثهن، لقد انفتحت في وجهي السماء منذ سمعت كلام طالب الوزير، وأخبرتك به وأنت لم تفعل

من أجلي شيئا لحد الآن. وقد يئسنا من إيجاد الذهب عند الشيوخ.

فقال همو : بلى. قد فعلت. وغدا يصل الذي بيده المفتاح.

وفي ضحى اليوم الموالي وصل إلى قصبة القائد خادم كان أرسله ابن الزارة إلى مراكش. وصل ومعه شخصان كلاهما حليق الرأس طويل اللحية غائر العينين. بينهما شبه كبير. أحدهما في سن الكهولة والآخر قد ابيض شعر وجهه. وكلاهما يضع الكحل في عينيه. وفي معصمه سوار من نحاس. وفي أذنه اليسرى خرصة صغيرة من الفضة. وصلا راكبين على بغل والخادم على فرس. وحارس الخادم يسوق حمارا يحمل صندوقا به ملابس وأسفار.

قدم ابن الزارة إلى همو ضيفيه وقال له : هذان الطالبان يعرفان أين يوجد الكنز الذي تبحث عنه.

تعجب همو ولم يرتع لما سمع لأنه ألف من خادمه أن يحسن التدبير. لكنه شك في أن يستطيع هذان الصفراويان الغريبان استخراج كنز كان الأولى بهما أن يحتجناه.

فقال همو : وأين يوجد الكنز ؟ وكيف عرفاه ؟ وعلى أي شيء يتوقف استخراجه ؟

فقال ابن الزارة وهو ينظر إلى أكبر الرجلين سنا :

- تكلم أيها الطالب وأجب القائد عن سؤاله !

فقال الطالب : العهد بيننا على الكتمان. أخبرني بالكنز مخبر من الروحانيين. أحكمه باسم أخذته بالإذن عن رجل من اليمن لقيته في الحج. وقد جربت الروحاني ولم يكذب منذ عرفته. وصف لي مكان الكنز بين جبلين عاريين في طريق الصحراء. وهو في وسط مغارة تحرسها أفعى لها قرنان من العمر. سنطردها بإحراق حجر صلبان. نحرق منه مقدار عبرة في الثلث الأخير من ليلة الجمعة.

وقال همو : ولماذا لم تذهب إلى هذا الكنز وتستخرجه لنفسك من قبل؟

فأجاب الطالب : العهد الذي بيني وبين الروحاني ألا أسأله ما لم يرد على سؤال من غيري. فلما ورد سؤالكم سألته فدلني على الكنز الذي هو في إيالتكم. وهو من رزقكم لا من رزقي. أما أنا فإنما أبيع البخور وأقبض مقدار ما أشتري به الذبيحة. لا غير. ونشوتنا نحن قراء الأسفار في أن نستخرج الكنز للآخرين، لأننا لو استخرجناه لأنفسنا لاشتغلنا بإنفاقه. ويجرنا ذلك الإنفاق إلى ارتكاب أمور يسلب بها منا سر الصنعة. والمطلوب أن يدخل معنا الغار عبدان صحت عبوديتهما. يغتسلان بماء زهر البرتقال المركز بشيء من الشب. يستطيعان حفظ الوضوء طيلة مدة بقائنا في الغار. أي مدة التعازيم. من وقت المغرب إلى وقت الفجر. ووقت إخراج الكنز من الثلث الأول إلى غاية طلوع الشمس. ولابد من أن يكون العبدان من ذوي الجأش الرابط. لا تتزلزل همتهما مهما بدا لهما من الأمور المخيفة أو المضحكة أو المستقذرة. ولا بد أن يكونا ممن يحفظون الأسرار. لأن بعض أصحاب السلطان يراودنا على هذا الكنز منذ مدة. ولكن الجدول الذي توسل به من أخبره به غير تام التربيع. يعلم منه بوجود الكنز في هذه الجهات ولا يحدد مكانه. ونحن لم نسعفه لأن الروحاني لم يجبنا عن سؤاله. ولعل السر في ذلك أن حارس الكنز من الجن صار يغيب عنه في بعض الأحيان لأنه ابتلي في هذه الشهور بسماع صوت قينة ببلاد السند تتلو القرآن على سيدها المالك لها. يتداوى بحسن تلاوتها من علة أصابته. ونحن لن نباشر إخراج الكنز إلا وقت غيابه. فإذا فاتتنا ليلة جمعة انتظرنا إلى ليلة الجمعة الموالية. وعلى كل حال فالإذن حاصل عندنا. ويكون الأمر خيرا إن شاء الله.

انصرفا الطالبان إلى غرفة إقامتهما بعد أن تم غسلها وتبخيرها وفق الشروط. لأنهما ملتزمان بأوقات وأوراد في مكان بالغ الطهارة. وأخذ همو ينظر إلى صاحبه ابن الزارة في صمت ويغض بصره ليستغرق في التفكير والتخمين. فهو يصدق تارة ويكذب تارة أخرى، ويقول في نفسه. إذا صح هذا ووجد ابن الزارة حلا لمشكلتي هذه المرة أيضا فإنني سأستسلم له وأتبع تدبيراته ما حييت. وإذا حصلت على الكنز فقد يكون فيه ما أجلب به الشركسية وقد يفضل منه ما أؤدي به الديون وأرد مال تجار النصارى الذين يأكلون غلات جبالي ويستخدمون الأجلاف من أهل القرى ويبصرونهم بأنواع من الجرأة لم نفكر فيها عندما أطلقنا أيديهم في جمع ما أرادوه من مختلف الغلات. وفي لحظة قدرها كومض البرق، قال همو في نفسه : أليس ابن الزارة نفسه رجلا من الجن دخل في خدمتي بعد أن اتصف في شكل آدمي ؟ أليس يدل على هذا الانتحال أنه لا يهتم بالنساء وأنه يكره باروخا ويعمل ما في وسعه ليبعده عني ؟ وأنه لا يأكل الملح في الطعام ؟ توقف همو عن التخمين في شأن صاحبه ابن الزارة وقرر أن ينتظر إلى ما بعد إخراج الكنز. فقد يكون الطالبان من النصابين الذين لا دراية لهم بأمور الجداول ولا صلة لهم بعالم المخلوقات الروحانية. وإذا أسفر الأمر على خداعهما فقد يستحقان أن يفتك بهما دون علم من أحد. ولكنه تذكر ما قاله كبيرهما من الاتصال بذوي الجاه. ولا شك أنهما أخبرا بوجهتهما عند السفر. فيكون الحزم إبعادهما عنه في جميع الحالات. ولكنه سيواخذ صاحبه ابن الزارة الذي ورطه في هذا الاتصال بشخصين مجهولين ظن بعد تحر شديد أنهما أمهر المشتغلين بهذا الشأن في جهات مراكش وسوس بأكملها.

خرج الطالبان ومعهما ابن الزارة والعبدان تحت ستار الظلام من فجر يوم الأربعاء. وباتوا في قرية قريبة من المكان المقصود عند أرملة من أقارب خادمة بدار القائد. وفي ضحى الغد خرجوا إلى المكان المعلوم في وسط غابة العرعر. واستغرق الطالب المسن ما بين الظهر والعصر في التعزيمات التي قادته إلى مكان مغارة الكنز بدقة كاملة. وكانوا يسمعون في وقت التعزيم أصوات كلاب تنبح بكثرة ولا يحدد جهة صوتها. فظنها ابن الزارة كلاب رعاة على مقربة منهم. وخاف أن يكونوا سبب افتضاح أمرهم. ولكنه كان ممنوعا من السؤال. وهذا هو السر الذي تم الاتفاق عليه بين الخمسة أشخاص. لا كلام ولا سؤال عن شيء مهما كان حتى يستخرج الكنز.

وصل الرجال الخمسة إلى شعب منحرف عن الطريق. وسلكوه حتى انتهوا إلى صخرة كلسية بيضاء عظيمة فوقها من أعلى السفح شجرة عرعر لم يبق منها سوى جذع وبدايات فروع مهشمة. فأشار الطالب المسن وحطوا الرحال. أخرجوا الفؤوس وبدأ العبدان والطالب الأصغر في الحفر تحت الصخرة. بينما كان الطالب الآخر يتمتم بقراءاته. ولم يطل الحفر حتى بدا ثقب من فم مغارة. وعندها أشار الطالب بإخراج المجامير فأوقدوا النار ووضعوا البخور على الجمر وواصلوا الحفر. وكانت ريح خفيفة تدفع دخان البخور إلى الداخل. ولما حفر في الباب قدر ما يدخل منه الرجل الوسط ظهر أول المغارة وقد اكتنفه دخان البخور كثيفا. وزاد الطالبان في تقديم المجامير وإحراق البخور بداخل المغارة. وواصل الطالب تعزيماته. وبعد ساعة رأى الرجال أن الدخان بدأ ينسحب إلى الداخل. وتقدم الطالبان وحدهما. وأمامهما المجامر. ثم انسحب الدخان مرة أخرى وتقدم الرجلان تحت ضوء القناديل. جرى كل ذلك والعبدان يتصببب عرقهما من الخوف

وابن الزارة قد انتصب شعر رأسه. وثلاثتهم بباب المغارة ينتظرون. وهكذا. وفي وقت مُا صفق الطالب بيديه إيذانا لابن الزارة والعبدين بالدخول. فدخلوا وأرجلهم لا تكاد تحملهم. وفسح لهم الطالبان فإذا أمامهم ثلاث قدور متوسطة لامعة الطين منتصبة وعلى فوهة كل قدر ختم بعجين أبيض لامع لم يتشقق ولم يتلوث. وكأنه أودع هنالك في ذلك اليوم نفسه.

حمل العبدان القدر الأولى وهما منحنيان متراجعان بالمؤخرة نحو الباب حتى أرسياها خارج المغارة. وهكذا فعلا بالأخريين. وخرج الطالبان تاركين مجامر البخور وراءهما. وعمل الأربعة تحت نظر الطالب المرتل للتعزيمات على طمس باب المغارة وسده بسرعة فائقة. ثم حملوا القدور الثلاثة على الظهر إلى أسفل الشعب حيث كانوا ربطوا الدواب، ثم وضعوها في تليسين كانا منتصفين بالملح.

قضوا ليلتهم عند المرأة التي باتوا في ضيافتها الليلة الفائتة. وقال الطالب المسن لابن الزارة إنه سيعود في الفجر هو وصاحبه على طريق غير طريق القدوم لأن القواعد تتطلب ذلك. وقال له إن فتح القدور ينبغي أن يكون في بيت مظلم ثم تفتح نوافذه بعد إفراغ ما بداخلها كاملاً على حصير جديد. وقال : العهد بيننا على الكتمان وثمن البخور والذبيحة يصل إلى الرجل الذي كان واسطة بيننا في مراكش.

29

رحل ابن الزارة في غده بعد أن شاهد الطالبين يتخذان طريقا غير طريقه. وجد هو والعبدان في السير حتى دخلوا قصبة القائد تحت ستار الظلام. وقيل لمن في الأبواب إنهم ذهبوا مع الشريفين المراكشيين بهدية الملح إلى زاوية في الجبل وعادوا من هنالك باللوز والتين.

سمع القائد برجوع ابن الزارة فارتعش وزاد خفقان قلبه. ولقي صاحبه وهو ساكت لا يدري أيسأل أم ينتظر أن يبلغ إليه الخبر. فقال له ابن الزارة : حملنا شيئا لا أدري ما هو. في قدور ثلاثة وضعناها في الخزين الصغير. تعال ترها إن كانت ما تزال هناك. فدخلا معا إلى المخزن وأغلقا وراءهما الباب. وأراه القدور الثلاثة وهي في مكانها. فقال همو : والطالبان. أين هما ؟

فقال ابن الزارة : انفصلا عنا في الرجوع واتخذا سبيلا أخرى إلى مراكش لأن ذلك من الأعراف عندهم. ألا يذهبوا مع المادة إلى حيث ستنزل. ولو أرغمتهما على المجيء وفسد الشغل لكنت مذنبا.

فقال همو : والعبدان ؟

قال ابن الزارة : في داخل البنيقة. أغلقت عليهما الباب حتى ترى في شأنهما.

قال القائد وهو مرتبك مرتعش فاشل الركبتين تصطك في فمه أسنانه : وماذا تنتظر لترى أفي القدور تبر أم تراب ؟

قال ابن الزارة : ننقل القدور وحدنا أنا وأنت إلى غرفة مظلمة ليس فيها شيء غير حصير جديد. ونفرغها هنالك في الظلام. ونشعل القناديل. وإذا لم يكن في القدور ما كنا نظن. ضحكنا وبتنا

على سماع القينات حتى ننسى، وإذا غضبتَ علي وقررت أن أرحل عنك غدا فسأرحل إلى غير رجعة.

قال القائد : نضع الحصير في الغرفة الركنية بالرياض الجديد وننقل إليها القدور، ونقوم بكل شيء دونما حاجة إلى معونة أحد، حتى لا يعلم الغير ما في الأواني.

قاما بتهيئ كل شيء. وفتحا القدور في الظلام. وأفرغاها واحدة واحدة. وسمعا وهما يفرغانها، رنينا لم يشكا في أنه رنين الذهب الإبريز. وارتبك همو أيما ارتباك قبل أن يوقد ابن الزارة شموعا فاسية كان قد حملها القائد من حضرة السلطان. فرأيا ما أذهلهما وأفرحهما حتى كاد همو يفقد رشده. فما درى أيفرح أم يبكي، وتسمر قاعدا في جانب الحصير وهو ينظر إلى السكة اللامعة وكأنها خرجت ليومها من تحت مطرقة أصحاب الضرب. ولم يسبق للرجلين أن تصورا نقودا في مثل ذلك الصفاء والحجم والكبر واللمعان والنقش والخط وجلالة الرسم.

اهتم ابن الزارة بصاحبه القائد ولم يهتم بالكنز بعد أن صار حقيقة. وإنما نظر إلى صاحبه فرآه جاحظ العينين فاغر الفم ولعابه يسيل على مقدم جلبابه وهو لا يتكلم كأنه محنط، فحركه ابن الزارة وقال له : لا تهتم بهذا فصاحبنا الطالب سيعيننا على استخراج كنوز أخرى. اترك المادة هنا وتعال نتعش ونتذاكر في كيفية تصريف الدنانير بلا شبهة. فالمشكل الآن في صرفها بلا شبهة وإلا كانت عليك وبالا وقطع رأسك بسببها.

وقال همو : هل قال الطالب إن إطفاء الضوء جائز ؟ أو لا يجوز أن يبيت الكنز في الظلام في اليوم الأول ؟ وإذا لم يقل الطالب شيئا فإنني لن أبرح هذا المكان إلى أن تطلع الشمس.

وفي الغد قضى ابن الزارة سحابة نهاره نائما. بينما كان همو يرتبك ويهرف ويضحك بلا سبب وتكسوه قشعريرة يظنها مسا، لم

يذق طعاما. أراد أن يتسلى بأمور أخرى فلم يستطع، وكان في جل وقته في الميضاءة أو في التردد على الغرفة التي فيها الكنز ليتأكد أن المادة ما تزال في مكانها، ثم تصور أن الأمر لا يثبت إلا بعد ثلاثة أيام مثل ثلاثة أيام الميت، ثم تخيل أن الأمر لا يثبت إلا بعد سبعة أيام مثل أسبوع المولود قبل أن يحمل اسما، ثم تخيل أيضا أن الأمر لا يثبت إلا بعد أربعين يوما، كأيام النفاس. ولم يخفف من انفعاله الخطير إلا خوفه مما أشار إليه ابن الزارة، وصول خبر الكنز إلى من يستطيع أن ينتزعه منه ويواخذه به.

ومع مرور الأيام تجرأ همو على مد يده للمس نقود الذهب وضمها في يده، وسماع رنينها وهي تسقط ثم أخذ منها ملء حق ثم حقين. فثلاثة فأربعة، وملأ صندوقا صغيرا حمله إلى مكان خفي في مخازنه ثم صندوقا آخر خبأه في غرفة نومه، ولكن وسواسه صار يدور حول معرفة مقدار ما طلبه اليهودي ندري حتى يقوم له بجلب الشركسية من بلاد الأتراك.

أرسل همو يطلب صاحبه باروخا، فلما حضر قال له وابن الزارة ثالثهما في المجلس : اذهب وجيء بقريبك ندري الذي بالدار البيضاء من أجل أن يقوم لنا بذلك الغرض بالشروط التي طلبها.

تعجب اليهودي وكاد أن يسأل القائد عما إذا كان جادا في قوله، فهو يعرف مداخيل القائد ومصاريفه وديونه، ولكنه خاف أن يغضبه إن سأل عن شيء، فقام وقال : نعم يا مولاي، آتي به في عشرة أيام إن كان في بلده.

لكن عجب ابن الزارة كان أقوى، فما أن خرج باروخ حتى قال لصاحبه القائد : هل أنت جاد في جلب هذه العروس بذلك الثمن على يد قريب باروخ الذي تربى مع النصارى في وهران ؟

فقال همو : ولماذا طلبت منك أن تبحث عن عملة الذهب ؟ ألا تفرح لي إن جمعت شملي المشتت امرأة من الجنس الذي يصنع مجد الوزراء والرؤساء ؟ أم تريد مني أن أبقى مرهونا عند العروستين اللتين خطبتهما لي في أوائل عهدي بالقيادة. إحداهما لا تحمل والأخرى إذا حملت أجهضت ! هل تريد أن يرثني ذئب من ذئاب الجبل أو أن ترثني أنت ؟

قام همو غاضبا وترك ابن الزارة في مكانه في غرفة المشاورة. وفي غده تفادى القائد لقاء صاحبه. وفي الأيام الموالية كان همو لا يدع فرصة تفوت دون أن ينهره حتى أمام الأعوان والخدم.

وحضر ندري وظهر في سلوكه مع القائد بنفس الوقاحة. وكان معه كتاب آخر فيه رسوم بالألوان لظلال نساء قال إنهن شركسيات من الصنف الذي سيأتي بأحسنهن للقائد. ولما فهم أن القائد قد هيأ المال. شرع في تعداد المراحل والمصاريف وأنواع النفقات اللازمة لضمان السفر وضمان جلب ذات الأوصاف. ثم ما ينبغي من نفقات حراستها وإركابها وإمرارها متنكرة عبر سدود شرطة البلدان وفي غفلة عن عيون الصعاليك والحكام على السواء. وتحصل أن القائد في غيبة ابن الزارة سلم لندري ثلثي ذلك الكنز وهو قيمة ألف ألف كما طلبها وكما قدرها.

وتعجب باروخ الذي حضر عد المال وأغمي عليه مرتين. وفقد الصواب في الكلام وتعذر عليه أن يجلس في مكان واحد أو يمتلك يديه وفكيه من شدة الارتعاش. فكان يحاول أن يقول شيئا فلا يبين. ويهوي إلى الأرض تحية للقائد. فينهره هذا ويصرخ في وجهه.

انصرف ندري بالمال ومعه حراس من القائد لا يعلمون لماذا أمروا بخفره إلى الدار البيضاء ومعه قريبه باروخ.

علم ابن الزارة بما وقع، وأظهر للقائد تملقا وممالأة وتزيينا لما قرره حتى ظن أن كل شيء بينهما رجع إلى نصابه. فقال ابن الزارة لابد من الوفاء بالعهد للطالب الذي أخرج الكنز، بأن تؤدي له ثمن البخور وثمن الذبيحة.

فقال همو : وكم تقدر لذلك ؟

فقال ابن الزارة : عشر قطع أظنها تفي بالغرض. وإذا أردت أن تتحفه وصاحبه فزده خمسا. وأرسل إليه خادمة جميلة من بنات القبائل، يتزوجها، فهو أرمل منذ عام.

تحمس القائد لكلام ابن الزارة وأعطاه عشرين قطعة وأذن له في اختيار خادمة
من بنات القبائل حتى يشهد العدول على والدها بأنه يزوجها لصاحب القائد الذي بمراكش حسبما سيتعرف عليه عدول تلك المدينة.

ذهب ابن الزارة إلى مراكش يحمل الهدية إلى الطالب الذي استخرج الكنز. ومرت الأيام ولم يعد. ولا أحد غير القائد يعرف ما الذي أغضبه وجعله يهجر صاحبه.

عادت المجذوبة بعد إبلالها إلى الأسواق تتكلم ولا أحد فهم كلامها وهي تنشد :

باروخ كال الخوخ وهمو كيغز علفتو
هذا يتكي وهذا يذبح كلا يعرف حرفتو
الحوريات فلقصور وهمو مشى فلغرور
عطى ذهب وفضة واللي ما صلى تخبا

ولما سمع الناس هذا الكلام وتناقلوه في مختلف الأسواق وخلال القبائل. فسروه كل على حسب فهمه. فقال بعضهم إن همو تزوج

بنت باروخ في السر مقابل مال كثير. وقال آخرون إن باروخا ينقل مال القائد إلى الدار البيضاء ليتجر به بعض إخوانه هناك. ولكن المتقولين التفتوا إلى تورط باروخ في الاستنزاف الذي يمارسه القائد. وأشاعوا أن بعضهم حاول اغتياله لأنه هو السبب في إفساد ما بين القائد وصاحبه ابن الزارة الذي كان يرد القائد عن غيه كلما ظهر منه الشطط. ولما طرق هذا الكلام سمع باروخ وإخوانه في حارة اليهود. خاف ولاذ بالقائد وقرر هذا الأخير أن يسكنه بجانبه في القصبة وأن يكون معه حرس في تنقلاته.

أما المجذوبة فقد تعرضت لعدوان أعوان القائد حتى إنها شجت وسط السوق وسال دمها. واستنكر الناس ما وقع. وتوقعوا أن ينزل غضب السماء بأعوان الحاكم لأنهم عملوا ما لا يعمل. ولا شك أنهم عملوه دون علم سيدهم. وقال آخرون إنهم لا يعملون شيئا بدون علم سيدهم. ولكنه عهد جديد قد بدأ بعد أن رحل عن القائد مشاوره الحكيم.

30

حرص همو على أن يبدو لأهل داره وللمقربين إليه كما لو أنه غير محتاج إلى مشاوره ابن الزارة ولا متوقف عليه في أي شيء من تدبير أموره في الرئاسة وغيرها. ولكنه اختلى لنفسه ذات ليلة وأحس بهول الكارثة. واستعرض خدمة الرجل الذي هجره فبكى. وفكر في أن يبعث من يبحث عنه ويسترضيه للرجوع. ولكنه لم يجد من يقوم بذلك على الوجه المطلوب. فقد كان ابن الزارة هو الذي يقضي ويكفي. ولم يكن لغيره وجود معه. والقائد يدرك الآن فداحة يتمه بهجرة ذلك الرجل. وفكر مرة أخرى في احتمال أن يكون ابن الزارة من الجن لا من الإنس. تركه بعد أن قضى له كل ما يجعله كامل الرئاسة. وحتى الشركسية التي سيكمل بها كماله هيأ له ابن الزارة أسباب جلبها. فهو كان بمثابة أبيه الذي وافاه الأجل عندما أنهى مهمته في التمهيد له. وحتى أزواجه اللائي كان ابن الزارة ينهاه عن تطليقهن. فإن رحيله علامة على أن الأجل قد جاء ليتصرف فيهن بما يشاء. فهن ولا سيما بنت قائد السهل وبنت شيخ الجبل من مقترحاته. وهو الآن قد انسحب فله أن يفعل بهن ما يريد.

وفي ذلك العام كان فصل الشتاء قارس البرد وهلك فيه أناس كثيرون. وكان ممن مات تلك المجذوبة التي كانت تطوف في الأسواق وتشهر بأفاعيل القائد وغيره من الأعيان. وحزن الناس لموتها. ومن الأعيان من مشى في جنازتها ولو علموا أن ذلك لا يرضي القائد. ولكنهم استغربوا لما رأوا أن القائد. لما علم بموتها في ضريح من أضرحة المدينة. قرر أن تدفن في ذلك الضريح. وأرسل إلى الإمام الأكبر يأمره أن يصلي عليها لأنه بنفسه سيحضر الصلاة عليها. وأرسل الكفن والطيب والبخور ورآه الناس يذرف دموعا

على نعشها فرقوا له وسمعوه يقول : تكسرت مرآتنا وضاع عكازنا، فهموا أنه يقصد المجذوبة وابن الزارة.

أضحى القائد يقضي سحابة يومه في إرسال من يدبر حاجاته ويتنكد لكل زلات الخدام والأعوان ويفقد يوما بعد يوم هيبته بمباشرة الاتصال بمن كان ابن الزارة يكفيه مئونتهم، ويستقبل كل من يطلبه مخافة أن يحمل خبرا يكون فيه إشعار بأمر خطير أو إنذار بمؤامرة. واضطر إلى التصرف في الأموال بنفسه تحصيلا وصرفا. واهتم لكل شيء حتى كان النوم يهجره بالليل. وتخلى عن راحاته في القيلولة. ولاحظت زوجتاه السالمة وكيما أن شخيره قد زال ولكن استيقاظه بالليل على كوابيس مرعبة قد زاد. وكان في بعض الليالي يفيق من نومه وهو يصرخ كمن يطارده عدو.

ورأى جلساء القائد أن البشر قد غاب عن وجهه. وأنه صار يأكل بنهم وهو لا يشعر بمن حوله. وفرض على أهل مطبخه أن يقدموا في مائدة غذائه عشرين لونا من ألوان الطعام. تبدأ بالثريد وتنتهي بالعصيد. وربما امتلأ قبل إتمام الأكل وقام يريد الميضاءة فيتقيأ حتى يفرغ ما في بطنه. وكان بعض متملقيه حاول أن يطري ذلك الإسراف على أنه من كرم القائد الذي كان محبوسا ببخل صاحبه ابن الزارة. ولكن القائد نهر ذلك المتكلم وسبه وطرده.

التفت القائد إلى زوجتيه المرموقتين السالمة وكيما فوجدهما لا تهتمان بحاله لأن كيما ما تزال تعاني من آثار نزيفها والسالمة مشغولة بصاحبتها وببنتها وخيلها وشجرة الحناء التي باتت تتعهدها بالنظر صباح مساء. واعترت القائد يوما سورة غضب لأنه لم يعد يطيق غش الخدام وتقاعس العبيد وسوء تدبير المكلفين بالمهمات. فشتم ولعن وحلف أنه سيطلق زوجاته إن هو تسامح مع أحد ممن يستهينون بأوامره بعد ذلك اليوم.

لكن القائد اضطر إلى أن يحنث في يمينه لأنه مغلوب على أمره أمام خدام كان ابن الزارة وحده يعرف كيف يرهبهم ويقتحم بهم العقاب. ولو قرر أن يعاقب كل مخطئ لانفضوا من حوله. وقد فهم أن وسيلته الوحيدة في إحكام القبضة على القبائل هي إطلاق أيدي هؤلاء الخدام والتغاضي عن أخطائهم. وقد تذكر غير ما مرة أنه لما كان صغيرا كان أقرانه من الأطفال يعيرونه بكون البهائم تحرن إذا قادها ولا تنقاد له ولو ضربها. والسر كله في رجولته الفاترة وقلبه الضعيف.

لكن تطليق الزوجات أصبح هاجسه لأنه ينتظر وصول الشركسية وهي، حسب ما حكاه صاحب الوزير الذي أوعز إليه بفكرة جلبها وحسب ما أكده له قريب باروخ. من جنس النساء اللائي لا تستقيم العشرة معهن مع وجود شريكة. ثم إنه لم يعد قادرا على أن يتحمل الضيم من بنت قائد السهل النافرة منه، وهي زيادة على ذلك في نظره مسئولة عن إفساد بنت شيخ الجبل.

شاع في دار القائد أنه يهيئ لتطليق زوجاته. ثم ما لبث أن صدق التقولات بإقدامه على تطليق الزوجتين العاديتين وسرح معهما عددا من مطلقاته اللائي احتفظ بهن في الحريم. ولكنه لم يسمح لأي من النساء بالرجوع إلى دار أهلها. بل جاء بعدد من الشيوخ والأعيان وأمرهم باتخاذهن زوجات حتى يدخلن إلى دورهم أساليب الرقة في العيش والتنعم في الحياة. واستدعى أولياء النساء للموافقة على تدبيره بتفويتهن.

رجع الناس من سوق الأسبوع الذي يقام بجانب القصبة بأخبار ما أقدم عليه القائد من تفويت زوجاته بتلك الطريقة. ورأوا في ذلك فعلا شنيعا لم يسبق إليه. وأوّلوا ذلك الفعل تأويلات شتى. وبلغ الخبر إلى القائد ولد الشهباء. فأفهمه أهله أن القائد سيعود إلى رشده تحقيقا إذا هو أبقى على بنته وحدها في داره. وهي

السابقة المستحقة في عهد قيادته، وبلغ الخبر إلى الشيخ احماد نايت ابرايم. فتخوف من أن يتجرأ القائد الأخرق على تنفيذ نفس الحكم في كيما. فأوفد أحد ولديه لاستقصاء الخبر وإفهام القائد على سبيل الإشارة أن أهله لن يقبلوا إلا إرجاع كيما إلى دارها إن أراد القائد تطليقها.

وصل أخو كيما وأنظره القائد يومين كاملين. ولما لقيه لم يدعه يتكلم في الموضوع الذي جاء من أجله. بل انهال على أهله ووالده بالشتم لأنهم أخفوا عنه من الخديعة عيوب كيما عندما تقدم يطلب الزواج بها، فوصفها القائد في سورة غضبه بأنها منقبضة سوداوية موسوسة كثيرة التوضؤ كثيرة الصلاة تطرد الأولاد من رحمها لشدة نفورها من الحياة ضعيفة الشخصية أمام غيرها من النساء. لها طاعة المسخرات وتفتقد مزاج الحرائر القادرات على القيام بحق الزوج الذي انتظر منها أن تجمع شمل نفسه وتكون له النصيح الأول في الشدائد. وقال القائد إنه لم يعلم إلا مؤخرا أن كيما دخلت داره تحمل تمائم ومواد صنعها السحارون في بلدها وأن ذلك أضر به في ماله وفي سائر أحواله وأنه لن يفوت كيما لأحد لأنها لا تصلح زوجة لأحد ولا يريد أن يخدع أحدا كما خدع هو. ولكنه لن يرد كيما إلى أهلها إلا بعد أن يعوضه والدها على كل الخسائر التي تسبب فيها وجودها في داره. وبعد أن يؤدي له ما تسامح معه فيه منذ مصاهرته من الوظائف والجبايات المترتبة عليه.

تسامع من في دار القائد بما قال همو في زوجته كيما أمام أخيها وبحضور بعض الأعوان والخدم، وتعجبوا واستغربوا. وطرق سمع كيما أن أخاها رجع إلى أهله منهورا مهددا. وأن ذلك كان بسببها هي. فصدمت وتقيأت. ثم اختنق صدرها بالتنفس وسقطت مغشيا عليها. وذهبت أمتها وأخبرت السالمة بما حدث فجاءت تعالجها

رشا بالماء وإحراقا للبخور، لكن كيما قضت كل ليلتها لا تفيق وإنما كانت تتجشأ بين الفينة والأخرى، وكانت ترتعش ثم صارت تضطرب. وفي وقت عند الفجر رأت السالة ومن عند رأس كيما من الخادمات أنها تحرك شفتيها وتعبر بملامحها دون أن تفصح عن شيء كأنها تتكلم مع الملائكة، أو مع مخلوقات لا ترى. ثم رأين تحت ضوء القناديل أن وجهها وكامل ما ظهر من جسمها قد علاه الشحوب وأن عينيها تغير لونهما وصار منظرهما مرعبا. قد ذهب منهما الصفاء والسحر الذي عهد فيهما.

أذرفت السالة دمعا حارا مرسلا وبكت معها خادمتا كيما وخادمتاها هي. فقد توجسن أن يكون الشر قد تسلل إلى جسم كيما، فالنسوة يعرفن هذا الشر الذي لا يسمى باسمه. ويعرفن أنه إذا دخل أطفأ شحفته الرهيبة بشرب ماء العيون، وأعمل يده في تشويه ما يسحر ترتيبه من أثاث الوجه. والسالة تلتقط نظرات الخادمات والدموع في أعينهن. لا يتكلمن، ولكنهن يفكرن في أمر واحد وحرقة الخوف في أحشائهن من شيء واحد، نشوب أظفار الشر في جسم كيما. والسالة تتمنى لو تفتديها بنفسها لولا أنها إنما تحيى هذه الحياة لابنتها نجمة. لا لنفسها. وهي الآن أكثر من ذي قبل تدرك أن لا شيء يصمد أمام عوارض الحياة. فآفة كيما أنها جميلة إلى حد الفتنة. فهي محسودة من الأكوان. لكن هل الشر مسخر للأكوان الحاسدة ؟

كانت النسوة يتحركن حول كيما وقد طلعت شمس النهار وقناديل الليل لم يطفئها أحد. وجئن بحريرة بحرمل وحاولن صبها في بلعومها. ولكنها دفعتها ودفعت كل ما في بطنها مقذوفا إلى الخارج، ثم شاهدن لعابا أصفر يسيل من فمها. ورعبهن يزيد. والخادمة تغير على عنق كيما المناديل.

وفجأة قعدت كيما وبدأت تضحك ولكن عينيها غير عينيها. ثم بدأت تقهقه. وفهم النسوة أن الشر قد حل فيها. وسكنها. وبدأت السالة تخاطبها مواسية إياها. وكأنها تفعل لتخفف عن نفسها من الخوف والأسى. وهي تتمايل كالمتوجعة. وزاد الخادمات في إحراق البخور. وبحركة خاطفة مدت كيما يدها للمجمر الذي يعلو منه الدخان وقلبته وسارع النسوة إلى التقاط الجمر بالمناديل وإبعاد المجمر. وفي تلك الأثناء رأين كيما تقف منتصبة وهي تمشي بقوة. متجهة إلى الباب. واعترضها الخادمات وأخذن بيدها وهي تنتفض. فبدا لهن أنها تتمتع في تلك اللحظة بقوة أكبر من قوتهن جميعا. فبادرت السالة إلى الباب وأغلقته بالأقفال من الداخل. ودفعت كيما الخادمات حتى أوصلتهن إلى الباب وكبستهن على ألواحه حتى ارتجت وكأنها ستتكسر. وهنالك وقد غلبت كيما جميع النساء وعجزن عن إمساكها أخذت أمتها الكبرى تتلو بصوتها المسموع أذكارا من كتاب "بحر الدموع". حملقت كيما في الخادمة التي تقرأ وبصقت في اتجاهها وتهاوت لحما إلى الأرض كأنما لا يعمدها عظم. وباستهانة كيما بذلك الكتاب المبجل عند أهلها عرفت خادمتاها أنها مسكونة بشيطان.

حملت كيما إلى سريرها. وبعد وقت قصير فتحت عينين ذابلتين وقد عادت إليها صفتها الأولى. والتفتت حولها ورأت السالة والخادمات وسألتهن ما الذي وقع. وقلن لها إنها نامت طويلا حتى خفن عليها. وشعرت بأن قوتها خائرة وأن جسمها كجسم من تعرض للضرب. وأحست بالجوع. لكنها لم تقو إلا على بلع حساء قليل. ثم استسلمت للنوم.

31

بلغ الخبر إلى القائد همو بأن زوجته كيما تعرضت في الليلة الماضية لمس الجن. وأطرق قليلا. وقال لمن حوله : إذا عاودها أرسلوا في إحضار إمام الجامع.

واشتغل همو في تلك الأيام ببناء دار فخيمة جديدة تليق بسكنى المحظية الشركسية التي أرسل في جلبها من بلاد الأتراك. وكان جلب لتصميمها والقيام على بنائها معلما ماهرا في البناء معروفا لدى علية القوم في مراكش.

طلب همو من باروخ أن يسافر إلى الدار البيضاء لاستطلاع أخبار قريبه ندري. وأوصاه أن يشتري له نظارتين مقربتين من نوع نظارات الهند. وهي ذات العدسات الموضوعة في قناتين ثقيلين من النحاس. وذلك حتى ينظر بواسطتهما من نافذة برجه إلى الجهة التي يتوقع أن يأتي منها ندري بالجارية. ويراد بمجرد ما تلفظه ثنية الجبل البعيدة التي في طريق فاس على بعد عدة أميال من القصبة.

عاد باروخ من الدار البيضاء بمال إلى القائد تسبيقا من تجار يريدون شراء جلود وصوف وعسل. وعاد بنظارتين مقربتين سر بهما القائد. ولكنه لم يعد بجواب من ولد عمه المبعوث في جلب الشركسية. وقال إنه سأل أصحاب السفن القادمين من جبل طارق. فقالوا إن السفن من هنالك إلى بلد الطليان قليلة في هذه الأيام بسبب حروب قائمة في تلك البلاد. وقال : لا شك أن ندري ينتظر الفرصة هنالك لمواصلة السفر.

أما كيما فقد كانت تتعرض للمس مرة أو مرتين في الشهر. وكان لا يسرى عنها حتى بتلاوة كلام من كتاب "بحر الدموع" وإحراق البخور. وكانت كلما أفاقت من غيبوبتها أخذت بيد

السالمة تفركها وتضمها. وكان ذلك الإحساس يذيب عواطف السالمة التي شعرت أن مشاعر تعلق خاص قد استيقظت في وجدان كيما نحوها. وهي تحسب أن تلك العواطف ستنشل كيما من قعر الوهدة التي تردت فيها. وكانت السالمة تتعجب من كون كيما التي فقدت كثيرا من روائها بسبب عمل الشر المتردد عليها. تستعيد شيئا من حيويتها عندما ترى الطفلة نجمة فتقبلها وتضمها. ثم إذا أطلقتها أغمي عليها من الإجهاد. وإذا أصابها الشر ودخلت نجمة دون تنبيه أمها أفاقت كيما وكأنها لا تشكو من شيء. ولكنها سرعان ما تعود إلى غيبوبتها.

وفي أوقات نقاهة كيما وفراغ السالمة من الانكباب على العناية بها كانت السالمة لا تنفك تنظر إليها ولا تتكلم. وكانت كيما تسترق إليها النظر وتضطرب وتستغرق في خيالات لا يعلم طبيعتها أحد. وكانت كيما تعلم أن السالمة تجلس إلى شجرة الحناء التي غرستها فتسقيها كما عهدت. ولكنها صارت في تلك الأيام تتحدث إلى الشجرة وتبكي عندها. والواقع أن السالمة ضبطت غير ما مرة على تلك الحال. وأن خبرها شاع وذاع. ونقل إليها الخادمات بدورها أن كيما كلما أمهلها الشر كانت تجلس في نافذة البرج ليلا وتتبع بعُينيها سفر القمر ليلا في طريق السماء. وربما تحدثت إليه. وودت السالمة لو تتحقق من صحة ما نقل إليها. وودت لو سمعت كلام كيما الذي تناجي به القمر. ولكن السالمة تعلم العواقب على نفس كيما لو شعرت أنها تتجسس عليها. وفكرت أياما في هذا الذي يحدث بينها وبين كيما. وقالت في نفسها : لعلها ستموت. لأن حياة جديدة بدأت تدب في أوصالها بعد فوات الآوان. هذه هي الدنيا.

انشغل القائد عن الزوجتين اللتين نفر منهما كما نفرتا منه. واهتم ببيع خيرات جباله وانتظار الغادة التي ستعوضه عن كل

المحن والرزايا. وجد في استعجال البنائين في إتمام العش الذي يبنيه لها.

وقعت كيما يوما فريسة لنوبة قوية شوهت خلقتها بشكل لم يسبق من قبل. وطال اضطرابها وهذيانها وتحدث منها رجل بصوت غليظ. ووقع ممن تحدث منها التهديد بقتلها انتقاما لأنه سرق منه ما سرق.

طال صرعها يومين كاملين. وهو ما لم يشاهده الناس في حالات ضربة الجان.

فبلغ ذلك زوجها همو وأرسل في طلب إمام الجامع. وكرهت السالمة ذلك لأن وجود ذلك الطالب سيبعدها عن كيما وهي في محنة. وهي لا تعتقد رقيته ستفيد شيئا. ثم إنها تخاف على كيما من أفاعيل معروفة عن المتصدين لصرع الجن.

حضر الإمام وألحت السالمة على خادمتها الكبرى وخادمة كيما أن تظلا بجانبها. ولم يمانع الإمام في ذلك. وبدأ في تلاوة رقيته والبخور تحرق بكثرة. وكان المتكلم من كيما يستهتر بصاحب الرقية فيعيب حركة شفتيه ويقرأ معه بالجهر ما يقرأه هو في السر. ثم أخذ يفضح أسرارا من حياته الخاصة. أخجلت الخادمتين. فانصرفتا إلى ما وراء الباب. وكان الإمام وهو يسمع ما يقول الساكن في كيما يستعيذ با لله ويقول : اخرج أيها الشيطان ! فكان يرد عليه الساكن : أنا الشيطان أم أنت ؟ ألم تفعل كذا وكذا ؟

واقترب الإمام يريد أن يأخذ يد كيما ويغرس ظفر أصبع من أصابعه تحت ظفر أصبع في يد كيما. فإذا بها تقوم وترتمي عليه. ومدت يدها في سرعة البرق تريد أن تقلع عينيه والمتكلم منها يقول : ألا تغض البصر أيها المنحرف. ألا تغض البصر ؟ وارتاع الإمام وتراجع. وسقط على ظهره. ومد يده يحمي وجهه وهو ينفلت من

كيما. فإذا بأظافرها قد أسالت دم وجهه في جبهته وتحت عينيه وكادت أن تعوره بالفعل.

فقام الإمام يصرخ وينادي : اعتقوني من هذا الشيطان. فقد كاد أن يفقأ عيني التي أنظر بها. إنها مسكونة بجيش من الشياطين. أين سيادة القائد ؟ قولوا له إن زوجته مسكونة بجيش من الشياطين.

سمع صراخ الطالب كبير أعوان القائد الذي خلف ابن الزارة في الدخول على الحريم. فتقدم حتى استفسره عما حدث. وقال له :

- لا بد من عبدين قويين يوثقانها. ولابد من كيها بالسفافيد المحماة على الجمر. حتى يخرج منها الشياطين.

وقال كبير الأعوان : أما الكي فلابد فيه من رد الكلام على سيدنا القائد لنعرف رأيه.

كلموا همو في إعمال السفافيد في كيما بعد توثيقها بالحبال فأذن لهم. إن كان ولابد من ذلك لإخراج المتسلط الذي يسكنها.

بدأوا في تحمية السفافيد. ولكن الخادمات سمعن ما جرى من الكلام بين الإمام والعون. ورأين ما يحضُر لكيما فأبلغن السالمة بذلك. وما أن سمعت بالتدبير الشنيع حتى ذهبت إلى الغرفة التي فيها كيما ودخلت غير عابئة بالفقيه. وارتمت على كيما تقبلها وتعانقها وتضمها وهي تبكي. وتكلمت كيما ترد على كلام السالمة. فانصرف الفقيه وتوارى العبيد وأزيلت السفافيد من النار. وجلست السالمة إلى جانب كيما وهي في شبه إغفاءة والسالمة تبكي وتقول :

ألعليلة همتي معاك ... خطفوك مني الملاك
شكون من غيرك كنت نواسي ... شكون من غيرك كان يواسيني
مير الملوك سباك بالظلم ... وأنت بالحق سكنتيني
مير الملوك سكنك دابا ... وأنت من زمان سبيتيني

لم تنتبه السالمة لما كانت تقوله، ولم تلتفت لعدد من النسوة وقد اكتظت بهن الغرفة، من غير المقربات إليها، ورددن معها كلامها الملحون.

مير الملوك سكنك دابا وأنت من زمان سبيتيني

وحفظ شقيات من الخادمات كل الكلام بعد أن سمعنه مرة واحدة، ونقل الحادث برمته إلى خارج دار القائد، وأصبح حديث الخاص والعام، وتغنت المغنيات في التجمعات بكلام السالمة في صاحبتها، بمناسبة وبغير مناسبة.

32

عاد باروخ من سفره إلى الدار البيضاء لقضاء أمور خاصة به، وفي هذه المرة رجع حاملا رسالة موجهة إلى القائد من قريبه ندري، بعث بها داخل رسالة أخرى إلى عائلته بالدار البيضاء، فسلم باروخ الرسالة مختومة وعليها طابع بريد الخزيرات.

أخذ القائد الرسالة وفتحها فإذا هي بلغة اليهود. فقال لباروخ : ومن يقرأ لنا ما فيها ؟

فقال باروخ : إيشوعا شيخ الملاح يا مولاي.

فقال القائد : أتريد أن تطلع هذا البوق المخروق على سري ؟

فقال باروخ : حاشا، حاشا، يا مولاي، اعذرني فقد عنيت بكلامي أن إيشوعا أحسن مني في فهم اللاشونية. وإذا أذنت لي قرأت لك الرسالة.

فقال القائد : اقرأها الآن، وسأبعث بها فيما بعد إلى من يعرف أحسن منك، ولكن لا يهمه أن يفضح سرنا لأنه ليس من هذا البلد. وإذا زدت أو نقصت، فستخيب ظني فيك.

قرأ باروخ الرسالة وأظهر أنه لا يتوصل إلى ذلك إلا بصعوبة شديدة، حتى إن العرق كان يتصبب من وجهه وهو يتعثر ويتلعثم في القراءة. وكان يلعن هذا الجيل الجديد الذي يخلط لغة الأجداد بلغة الفرنجة ويتساهل في القواعد، وقال في مضمن الرسالة :

إن قريبه يخبره أنه وصل إلى بلد الصقليين وإنه تأخر في الخزيرات لأنه لم يجد مركبا آمنا، ثم ذهب إلى قرطاجنة وتعرض هناك لمحاولات اغتيال. وأنه اضطر لاتخاذ حراس يعطيهم الأجر كل يوم لمدة شهرين حتى ركب المركب. وأنه استخبر على البضاعة التي يريد أن يشتريها وأعطى الأجر لمن أرشده كيف سيصل إلى المكان المرغوب فيه ويحصل على أجود السلعة المطلوبة.

وهو يطلب ا لله ألا يتسلط عليه قطاع الطرق فيخسر من المال قدرا آخر ويتعرض للعجز عن إرضاء سيده القائد. وقال إنه يقدر بعد أن استخبر الآن أن رجوعه سيكون في مدة ستة أشهر. وفي آخر الرسالة اشتكى كاتبها من المحنة والخوف والمخاطرة وقال إنه فكر في الرجوع والاعتذار، ولكنه لا يحب أن يفعل لأنه يحب القائد الذي وضع فيه الثقة. وهو ينوي أن يأتي له بما يريد، الجارية صاحبة البهجة والكمال والحذق والجمال.

استعاد همو الرسالة من باروخ بعد أن استمع لما ورد فيها، وتأجج خياله من جديد بخصوص الغادة التي ينتظرها، فقد تعب من الوحدة التي يعيش فيها بين مريضة وممرضة، وبعد أن يئس من البحث عن السعادة في بنات هذا البلد، فأقل ما يقال عنهن إنهن متعجرفات قليلات المعرفة بحاجات الرجال، هذه أقوال الطالب الذي نصحه أول مرة بجلب شركسية. والطالب لم يتحدث إلا عن أمر جربه سيده الوزير الهمام الذي ما أدرك ما أدرك من السعادة إلا بعد أن توصل إلى هذه الحقيقة...

فكر همو في وقت الرجوع الذي قدره مبعوثه في الرسالة فوجده بعيدا، ووجد أن الانتظار سينهك صحته وسينخر مهجته، وخطر في باله أن يهدد باروخا لكي يعمل المستحيل حتى يعود بقريبه في أجل أقصر، ولكنه سخر من فكرته لأنه لا يمكن أن يتصور شيئا يمكن لباروخ أن يفعله ليرضيه في ما تخيل، فقريبه المسافر لا يستطيع حتى جيش جرار من العيون أن يعرف أين سيلقاه، ثم إن الأمر كله سر، وينبغي أن يبقى في طي الكتمان.

جلس همو يتخيل لو يكمل حلمه بوصول الشركسية التي ستكون زوجته. زوجة وصل إليها بماله، ولا يحميها والدها القائد أو الشيخ لتعتد به وتتأفف من الزوج صاحب النعمة عليها، وإذا أعطته ولدا فسيكون وريثه الحقيقي، لا يكون له أخوال يطمعون

في شيء من المجد الذي بناه هو بكده وجده. وتخيل لو أن هذه السعادة تقترن برجوع الرجل الذي أعانه على بناء ذلك المجد وهو ابن الزارة ليشاهد سعادة صاحبه ويقر له القائد بأنه أصاب في كل شيء فعله من أجله إلا في هذه المصاهرات مع الأعيان، وفي عدم رضاه على طلب المرأة التي يحلم بها منذ أن سمع بأوصافها.

أرسل القائد عيونا من قبله للبحث عن ابن الزارة، وبعد جهد جهيد جاءه الخبر بأن صاحبه دخل في خدمة رجل من المقربين بمراكش، صار عنده صاحب الأمر والنهي في تدبير شئونه، وأنه متزوج بتلك الخادمة التي قال إنه سيعطيها للرجل الذي أخرج الكنز ليتزوجها، وأن الرجل الذي يخدمه ابن الزارة الآن من الأعيان لا يمكن أن يطوف همو بساحته أو يغضبه وإلا تعرض لهلاك محقق.

أغرق همو في أحلامه وهو ينتظر الشركسية، فهي الملاذ الذي بقي له، وقد خاف على عكس ما كان يظن من قبل، أن يفاجئه من ذهب لجلبها فيصل قبل الوقت الذي قدره، ولذلك استعجل المشتغلين في بناء الدار الجديدة حيث ستسكن، فهدد بعضهم وأغرى آخرين، فكان أن أكملوها كما أراد قبل سفره إلى حضرة السلطان لتقديم هدية العيد.

طلبت الطباخة العنبر أن تصحب القائد في سفره إلى الحضرة حتى تصل الرحم مع أهلها ومع أهل دار سيدها الوزير، فما كان من القائد إلا أن أجابها لما طلبت، فكانت هي ومعاونتاها ممن سار في ركب القائد، وهي حاملة هدية لكل من ينتظر منها ذلك من معارفها.

قضى القائد واجب الزيارة والهدية والسلام على أصدقائه ومساندیه بالحضرة وفي ليلة سفر العودة دعاه الوزير الذي يشمله

بالعطف. وهنأه على أعماله وحكمته، فرضي القائد وانبسط انبساطا لا مزيد عنه. ثم قال له الوزير :

- إننا نشملك بعطفنا ولا نفرط فيك. ولقد علمنا أنك أكملت بالبناء دارا جديدة.

فقال همو :

- بفضلك وبفضل مولانا، وأنا وما أملك نعمة من نعمك ومن نعم مولانا. فأردف الوزير وقال :

- فإذا رضيت بنا فإننا سنعمر دارك التي بنيتها بتزويجك إحدى بناتنا، للا فخيتة. وعند رحيلك تركب معك، فماذا تقول ؟

فقال همو وقد وقع تحت صاعقة المفاجئة :

- حبا وكرامة يا سيدي. ولا أدري ماذا أقول. لا أدري.

فقال الوزير : قل إنك تخطب بنتي للا فخيتة. هذا كل ما في الأمر.

فقال همو تحت وطأة الخجل والذهول :

- نعم سيدي، نعم، أخطب بنتك للا خفيتة.

فقال الوزير : اسمها فخيتة. والمهم أننا لم نقم معك بما يعيب. فقد كانت بنت النبي سيدنا شعيب هي التي خطبت زوجها، وهذا ثابت بالكتاب.

وقال همو : لا سيدي، حاشا أن يعيبكم شيء، لا لا !

خرج الوزير من القبة بداره حيث جلس همو. ودخلت عليه الطباخة العنبر بعد حين، وأطلقت زغردة من حنجرتها المهترئة. وقادته إلى بيت، وقالت له : هذا بيتك.

وفي العشاء حضر عدد من المدعوين وحضر عدول كتبوا عقد زواج همو ببنت الوزير، بصداق بعضه معجل وبعضه كالئ.

وفي صباح اليوم الثالث قام ركب القائد في اتجاه العودة، ومعه عروسه الجديدة. وكان القائد أيام الطريق ولياليه في حال طمس لم يميز فيها كيف سيؤثر ما حدث على أيامه الآتية. فهذه العروس

أمانة عنده. والسبب فيها ولا شك هي الطباخة الخبيثة. ولكنها ربما أحسنت إليه وهي لا تدري. لأن هذه المصاهرة حماية له. والعروس تحميه بقدر ما سيحميها. ولا يهم حسنها أو ولدها. فهي بيضاء أكثر من اللازم. فيها بعض قصر يناسبه أكثر مما يناسبه طول بنت قائد السهل وبنت شيخ الجبل. ولعل قضية الطول هذه كانت في أصل مشكلته. ومن جملة ما أخطأ فيه ابن الزارة الذي خطب المرأتين بالنيابة عنه. غير أن بنت الوزير. إن كان قد تفرس فيها في تلك الليلة الأولى. محدودبة الظهر قليلا. ولكنها على كل حال ليست من بنات محظيات الوزير وليست بنت الشركسية.

عندما أشرف ركب القائد على قصبته فكر في إدخال العروس الجديدة دون علم أحد. ثم خاف من وشاية الطباخة وما سيترتب عن ذلك من غضب الوزير. ثم فكر في عدم إنزالها بالدار الجديدة. ولكنه تذكر أن الوزير قال : إنه زوجه بنته لتكون عمارة لهذه الدار. ثم إنه لو أنزلها في دار من الدور الأخرى فإنها ستلتقي بالأخريات وسيكون ذلك مدعاة للاستهزاء به والتندر بزواجه والضحك من عروسه. لا سيما إذا قورنت بزوجتيه اللتين تنزلان الشمس والقمر، كما يقول أهله في المرأة الجميلة. وهكذا عزم على أن يتجنب المشاكل وينزل العروس في داره الجديدة ويشرع في بناء دار جديدة قبل وصول الشركسية.

أقدمت الطباخة على نشر خبر زواج القائد، وتدخلت لحماية من كانت تسميها لالا بنتي. وفرضت لها حقوقا على همو لم يستطع أن يتنصل منها. ولكن ما نكده هو أن هذا الزواج أصبح موضوع سخرية في حاشيته. فقد استرق همو بنفسه حديث بعض خدامه حول موقد التدفئة بالليل وهم يذكرون ما نشره بعض

الحاقدين على لسان الأطفال وهم يقولون إن المجذوبة المتوفية كانت نطقت به متنبئة :

خيلي قصبة عروستي قصبة
همو بنى قبة عمروها لو بحديبة
واش من مشطبة

غضب همو وقال في نفسه : هل يا تراها قالت ذلك حقا ؟.

33

عاد الصرع ليتناول كيما أثناء غياب القائد بالحضرة، وكان أشد عليها من كل المرات السابقة. فقد كانت تضطرب بسرعة لا تصدق، وكانت تغرق بعد الاضطراب في سكون عميق حتى يظن من حولها أن الروح فارقتها. ثم تعود إليها الحركة بدءا بفتح عينيها على صورة تخيف كل من يراها. وتبكي من عرف من قبل حال ناظريها الشهلاوين في حدقين واسعين تزينهما الرموش والحواجب، ثم تتكلم فتصرخ وتسب وتنطق بفحش لو سمعت منه شيئا في حال وعيها، وهي على ما هي عليه من الخفر والحياء ورفعة النفس، لزهقت روحها أو لتوقف الدم احتقانا في أوصالها، حتى أن الإماء اللائي كن يمسكن بها وهن باكيات كن لا يطقن حضور السالمة وهي تسمع أمامهن ذلك الكلام القذر. وكان الذي يتكلم في كيما بصوت رجل يفصح في بعض الأحيان ويقول إنه لا يغفر كونه وقع الغدر به. غدر به الذين نهبوا أمانته وهو غائب ببلد السند. ويقول أيضا إنه مشموت لأنه يرحل ليسمع قينة تتلو القرآن، يحب صوتها الملائكي. ويتغزل في ذلك الصوت ويتنهد ويشكو. وكان يتوعد بالانتقام ويقول الله. الله. هذا المكان يواتيني ويعزيني في ما ضاع مني. لأنني أتمتع فيه بالسكون والصفاء كما أستمتع بصوت الأنثى التي أرحل إليها إلى بلد السند. ويقول أنا لست ظالما ولكنهم ظلموني.

عاود كيما هذا الصرع يومين فهدها وأضحى جسمها كله مرشوما ببقع زرقاء مائلة إلى السواد، انتشرت على بشرتها البيضاء الصافية، واختفى من كل مكان ذلك الدم الذي كان يورد وجهها وكل الأوصال البادية منها. وتنبهت الخادمات إلى أن شعرها

تساقط منه قدر غير قليل في يومين. بل إنها لم تعد تحتفظ بالوضوء الذي ما نقضته يوما منذ صغرها إلا وأسرعت لتجديده.

وأمام تلك الغمة أرسلت السالمة إلى والدها تطلب حضور طالب له معرفة بصرع الجان. وطلبت أن يكون من الماهرين وإلا فلا. وقالت إنها تستطيع أن تعطيه كل ما لديها من الحلي إذا هو أفلح في تخليص كيما من ذلك الشر. وقالت لمن حمل كلامها :

– قل له إن كان يحبني فلينقب عن هذا الطالب حتى يجده ويحضره في وقت قريب.

عمل والد السالمة لإرضاء بنته. وبدافع الشفقة على مخلوقة كان كلما ذكرها ضرة لابنته افتخر بجمالها وأدبها. وكان الطالب الذي وجده وبعث به من قبيلة حاحا. استخبر عنه في مراكش وأرسل إليه من أحضره. واسمه الطالب عابد. كان حافظا للقراءات السبع مشهورا بالورع. لم يتفحش قط ولا تسقط بفعل شين ولا قول مهين. طويل القامة آدم البشرة. كث اللحية. يخرج منها شعرات طويلة قليلة. أسنانه بيضاء في فك كفك الأسد. قوته في صوته إذا تكلم بحذر. ولكن لصوته موقعا في القلب يحس به من يسمعه فيميزه. رجل مشهود له بامتلاك بعض الأسرار. يتنكب عن مخالطة المشبوهين ويكره ملاقاة الأشرار.

حضر الطالب عابد إلى دار القائد والد السالمة فأخبروه بالذي يطلبونه منه. فتحرج. فتشفعوا إليه بأمور لم يطق أن يردها وعاملوه بكرم نفس لم يملك أن يغض عنه الطرف. فأسعفهم في قبول دخول بيت القائد همو وهو في سفر. ووصل إلى هنالك معززا بأصحاب القائد والد السالمة الذين حضروا معه وألحوا في إدخاله حتى كادت أن تنشب معركة بينهم وبين حراس دار القائد همو. والواقع أن كبير أعوان القائد همو قد تظاهر بمنع الطالب من دخول الدار. ولكنه كان يسر الرغبة في أن يرى كيما وقد شفيت

من علتها لأن ذلك الروحاني الذي سكنها أخذ في تلك الأيام يتكلم بأسرار تهم جميع من في الدار ويفضح ما يرتكبون من موبقات في الخفاء، وقد نقل بعض الخادمات ذلك إلى كبير الأعوان فتوجس من أن يطاله ذلك التشهير.

ثم إن الروحاني الذي في كيما قد عرف عن بعد أن صاحب رقية ماهرا قادم إليه قبل أن يصل، وصار يستغيث ويذكر أنه يكره أن يلقاه، ويقول : اعطوني أمانتي لأنصرف إلى حال سبيلي، فأنا أتبرأ من ذنوب تعذيب هذه المرأة. وما سكنتها إلا لأنني أمير لا أسكن إلا البلد الطاهر، وهي أطهر من في هذا البلد.

دخل الطالب الحاحي على كيما وهي تبدو وكأنها تغط في نوم عميق، وجيء له بالمجامير والبخور. وبدأ تعزيماته، وطلب أن يسدل حجاب بينهما وبين من حواليهما من النساء لأن السالة رفضت أن تترك كيما، وفرضت حضورها وحضور الإماء حتى لا تقوم كيما مدفوعة بحالة الصرع وتضرب الجدار برأسها كما حاولت أن تفعل غير ما مرة.

وفي وقت من التعزيم بدأت كيما تتحرك وتومئ وكأنها تداعب مخلوقات وتجيب عن أمور في الأحلام. وصفق الطالب بيديه من وراء حجاب، ودخلت عليه إحدى الإماء وقال لها :

– في الدار صبية صغيرة تحبها هذه المرأة المعذبة ! فقالت الأمة : نعم، إنها نجمة بنت مولاتي السالة.

فقال الطالب : أحضروها، فلا خوف عليها، وبحضورها ستتقوى روح المريضة فتتحمل الساكن حتى نسأله ويجيب كما نريد.

أخبرت الأمة سيدتها السالة فتعجبت من مكاشفة الطالب على وجود الصبية وتعلق كيما بها، فاطمأنت، وأحضرتها في الحين.

رأى النسوة كيما يعود إليها الهدوء وكأنها في تمام الوعي ولكنها بدأت تتكلم بلسان رجل شاب يحكي قصة سكون الجن في جسم كيما ويقول :

أطلقوا سراحي. ردوا علي أمانتي. ما أنا إلا حارس ذلك الدينار المربع منذ توفيت صاحبته. من كان يزين غرتها. أميرة التبتل مولاتي مسك الحق. بنت سيد اشبيلية في غابر العصور. وكان والد مسك الحق يحكمنا بسر يعرفه وحده في سورة الفلق. فلما توفي والدها تنسكت مسك الحق. وكانت تضع ذلك الدينار النفيس على جبهتها إلا في وقت الصلاة. وكان الدينار مشحرا بماء غسلت به أسماء لا أستطيع أن أذكرها. فلما توفي الوالد خدمنا بنته لأنه كان للوالد دين علينا لم نقضه مدة حياته. فلما توفيت لم يوجد في هذا الغرب من يستحق أن يحمل ذلك الدينار. فقرر من له السلطان علينا أن يتناوب على حراسته ثلاثة منا. وقد أخرجناه من الأندلس بعد إغلاق مساجدها. وزدناه لكنز كان في ملك بعض الفارين من فتنة قرطبة. قد خبأوه في هذه الجبال وطم عليه السيل وطمست علامات مكان وجوده. وكنا نظن أن قفله لا يفتح لأهل هذا الزمان حتى جاء الطالب المراكشي. وعرف بالحساب وقت خروجي إلى السند لسماع مقرئة تفتت أكباد كثير من أبناء جنسي لحلاوة صوتها. وقد أخرج الكنز الذي به الدينار. والدينار عندي أمانة. فلا بد أن تعيدوه إلى مكانه... عند هذا الكلام عادت كيما إلى نومها.

خرج الطالب الحاحي بعد أن أفهم السالمة من وراء ستار أن ساكن كيما من كبراء الجن. ولا يستطيع تعزيم ولا جدول من قبل الإنس إخراجه لأنه أمير ولأنه مظلوم. وأنه مواخذ من جهة من هو أعلى منه على التفريط في الدينار المطبوع الذي أخذه منه من عثر على الكنز الذي كان فيه. وأن هذا الكنز دخل إلى هذه الدار.

فلو أخذ الدينار وأرجع إلى مكانه لكان في ذلك إنقاذ حياة كيما. وهو لا يريد بديلا عن ذلك. لأن همة من في البلد كلها لو اجتمعت ما افتدت ذلك الدينار المطبوع المشحر في مداد أذيبت فيه أسماء من أسماء العزة.

وضعت السالمة خطتها لإنقاذ كيما وصممت على أن تتقرب من القائد بعد رجوعه. وأن تتحبب إليه بكل ما أوتيت من أساليب الغنج حتى وإن كان لا يفهمها حتى يفضي إليها بسر الكنز. ويقبل بإرجاع الدينار إلى مكانه طلبا لشفاء كيما. وكذلك فعلت. على مضض كبير.

اندهش القائد لما رأى من السالمة وظن أنها علمت بقرب وصول الشركسية وفعلت فيها الغيرة فعلها. بل إنها أظهرت له ما جعله في وقت ما يندم على التفكير في الشركسية التي كلفته مالا كثيرا واستبدت بوجدانه وملأت خياله في ليله ونهاره. ولما فاتحته السالمة في شأن الكنز استغرب وهو يظن أن لا علم لأحد بذلك الأمر. وذهب كل مذهب في تقدير مصدر الوشاية. وقال في نفسه : أما وقد علمت فلا بأس أن أتحفها بقطع منه تجعلها في حليها. وبذلك أظهر لها أنه ليس عند أبيها ما قد يكون عند غيره.

وفي الليلة الموالية أعطاها قطعتين وقال لها : هما لك. ولكن قولي لي من أين علمت به. إذ ذاك حكت له قصة الطالب الحاحي الذي أتت به ليعمل على إخراج الساكن من جسم كيما. وكيف أنه استطاع أن يستنطق ذلك الساكن ويخبره بالحقيقة. وقالت : أنا لا أريد حليا جديدة ولكن أريد أن أرى كل الكنز وأستخرج منه دينارا فيه. هو وحده الدينار المربع. وأريد منك أن تعيده إلى مكانه لكي تشفى هذه المرأة المعذبة.

وعد القائد زوجته السالمة بأن ينظر في الأمر. وذهب بالفعل إلى المكان الذي فيه ما بقي من الكنز وفرزه قطعة قطعة. وأعاد فرزه مرة ثانية وثالثة فلم يجد فيه دينارا على الوصف الذي وصفته السالمة. وحاول أن يصرفها عن الموضوع. ولكنها لم تنصرف. بل بدأت تطلبه وتتوسل إليه كما لم يخطر على باله أن يراها تفعل. وتضايق تضايقا كبيرا. فما ملك غير أن قادها في تستر إلى حيث بقية الكنز. وقال لها :

هذا ما بقي مما لم نصرفه. فابحثي فيه بنفسك. وما أحسبك وأنت بنت قائد ستفشين مثل هذه الأسرار.

فتشت السالمة في حمى الانفعال. ولم تهتم بالذهب الرنان. ولم تستهوها تلك القطع ببريقها وبهائها وجمال رسومها وحسن صناعتها. وإنما كانت تبحث عن عقار صاحبتها التي حياتها وهناؤها لديها أنفس من كل شيء. ولما لم تجد ما كانت تبحث عنه توجهت إلى القائد وكان ينتظرها أن تفرغ من البحث. وهي تقول : وأين ذهب الباقي ؟ ألا نستطيع أن نبحث عن الدينار وأفتديه بكل ما أملك من حلي الذهب ؟ أتوسل إليك أن تعينني على ذلك. قل لي من هم التجار الذين أخذوا منه ووالدي يتولى البحث عن مصير الدينار.

ولما ذكرت والدها غضب القائد وكشر وانتفض وقال : وما دخل أبيك في هذا ؟ فهل تساعدينه في التجسس علي ؟ أنا أعرف أنه أرسل أحد أصحابه في صورة طالب يرقي بنت شيخ الجبل. وقصده أن يعرف كل شيء عن هذا الكنز بعد أن أبلغه عنه ابن الزارة الذي كنت دائما أشك في علاقته بوالدك منذ أن اقترح علي أن أخطبك للزواج. فقد اختلقتم قصة هذا الدرهم. ولا أدري هل تعملون ضدي مع أعدائي أم أنتم من أنسابي ؟ لا تعودي إلى هذا

الكلام ! وإذا صدر منكم شيء يمس بي فسوف أعرف كيف أحمي نفسي. لا تعودي إلى هذا الكلام. لا تعودي.

ندمت السالمة على تحببها بعد قطيعة طويلة لهذا الزوج الذي لا يعرف إلا الصخب وسيلة للدفاع عن نفسه والذي تجعله أفعاله موسوسا متشككا حتى في حق أقرب الناس إليه. وقررت أن تستغيث بامرأة جربتها وتيقنت أنها تستطيع أن تستطلع بعض الأخبار عن طريق خديم من الجن تتصل به.

حضرت المرأة واشترطت شروطا قبلتها السالمة. ثم أحضرت لها كل ما تحتاجه للاتصال الذي تريد أن تعرف فيه السالمة مصير الدينار وأين يمكن أن يوجد. وعادة هذه المرأة أن تغيب عن وعيها ثم تتكلم. وعلى الذي طلب منها أمره أن ينصت ويفك رمز كلامها على مقتضى مرغوبه إذا تكلمت. وكان ما قالته المرأة بحضور السالمة وخادمتيها :

قل لي يا لخديم غير قل وأنا ليك نطوع
قل لي يا سيدي فين غاب المطبوع

وبعد صمت واستغراق نطق الخديم منها وقال :

فين فين المطبوع ندري وما ندري
نشوف وما نشوف المكر يوقع
والحسيفة توقع الروح ترفع
الراس يتقطع والمطبوع عمرو ما يرجع

فهمت السالمة أن العثور على المطبوع. أي الدرهم الذي كانت تحمله أميرة الأندلس في غرتها. أمر متعذر. ولم تهتم ببقية إشارة المكاشفة. وعادت إلى حالها من النفور من القائد ووالت عكوفها على تمريض كيما.

34

تشكك القائد همو في تسرب أخبار الكنز إلى غيره وتخوف من العواقب. فبدأ يرسل بالتقسيط ما تبقى له ليصرف بالفضة من سكة الوقت على أيدي بعض الصياغين في المدن. وعلى أيدي بعض التجار الأجانب في الدار البيضاء. بواسطة باروخ. ولكن مبعوثيه إلى مراكش عادوا مرة بلا صرف. لأن الصياغين قالوا إن الكمية كثيرة وصرفها يحتاج إلى وقت طويل. وعادوا مرة ثانية وقالوا إن قطاع الطرق تعرضوا لهم وسلبوهم من كل ما كان معهم من المال والمتاع.

وفي تلك الأيام تقدم القائد في بناء دار جديدة يريدها أن تكون خاصة بالشركسية متى وصلت. فهو لا يريدها أن تختلط بغيرها من هذا الملأ المريض الذي يسكن دوره المجاورة. ولا يريدها أن تنظر إلى عيوبهم فيصغر في عينها صاحبها لأنه عاش متحملا لها ومتعايشا معها. ولا يريد أن تتسرب إليها أخباره مع زوجاته. ولا سيما ما وقع من النفور من جانب بنت قائد السهل. ولا أخبار هذه الوهدة السحيقة التي تردت فيها باختلاطها ببنت شيخ الجبل. وإن قضى الله بالولد مع تلك الشركسية فهو لا يريد أن يكون وحمها على مناظر بعض العجائز المسترخية الجفون من الخدم والإماء. فهو لذلك يفكر من الآن في جلب رديف سليم من بنات القبائل. صغار ذوات ملاحة. تتولى هي تربيتهن على يدها. وتعلم بعضهن ما تتقنه من الصنائع لإعانتها عليه. ودعته هذه الأفكار إلى التأمل في لغة الشركسية. وهل هي ستكون مبعث صعوبة في التفاهم بينهما أم لا ؟ واستبعد ذلك لأن الزوج وزوجته لا يحتاجان إلى الكلام إلا إذا وقعا في الخصام. هكذا يقول مثل بلده. ثم إن زوجته الآتية ستتحصن وراء لغتها الغريبة ضد كل

العادات والترهات التي لا يمكن أن تتسرب إليها. وسيخافها من لا يعرف رأيها في الأمور. وستسير كل شيء حولها بالإشارة إلى خدم ينفذون بلا مناقشة ولا هوادة. ولن تحتاج إلى الكلام معه لتطلب حاجاتها لأن تلك الحاجات ستحضر إليها قبل أن تطلبها. وستعبر بابتسامة رائقة عن الشكر على تلك الحاجات. فقد قال له الطالب الذي لديه خبر الشركسيات ممن عند علية الحكام في الحضرة إن الشركسيات شكورات. بل هن يعبرن عن هذا الشكر بمختلف أنواع التعبير للأزواج. وهذا بيت القصيد بالنسبة للقائد. لأن عيب من جربهن هو قلة الشكر. وهو قد رضي على علو مقامه أن يتخذهن حليلات. وكان ذلك الشرف كفاية لهن. فما بالك والنعيم الذي يوفره لهن بالمسكن الرائق والمأكل اللائق والملبس الرفيع !

أما بنت الوزير فلا يعد عليها زوجها القائد شيئا. فهي قد راقبها وحكم عليها حكما لا يستطيع أن يذكره حتى لنفسه حتى لا يطلع عليه أحد. فهي قاصرة. إن لم تكن بلهاء. فهي تبكي كما يبكي الطفل الذي يريد إثارة الانتباه ثم لا تلبث أن تنسى أنها بكت فتضحك وتفوه بأمور من أمور الصبيان. وتطلب الخادمات أن يبحثن لها عن طفلات تلاعبهن بالقفز على الحبال والتقاط الحصيات والترادف على الظهور. وغير ذلك. والآن يفهم القائد أن الوزير صاحبه لن يحاسبه على شيء من شروط هذه الزوجة لأن تدبيره كان على يد الطباخة الماكرة. وبضغط من أم البنت التي هي من جملة من هجرهن الوزير منذ أن دخل في بحبوحة النعيم الشركسي.

لكن أين الشركسية ؟ لقد انتظر القائد وطال عليه الانتظار. وهو لا يشك في مهارة مبعوثه ندري ولا في إخلاصه لأن ضمانة ذلك الإخلاص هم أهله الذين يعيشون في كنف القائد. المقدمون على

غيرهم في أعطياته وفي كل الامتيازات حتى إنهم مبعث حسد تجار المسلمين واليهود على السواء. لكن الذي يخافه القائد على وصول هذه الأمانة في أمان هو اختطافها من قبل المترصدين لمثل هذه النفائس من الجواسيس في المراسي. ولا سيما المقربون من بينهم لأهل الحل والعقد. وقد كان عليه أن يعقد مع ندري موعدا في طنجة أو الخزيرات أو أن يطلب من أحد تجار النصارى المتلقطين للأعشاب في قبائل إيالته أن يعين لندري السفينة التي يتوجب عليه أن يركبها حتى يتولى هو إنزاله ومرافقته كما لو كانت البضاعة موجهة إليه. وحدث القائد نفسه أن مثل هذا التدبير قد لا يكون فات أوانه.

حدث القائد صاحبه باروخا بهمومه وبقلقه لتأخر أخبار قريبه ندري المبعوث لجلب الشركسية. فقال باروخ :

- سأذهب يا مولاي إلى الدار البيضاء وآتيك بالخبر.

ذهب باروخ إلى الدار البيضاء وحمل معه قدرا من دنانير الذهب من بقية الكنز الذي استخرجه القائد. وهو مكلف بصرفها بعملة الوقت على وجه السر التام.

وبعد ثلاثة أسابيع عاد باروخ من الدار البيضاء بشيء من صرف الدنانير التي تركها لدى الصرافين في المرة السابقة. وعاد برسالة عليها خاتم بريد بلد الطليان. وفيها الخبر بأن قريبه ندري في طريق رجوعه بالأمانة. وأنها في غاية الصون. وأنه يتكلم معها بكلام الترك الذي تعلمه بالجزائر. ويشوقها لمولاها القائد. وأنها لم تعد تغمض جفنا من شدة شوقها إلى لقائه. وقال إنها من صنف جليسات الأمراء. وكانت المزايدة عليها بعد الاطلاع على رسمها وأداء واجب إزالة الخمار للنظر إليها وإعطاء عربون المزايدة عليها مع مزايدين من ذوي الأقدار كان فيهم مبعوثا أميرين أحدهما من بلاد مصر والآخر من بلاد الصرب. وأنه لم يقبل

التنازل عليها حتى فات الثمن ما بقي بيده من المال. وزاد حتى نزلت عليه واستكمل ما احتاج إليه بقرض أخذه من يهودي يتجر لسلطان الترك قدم إليه توصية من أحد القناصل بطنجة. فكل ما أخذ منه هو خمسون ألف درهم مروكي فضة. أكمل بها الثمن واستفضل ما يحتاج إليه في الطريق لأن هذه الغادة يؤدي عنها في الجمارك. ويؤجر عنها الحراس عند النزول في كل مرسى. ولا تبيت ولا تأكل إلا في المنازل الفخيمة والفنادق المأمونة. وقال إنه أفلت من الكارثة ببركة القائد. ذلك أن شرطة الترك كانت تبحث عنه لتحقق معه في المال الذي اشترى به الأمانة بعد أن فضحته الجوازيط وحسبت تلك الغانية أجمل من ظهر في سوق الغواني منذ قرون. وفي الأخير قال ندري في رسالته إنه يفكر في أن يذهب إلى بر المسلمين فيدخل من الجزائر على مدينة وجدة ومنها إلى تافيلالت ويأتي لإيالة القائد من ظهرها المأمون.

تعجب القائد من تفاصيل الرسالة وإن كان لم يفهم شيئا في الكلام عن الجمارك والجوازيط حتى شرح له باروخ أن الجوازيط في بعض البلدان هي أوراق تكتب فيها أخبار الناس وتوزع لمن يريد أن يشتريها.

تحير القائد لكون ندري لم يقل في رسالته. ولو على سبيل التقدير. متى يمكن أن يصل بالأمانة. ولكن القائد عرف الآن أنه لن يحتاج بعد اليوم إلى نظارات الهند التي اشتراها لمراقبة من يأتي من جهة السهل. فإذا الذي ينتظره سيأتي من جهة الجبل. والجبل بشعابه يحسر النظر ويباغت بالمفاجأة. والقائد على كل حال لا يتفاءل بالجبل. ولذلك ضمر صدره وتكدر صفو خاطره.

لم يهتم القائد لما ورد في رسالة ندري من كونه أنفق ألف ألف التي أخذها منه وزاد عليها أموالا تسلفها من التاجر صاحب ملك الترك. ولكنه أحس بخياشيم أنفه تتمدد وهو يعلم أن هنالك في

البلد الذي تقطع له البراري وتمخر البحار. وكيلا لـه يزايـد علـى غادة لم يجد بمثلها الزمـان. ويغـالب في شـرانها أصحـاب الملـك الأثير من أهل البلدان التي لم يسمع عن بعضها إلا من الحجـاج. هذا هو المهم. وهو يعرف أن ذلك كله حصل له لطيبوبتـه وحسـن نيته. ولأنه لم يفعل شرا إلا في الأشرار. فهو مسخر لإهلاكهم مـن الأقدار. وفي ما عدا ذلك فهـو أطيـب النـاس ويسـتحق خـير هـذه الدنيا وخير الآخرة.

نام همو على ذلك الإحسـاس الـذي انتهـى بـه إلى الرضـا عـن نفسه وتبرئتها. وهو يعرف أن الغد يوم السوق وأنه في صبيحته إلى الضحى يجلس للفصل في أمور أهل الجبال. وكل المتقاضين يـأتون بالهدايا.

ولما أنهى سـاعة الجلـوس المعتـادة قـام وجمعـت الهدايـا الـتي أمامه مما ليس مالا. وأدخلت إلى الدار. ووقف في المخـزن الكبـير داخل الدار والخدم يضعون كل نـوع مـن المـيرة في مكانـه. حتـى وصلوا جرة من الجرات التي فيهـا السـمن وختمـت بعجـين فلمـا أزالوا العجين ظهر السمن. ولما أفرغوه على السمن الذي صبوه مـن قبل خرج من الجرة قليل سمن وتبعـه الملح في مـا بقـي. وضحـك الخدام وغضب القائد لأنه لم يسبق أن تلقى مثل تلك الإهانـة مـن أحـد قبـل ذلـك. وسـأل الحـاضرين مـن الخـدم عمـا إذا كـانوا يستطيعون أن يتعرفوا على صاحب الجرة. فلم يهتدوا. إلا واحـدا منهم قال إنها من أحد الشيوخ الذين زوجهم القائد بمطلقاته. ولمـا سمع القائد مقالة الخادم اشتد غمه ونفى أن يكـون ذلـك صحيحـا أمام الحاضرين واتهمهـم بالغفلـة وبعـدم الفطنـة. ولكنـه تيقـن في نفسه أن شهادة الخادم صحيحة وأن الجرة قد هيئـت علـى ذلـك الشكل للسخرية منه وكأنها بصقة في وجهه. ثـم ضحـك وقـال في

نفسه. لعل الأمر ليس على ما أولته عليه. فلربما أرادت أن تسلم علي بالملح وتذكر أيامها المليحة في داري.

وفي اليوم الموالي جاء باروخ بعد أن استراح من تعب السفر. يدق باب القائد وقال له بعد التحية والسلام :

– يا مولاي حان لك أن تفكر في التاج.

فقال همو : التاج لصاحب التاج أيها المغبون. ماذا تريد أن تقول ؟

فقال باروخ : حاشا. حاشا يا سيدي ! أنا ما قصدت تاج مولانا السلطان. ولكن قصدت التاج الذي يوضع على رأس العروس. وصنعه يتطلب وقتا. لأن الحجر الكريم لا يوجد كل يوم في السوق. وعروسك قادم. والصياغ الذي على يدي يصنعه بالكتمان وفي غاية الإتقان.

فكر همو ووجد أن كلام باروخ في غاية الوجاهة. وبعد استقدام الصياغ صاحب باروخ. أعطيت له قطع النقود التي ينبغي سبكها وأعطيت له قطع أخرى قدر أن تشترى بها الأحجار التي سيرصع بها التاج. والتفت همو إلى باروخ ولم يكن معهما أحد. وقال له : هل بقي لك شيء تطلبه أيها المغبون ؟

فقال باروخ : مولاي. زوجتي شميحة. ستطلب منك شيئا يومه السبت. ستطلب منك شيئا. فأنا أقدم لك عار الطعام الذي شاركته مع والدك ألا تخيب رجاءها !

وفي يوم السبت دخلت شميحة ومعها باروخ على القائد بعد أن أذن لهما. فسلمت وهي في كامل زينتها. ووضعت أمام القائد طابقا من الخبازى المطبوخة في ماء الحياة. ومعها الخبر المسمى بالرقاق. وكان الوقت وقت برد.

35

كانت كيما والسالة ذاهلتين عن زوجهما القائد همو. غائبتين عن أحواله. فالأولى تعاني أحوال الصرع. لا تبل من شدة حتى تعاودها أخرى. وفي كل يوم يذوب منها الجسم وتضعف القوى وترحل عن عالم الناس. لا تبتسم إذا ابتسمت إلا للطفلة نجمة. عيناها لم يعد يراهما أحد. فهما مسمرتان على الأرض وكأنهما معولان تريد أن تستخرج بهما الماء ليروي غلة قاتلة. ورأسها لا ترفعه إلى السماء إلا إذا أرادت أن تنظر إلى القمر. فالإحساس لم يمت فيها بعد. وصاحبتها السالة تمرضها منذ إصابتها. وهي وحدها تعرف ما ينقص منها كل يوم وتحس به. وقد أعيتها الرقى والتعازيم، وكادت تفقد الأمل. وأهل كيما من حالتها كأنهم في حداد دائم. والقائد لم يسمح بأن يتركها تذهب إلى أهلها. لأنها أصيبت في داره فهي إما أن تشفى في داره وإما أن تموت فيها.

لم تعد السالة تستمتع بجمال الخيل ولمسها وتنظيفها والتمسح بها. ولكنها كانت تختلف مرة بعد مرة إلى شجرة الحناء وهي تعاني صعوبة للتجذر في تلك الأرض. فكانت تسقيها وتتحدث إليها كما لو كانت تحاول أن تبعث فيها الأمل الذي تفتقده في إنقاذ كيما.

وسمع الخادمات السالة ذات يوم وقد هدّ الصرع كيما وأخذت صاحبتها تمسح بيدها وهي تقول :

ذوبي ذوبي غير ذوبي ما بقي فيك ما يذوب
ما اخذاتهم عليك شفقة ولا رحمة، أمذوبت القلوب
ما اخذاتهم عليك شفقة ولا رحمة دعيتهم لعلام الغيوب

وتسامع الناس في دور القائد وخارجها بذلك الكلام ورددوه وشاع أمر محنة كيما. ولربما شاع عند بعضهم حتى ما قاله الطالب الذي عرف إصابتها. وقال الناس : همو رجل قاسي القلب. لو طلب من القبائل أن تفتدي ذلك الدينار المطبوع لفعلت بآلاف أضعاف ثمنه. لكن همو لا يريد أن يقول أين ذهب المطبوع. أما السالمة فقد يئست من كل شيء وبدأت تتشرب حال كيما بحالها. وتظل نجمة هي الحائلة بينها وبين الالتحاق بروح كيما في محنتها. فالسالمة تريد أن يتساوى الجسدان في محنة واحدة. ولكن جسدها هي ليس في ملكها وحدها. فهناك نجمة. ثم إن نجمة وحدها هي التي تبعث البسمة في كيما. بسمة فاترة. ثم تهوي في قاع سحيق. وقد كانت تغيب معها السالمة مع تقدم الأيام إذا حضرها الصرع. فكان الحاضرات يشاهدن ذلك ويحفظن كلام مناجاتها لصاحبتها :

أدّاخلين خرجوا من جناني — هادي وردة نبتات في جناني
هجروها ها عاركم واسكنوني — هي رهيفة رهيفة غير فهموني
هي وردة ونرويها بحناني — شموها هي وأنا فركوني

وقد حل ثامن رمضان على ميلاد نجمة. وأرادت إماء أمها إقامة تعشيق لها على عادة قبيلتهن مع الصبيات. وأقمن بعد صلاة العشاء قعدة. فيها المشروب والمأكول. وأجلسن كيما على وسائد. وهي تنظر بصعوبة إلى نجمة كأنها تنتعش بها. وفي وقت من تدوير الطار أخذته السالمة وضربت عليه وهي تقول :

مال اللي ما يظلم ينظلم — مال الزمان يضرب وما يعلم
مال هادوك إيغصبو — وحبيبتي هي التي تغرم
مال جرحي غير يزيد ينكلم

وبكت السالمة وأبكت من كان في المجلس. وسقط بعض الإماء مصروعات. وخافت السالمة على كيما. ونقلوها إلى غرفتها. وشاع كلام السالمة الذي قالته في تلك القعدة. وزاد في القلوب كمدا. وانتشرت القصة في الآفاق. وبلغت تفاصيلها أم السالمة فخافت على المرأتين معا. وقررت أن ترسل إليها امرأة جربت في إبراء كثير من النساء المصابات بالصرع.

وافقت السالمة على رأي أمها ووصلت المرأة المعلومة. وتسمى جامو. وهي في الأربعين أو تزيد. ضخمة الجثة. غزيرة شعر الحاجبين. لا تنظر إلى الشيء مرتين. تجر أكياسا لا يدري غيرها ما هي به ملأى.

أقامت مدة ثلاثة أيام عند السالمة في بيت منعزل. ثم شرعت في اليوم الرابع تحرق الشب والحرمل وغير ذلك من البخور. ثم قالت للسالمة : برج هذه المرأة هو برج القمر. وذلك من حسن حظها. لأنه أقرب النجوم.

فقالت السالمة : وماذا تقصدين ؟

قالت جامو أقصد أننا سندعو القمر ليشفق عليها ويغار عليها ويمتص الشر الذي حل بجسمها. فالقمر شديد الغيرة. وبعض النجوم باردة. وتستدعى لأمور أخرى.

فقالت السالمة : وما العمل إذا ؟

قالت جامو : نقيم ليلة أنزل فيها القمر ليشرب من ماء اغتسلت به كيما ويكون في ذلك شفاؤها.

قالت السالمة : وماذا يلزمك لذلك ؟

قالت جامو : ليلة تمام القمر. وصحن دار عار لا يقربه أحد. وست خادمات عازبات ليس لأي منهن في ذلك الوقت عذر عن الصلاة. وأريد أجري مقدما لأنني سأختفي بنهاية صلواتي للقمر.

وقالت السالمة : وأنا ؟ لابد أن أحضر.

فقالت جامو : تنظرين من شرفة أو من وراء باب لأن لك بنتا وأنت أيضا محل غيرة القمر.

- وكيما ؟ أين تكون ؟

- تكون في غرفتها وتكون الغرفة مغلقة.

هيأت السالمة كل شيء ليوم تمام القمر. وأدخلت كيما إلى الحمام واغتسلت. ووضع الماء الذي غسلت به في القصعة التي سيشرب منها القمر.

دبرت السالمة الأمر حتى لا يدخل أحد إلى صحن الدار الذي سيجري فيه طقس إنزال القمر.

تركت السالمة خادمتي كيما تحرسانها وهي نائمة. وجلست في الشرفة ترقب كيف سيجري إنزال القمر.

انتصف مسير القمر في السماء ولمع ضوئه وعكسته جدران الرياض المطلية بالجير. واتخذت تحته أشجار الليمون في أحواض الرياض مظهرا زاده السكون رهبة وروعة. وظهر القمر للنسوة كأنه لا ينظر إلا إلى ذلك المكان. وحملن قصعة الماء إلى وسط المكان في ممشى واسع بين الأحواض. ووقفت جامو على مرفع تحت الرواق المقابل للقصعة. وبجانبها الأيمن ثلاث خادمات أوقفتهن على ترتيب بعد أن تفرست فيهن. ووقف بجانبها الأيسر ثلاث خادمات أخريات بأمرها.

وغمغمت وهمهمت وقالت لهن يردّدن ما تقوله مقطعا مقطعا. وبحسب ما إذا أسرعت في القول أو أبطأت. فبدأت وقالت والنسوة يرددن كل شطر تقوله :

ألكمرا نزلي نزلي *هذا وجهك فلعنا*

أنجما حنّي حنّي *هادي للا فمحنا*

ألكمـــرا غيـري غـــيري بسلطـــان الديـــن والدنـــا
ألويـدان حـــملي حملـــي هـــذا طـوفـان الفنـــــا

ألفـــنـا ألفنـــــــا ألفنـــــا ألفنـــــا
أنـا فنيـــت أنـا فنيـــت أو هنا كل شـي فنـــا

هـــا هـــــــي زادت. هـــــا هـــي زادت
هـــا الكمـــــــرا زادت

أو شكـــون مـــا يطيـــع هـــاذ الزيـــن الرفيـــع
أو شكـــــون ما يغيـــر على غـــرة البديـــع

نخدمـــوك ونخدمـــوهـــا ونخدمـــو كـل زيـــن
أملـــــوك الغـــــدر بحق مـول الدنيا والديـــن
اقطعـــوا منـي الـــوداج واقطـعـــوا الـــوتيـن
غير قيلـــوا مـــولات الزيـــن

ألكمـرا حيث انـت نـــــازلا
خلـي ضـــوك فـي السمـا أو جـي غيـر حـاشـمـا
نـــــورهـا يسبـــيـــك وبهـاهـا يجـليـــك

غيـر زيـــدي. غير زيـــدي غير اشربـــي اشـربـــي
هـــا وضـــوءها فـلينـــا

هاهي نزلت. هاهي شربـــت. هاهي رجعت. هاهي رجعت
بالحـــق ومـــا نكـــذب للا بـــرات. للا بـــرات.

عند هذا الكلام. وجامو والبنات وراءها يرددن ويرددن :

لـلا بـــــــــرات لـلا بـــــــــرات

سمع دوي اصطدام وسمع صراخ وعويل من جهة الغرفة التي فيها كيما نائمة. فهرعت السالة بعدما تيقنت مما سمعت. وكانت مشدوهة مشدودة بما كانت ترى وتسمع في ذلك الهدوء السادر. فقفزت وجرت إلى حيث كيما فإذا بخادمة تلقاها لدى الباب وهي تبكي وترتعش وتقول :

أدركيني أدركيني. سيدتي كيما غلبتنا. تقول إنها ستقتل نفسها.

دخلت السالة وإذا كيما بجانب فراشها مسجاة. وجاء الخادمات بطست فيه ماء ومناديل وأوراق جوز يابسة لحبس دم يسيل من جبهتها. وسألت السالة عن الذي حدث فقيل لها إن كيما استيقظت دفعة واحدة وبقوة لم يملكن معها القدرة على ردها. فارتطمت بالجدار الذي بجانب الباب وشدخت رأسها. والذي هو ساكن فيها يقول : أنا سأرحل. لا أطيق هذه الأوساخ. أنا سأقتلك.

كانت السالة تذهب وتجيء في الغرفة. بينما كان النسوة يضمدن جراح كيما. وكانت السالة تغمغم بكلام غير مبين. ورأتها خادمتها على تلك الحال فخافت عليها أن تصاب بلوثة. فضمتها إليها وأجلستها عند رأس كيما. فجلست القرفصاء وهي تحملق في المريضة الغائبة عن وعيها وكأنها على ميعاد معها للحديث. وفجأة التفتت إلى إحدى الخادمات اللاتي شاركن جامو في طقس

إنزال القمر. وقالت لها : هي نزلت ؟ هل شربت ؟ فأومأت لها الخادمة بما يفهم منه أن نعم !

واخترق نفس السالمة وميض من الأمل وقالت : لعلها تكون الأخيرة ! لعل القمر أشفق من حالي. فأنا بنته كما كانت تقول كيما، لعل ...

لم تفق كيما من غطستها في النوم على توالي تلك الأيام. وكان الطعام السائل يصب في حنجرتها فلا تستمرئه. ولما أراد الخادمات حملها إلى الحمام منذ إصابتها الأخيرة ترهل في أيديهن جسم هلامي كسته من جديد تلك البقع الزرقاء المستبشعة. واكتفين بعد ذلك بتوضئتها في غرفتها بكامل الرفق والحذر. وبعد أسبوع وصلت أمها. وكان قد بلغها تفاقم حال بنتها. وأخذت في إحراق البخور فلم يفد. ثم أمرت خادمتها الكبرى أن تقرأ لها بين الحين والآخر جزءا من كتاب بحر الدموع. وكانت كيما في بعض الأحيان تشاهد وكأنها تتمتم بشفتيها تواكب تلك القراءة. وكانت أمها تأخذ بيدها هي أيضا وتقرأ شيئا في سرها.

وبعد أيام أفاقت كيما واستردت وعيها وقبلت يد أمها وبكت دون أن تجهش لأنها كانت أضعف من أن تحدث صوتا، وإن نزلت من مآقيها قطرات ساخنة سالت على الخدين. وتعجب من سخونتها من كان يمسح وجنتيها الذابلتين. وظهر وكأنها تتعافى حتى إنها أفهمت السالمة بالإشارة أنها أرادت أن ترى نجمة، وحملت إليها الطفلة. وقبلتها ونظرت إليها كيما ونظرت إلى أمها وقالت بصوت خافت لا تكاد تقوم به الشفاه ولا يفهمه إلا من يحزره :

– عندما أرى نجمة كأنما أتأمل القمر.

كانت السالمة هي وحدها التي فهمت معنى قول كيما. وكان

جوابها الذي لم تبح به لأحد وأضمرته في سريرتها :

– وأنا عندما أسقي شجرة الحناء فكأنما يمر القمر ببابي يطلب رية، أو كأنما أسقي أشجار الجبال كلها.

وبعد أسبوع من ذلك التاريخ. وكانت أم كيما تستعد لمواجهة القائد في معركة الأم لانتزاع ابنتها والرجوع بها إلى أهلها. اعترى المريضة اضطراب شديد وأحاط بها النساء. وكان صدرها ينتفخ وعروق عنقها متورمة وكأن الدم قد انحبس فيها، فقال بعض الخبيرات :

– نسقيها، إنها تنازع،

فقالت السالمة : ماذا تنازع ؟

فسكتت من قالت ذلك وخافت.

وبعد وقت قليل انتهت المنازعة، وأسلمت كيما روحها لله.

سمع النساء، وأكدن أنهن سمعن، ارتجاجا في خشب السقف وخلخلة في رتاج الباب. خارجين في اتجاهين مختلفين. ولكن بعضهن قلن إن الروح صعدت إلى السقف لأنها أخف وإن الجني هو الذي خرج من الباب، وقال أخريات بعكس ذلك.

قام البكاء والعويل بين النساء، ولكن أم كيما أسكتت ذلك كله، وتوسلت إلى كل الخادمات والنساء الأخريات ألا يحدثن ضجة بالبكاء المعتاد لأن عوائد أهل كيما عند موت الأقارب هي التكبير والتهليل وقراءة أسفار من كتاب بحر الدموع جماعة، ويعتبرون البكاء ضارا بالميت، ولكن إذراف الدمع الساخن للتفريج في سكينة أمر لا عيب فيه. ولم يستجب كل النساء لذلك الوعظ الغريب بل أبى بعضهن إلا إقامة العوائد بالندب وتعفير الخدود، وقلن : لا أحد يمنعنا من أن نقيم المأتم كما نريد.

وحتى بنت الوزير جاءت تعزي في ضرتها، وجاءت بشمعة كبيرة أثارت الدهشة بحجمها وأشعلتها عند رأس الميتة وأخذت ترش الجثة بماء الزهر.

أخبروا القائد بموت كيما عندما استيقظ من قيلولة الظهر، وأمر على الفور بتنفيذ لوازم الدفن. وتوجه إلى غرفة كيما. ودخل وخرج كل النساء، ورد عليه الباب وأطرق في جلوسه بجانب جثة زوجته، وأطال الجلوس، ثم خرج وأدلى على وجهه طرف عمامته، وقال نساء إنه كان يبكي. وتصور أخريات أنه طلب من زوجته أن تغفر له إن كان قصر في حقها. وعلقن بقولهن إن القائد في حقيقة الأمر رجل رقيق العواطف، ولكن زوجاته لم يتفهمن أعذاره ومشاغله.

أما السالمة فقد كانت بين ذراعي أم كيما تواسيها كأنها هي الأم التي فقدت بنتها. وكانت شاردة لا تقول شيئا. وقبل أن تحمل كيما لتغسيلها وتكفينها نظرت إليها السالمة وقبلت جبينها وشعرها. وصعدت بعد ذلك إلى غرفتها التي في جانب البرج وأغلقت عليها الباب. وكانت تسمع الجنازة عند خروجها فقالت في نفسها : هكذا يكون الأمر. يطير الطائر ويودع القفص في التراب، ويعود الناس. ودعتها فكرة الطائر إلى ذكرى من طفولتها يوم مر على دارهم من جملة الجوالين رجل ذو عمامة خضراء تميز بها دون الرجال يسمى بو براطل. يحمل على دابته أقفاصا مختلفة الأحجام بها طيور مختلفة الألوان، فكان أن أعطى السالمة مقابل زرع من خزين أبيها قفصا فيه طائر يشبه الهدهد في حجمه ولكنه متنوع الألوان، ليس في بلدها مثله. وكانت تنام به وتستيقظ، وهي طفلة في سن بنتها نجمة اليوم. وذات ضحى كانت تستمتع كعادتها بمنظر السياسين وهم يغسلون الخيل في الاصطبل، وتنحت جانبا لقضاء الحاجة فوضعت القفص على

الأرض. ولما رجعت وجدت أن فرسا تحركت وداست القفص وخرج منه الطائر وحلق في الهواء. وبكت طويلا وعزاها أهلها ووعدوها بطائر أحسن منه. ولكنها نسيت وكبرت. فما أشبه اليوم بالأمس. ولكنها لا تتوقع ولا تقبل أن تنسى كيما. ولكنها نسيت الغرض الذي من أجله تركت الناس يموج بعضهم في بعض بدار الموت وصعدت إلى غرفة البرج. ذلك لتنظر من بعيد إلى المقابر لأن أهل البلد جعلوها في مكان مشرف جهة الجبل. وكثيرا ما نظرت السالمة من قبل إلى أشباح هنالك بعيدا يهوون بالفؤوس على الأرض لحفر قبر ميت من الأموات أو نظرت شرذمة يدفنون ميتا ويعودون، ولكن الميت اليوم أقرب الناس إليها.

هناك في المقابر رجال كثيرون يبدون للسالمة من بعيد وهم قد سبقوا لحفر القبر، الحفرة التي سيتوارى فيها القفص قفص كيما بعد أن غادره الطائر. كانت السالمة متدلهة في هذا القفص بجماله الذي كان فيه الطائر. كل هذا لا يعرفه الذين أعدوا الحفر وأنهوه منذ وقت غير قصير، وموكب الجنازة الآن في الطريق إليهم ليس فيه إلا الرجال. لا تراهم في طريقهم لأنهم تحت أغصان الشجر. وشعاب البساتين إلى العراء، والمحمل في وسطه وهو يقترب من المقابر وسط التهليل، ولا يستبعد أن الجم الغفير من الماشين فيه، هبوا لأنهم يحبون كيما وقد فاحت أخبار شيمها كالزهر منذ دخلت دار القائد. لم تعد السالمة تطيق أن تنظر. وأغلقت الشرفة.

انقبضت السالمة على نفسها مليا ثم قامت كالمذعورة خائفة من كآبتها التي تقطع الكبد، وتوجهت إلى الدور الأسفل حيث الخلق يموج بعضهم في بعض، واستجارت بأم كيما وأدخلت رأسها ثانية في حضنها، ولما أحست منها هذه أن جبهتها حامية تصلح أن يشوى عليها الخبز أمرت بكمادات وماء سخن لكسر حرارتها

وأمرت بشد رأسها، ثم ألزمتها باحتساء محلولات من أعشاب الجبل.

قضت السالمة يومين في تلك الشدة وذلك الكمد وأم كيما تصبرها. كما لو كانت هي المفجوعة وحدها. وفي اليوم الثالث بدأت السالمة تسترجع حركة تنفسها العادية والقدرة على تجميع بعض أفكارها التي تاهت، فلم تتمالك أن فتحت مرة أخرى غرفة البرج بعد العصر تلك النافذة التي ينظر منها جهة المقابر هناك في سفح الجبل، فإذا القبر نقطة خضراء داكنة لا تتميز بشيء بين القبور إلا بحدة أغصان العرعر الموضوعة عليها مثقلة بالحجر اتقاء نبش الوحوش. وتذكرت السالمة رائحة هذا العرعر الفواح التي أمتعت أنفها حين السفر إلى بلد كيما، وتذكرت أن القبور في بلدها هي لا تغطى بهذا الشجر الذي يقطع ليوهب للموتى هنا، وإنما يوضع عليه السدر المتوفر هناك. وتذكرت ما حكي لها من كون والد كيما إنما انهزم أمام مكر مقاتلي القائد لأنهم شرعوا في قطع أشجاره وهم يعلمون أنها نبتت في أحشاء وجدانه. فقال أولاده بالنيابة عنه : توقفوا عن تقطيعها ؛ واستسلموا. وتذكرت شجرة الحناء التي قالوا إنها عجزت لوحدها منذ عهد طويل عن صرف الشر عن أهلها، تذكرت كل ذلك وقامت ونزلت إلى الطابق الأسفل وتسللت إلى خارج الدار وأشارت إلى خادمة فهمت منها القصد واتبعتها بإناء فيه ماء لتصبه على الشجيرة التي ذهلت عن سقيها لعدة أيام.

وفي عشية ذلك اليوم الثالث جلست أم كيما في الغرفة التي كانت لبنتها وأحاط بها من جاء معها من النساء، وانضمت إليها خادمتا كيما وقرأن أسفارا من بحر الدموع في ترتيل خاص بنساء

بلدهن، وذلك بين المغرب والعشاء، ثم طعم من استطاع أكلا من عشاء الميت. وكانت أفكار شاردة تقر في صدر السالة كالسهام، فتنخس، وشرد منها الذهن وذهب خيالها إلى القبر هناك وتصورته تحت ستار الظلام، لا يخاف من فيه ولا يخاف عليه، ربما لأن الخوف إنما هو جزء من هذه الحياة.

وعادت ببصرها الداخلي من المقابر تلوذ خائفة بكيما التي في وجدانها، ورأت كأنها ترى لأول مرة حزنا شديدا على بعض الإماء والخادمات، ورأت أن سر ذلك التعلق في إكبار هؤلاء الخادمات لما كانت تعطيهن من الحب لا لما كن يقدمن لها من الخدمة، وتمثلت نفسها خادمة لكيما، وكذلك كان الأمر في حقيقة ما وقع بينهما، فإن هذه الأخيرة أسرتها بالاستسلام من أول وهلة، وكانت تفيض عليها من باطنها قوة نفس كانت تمحق بها وجودها المستقل، أنانيتها كامرأة تغار أو تحسد أو تنافس، فكذلك إذن حال الأمة مع ربتها، لكنها هي ولا شك تتميز عن هؤلاء بالقدرة التي كانت لها على أن تكون صاحبة غيرة وحسد ومنافسة، بينما هؤلاء الإماء لم تكن لهن تلك القدرة، فهن كالملائكة، وهي بشر سوي، فقوة جمال روح كيما تظهر فيها هي بالتأثير أكثر مما تظهر في الخادمات.

وبعد العشاء تحلقت النساء في ملإ عظيم، وبدأ المنشدات في الرثاء بذكر محاسن الفقيدة ففتحن من جديد سواقي الفؤاد في كل امرأة لتجري ماء الوجدان على سواقي الخدود، وكانت أم كيما متماسكة في موقفها النسكي الذي دربت عليه، وكانت السالة تطوف ببصرها من أعلى الطنافس على ذلك الملإ، وكأن الأمر

لا يهمها، أو كأنما هي آثرت أن تبكي إلى الداخل. وفي وقت من ذلك الإنشاد أخذت الطار وضربت عليه وقالت ترثي صاحبتها :

قولوا لي قولوا لي أنا فين وهي فين
بزاف على الدنيا تحمل ذاك الزين
واش كان يطول على السما اتسنا ديك العين
احنا ما سخينا بها وحق مول الدنيا والدين.

36

رجعت أم كيما إلى دارها لا تحمل شيئا من أشياء بنتها التي رحلت، فالحلي استحوذ عليها القائد، والألبسة فرقتها الأم على الخدم، وعادت مع أم كيما الخادمتان اللتان جاءتا مع بنتها. وكان القائد حمّل ابن صهره الشيخ احماد الذي حضر وفاة أخته رسالة إلى أبيه.

وصلت الأم وتسلم الشيخ الرسالة مشمعة وأهمل فتحها لأنه لم يشك أنها تعازي رجل يعزي في المرأة التي غصبها وعذبها، والشيخ والدها لا يريد أن يثير هذا الموضوع حتى في قرارة نفسه، فالمهم أن ينسى هذه المصاهرة، ولا شيء يمكن أن يرد عليه بنته، ولعل صاحب القصبة يقوم بأدنى الواجب الذي عليه فيوقر أصهاره السابقين مدى الحياة.

لكن الشيخ الذي انشغل بالتعازي من أهل قبيلته تلقى رسالة أخرى من القائد جاء بها من حضر السوق. ولما قرأها الشيخ وجد فيها أن القائد يستعجله في الجواب عن الرسالة الأولى التي حملها إليه ولده.

بحث الشيخ عن تلك البطاقة بين رسائل أخرى وصلت إليه لتعزيته، ولم يفضها لشدة الكمد، فلما وجدها قشر شمعها وقرأها فإذا بها في موضوع غريب لم يكن الشيخ يتوقعه و لا علاقة له بالتعزية، قال القائد :

"وبعد، كان عليك أن تأتي لتقدم التعزية بنفسك، ولكن هذه المراعاة قليلة عند أهل الجبال، ولو جئتنا لكفيتنا المشقة لأننا نريد أن نخاطبك بالوجه في أمور، وعلى كل حال نعلمك بأن بعض أصحابنا من تجار الأجناس احتاج إلى قشر الدباغ المسماة تكاوت، وهي وافرة في إيالتك أو عند جيرانك من أطراف الصحراء ممن

ليسوا في إيالتنا، فنريدك تدبر الأمر حتى تجمع غلة مقدارها عشرة قناطير لأصحابنا المذكورين، وتحملها إليهم بجمالك وتحت حراسة أصحابك حتى تمكنها لهم في الدار البيضاء. ولا بد أن يمر بنا من يحملها لنرسل معه رسولا من عندنا يعرف هؤلاء التجار. واعلم أنه وقف لنا عارهم وهم يقضون حوائجنا والشهادة لله. فكن رجلا في هذه، ولا يخفى عليك أننا وقرناك مدة المصاهرة إلا في ما حرمه عليك الشرع من الزكاة والأعشار وأحله لبيت المال. ونعرفك لا تنكر الخير، ولم نسمع فيك لقول الناس وإلا أعدنا لك بنتك من مدة، وعفا الله عما سلف."

قرأ الشيخ ما قرأ وتعجب، وأخبر أولاده وحنقوا على هذا المتغطرس قليل الذمة، وما غاظهم إلا موت أختهم في داره. وهي كانت درة عقدهم الغالية وحنان أمهم الثانية ومصدر نخوة حطمها همو يوم غصب الأخت، وكانوا على خلاف رأي أبيهم في الاستسلام إلى القائد، ولكن والدهم قال : نحن نستسلم لنصون مالنا وعرضنا من الذئاب ونستسلم لله ولسيدنا السلطان الذي أعطى الظهير لهذا المتلوف الوضيع.

وكتب الشيخ جوابا كظم فيه غيظه ولم يظهر منه إلى ما فاض عن الإناء، وقال للقائد :

"إلى من ماتت بنتنا الغالية في داره قبل أن تموت، حسبناك تعرف شيئا من أصول العوائد، فلا يخفى عليك أن الوالد هو أحق بأن يعزى. وما عرفنا من أين أتت مقولتك التي قلت، وقد ظهر أنك تريد أن تأتي لتأخذ رهينة في أموال تريدها وهي ليست عندنا ولا عند غيرنا منذ قشرت هذه البلاد حتى صارت كأنها أصابها الجرب حيث بعتها بيع المغبون، أما قشرة شجرة الدباغ فقد سلخناها في العام الفائت ولا غلة فيها هذا العام، وإذا توقفت على شيء من المال قطعنا من أنفسنا وأعطيناك، وأما ما ذكرت من

توقيرنا بسبب ما ذكرت فما رأينا ذلك صحيحا حيث كنا نطالب بما يطالب به الناس ونؤديه كما يؤدون. إلا أننا لا نرضى أن يدخل بلدنا تجار الأجناس. وإلى الله المشتكى."

كان كاتب رسالة الشيخ طالبا مختصا به يزمم معاملاته في كنانيش وهو من حذاق الآخذين عن شيوخ زاوية درعة وكنيته التلحيق، شبه بحبة البارود لخفته في كل شيء، وقلما واتته فرصة مثل هذه ليظهر مهارته في تحرير الرسائل.

ولما بلغت الرسالة إلى القائد همو وقرئت عليه قال له أناس في حاشيته إنه يعيرك بالتعامل مع اليهود وإلا لما ذكر أنك تبيع بيع المغبون. وغضب القائد غضبا شديدا وأسر الانتقام لنفسه. ولو عرف أن في الرسالة مثل تلك الجرأة لما أعطاها قبل أن يتهجاها للطالب الملازم له.

وبعد شهر من ذلك التاريخ جيَّش مائة فارس من أعداء الشيخ احماد وأمرهم بأن يذهبوا إليه وينزلوا عليه ويقوم بضيافتهم حتى يؤدي ما في ذمته من وظائف السنين الماضية، وحسب في ذلك مبلغا عظيما.

ولما عادوا بذلك المبلغ أرسل عسكرا آخرين ليقفوا على تسليم الشيخ احماد لفدادين وأشجار وأنعام قال القائد إنه أرادها في إرثه من كيما المتوفاة عنده، وأنه كتب بتلك الأملاك رسوم بيع لبعض التجار عيَّن لهم أجود ما عند الشيخ وأمر العساكر أن ينفذوا احتلال المشترين للأملاك.

وقد استنكر الشيخ احماد هذا الفعل الشنيع لأن البنت لا ترث وأبوها على قيد الحياة، ولكن ذلك لم ينفعه لدفع أطماع القائد. فكان انتزاع تلك الأملاك بالقوة وتسليمها لأجانب ليتصرفوا فيها مهانة ترددت أصداؤها في الآفاق، ومرض فيها الشيخ ولم يقم من فراشه حتى مات.

لم يدم مرض الشيخ سوى بضعة أشهر، وبعد وفاته نقل القائد المشيخة من داره وقلدها رجلا كان يشاغب على الشيخ من قديم، ولا أصل له في عين قومه في حسب ولا في نسب.

علم القائد ولد الشهباء والد السالمة بأفاعيل همو واغتم منها وتخوف منه على بنته، ووقع في وسواسه أن هذا الذي طالب صهرا مفجوعا بإرث لا يحق له يمكن أن يطالب غيره من الأصهار بمثل ذلك، وبدأ يفكر في كيفية تخليص ابنته منه، وفي تحضير العدة اللازمة لغزوه أو توريطه في قضية توبقه مع المخزن، وما أكثر مزالق همو.

قرر ولد الشهباء أن يبدأ بالرحلة لزيارة أهل الشيخ الفقيد إخوة كيما الهالكة، ليعزيهم في والدهم، ولربما توصل معهم إلى خطة لمواجهة توقعات المستقبل، واتخذ طريقه إليهم مرورا بإيالة أخرى في الجبل، حتى أتاهم من الجنوب بدل أن يخترق إيالة همو. وكان همو يتتبع أخبار صهره منذ بلغه أنه عازم على الذهاب لتعزية أولاد الشيخ احماد الذين فجعوا في ظرف وجيز في أختهم وفي أبيهم وفقدوا المشيخة التي كانت في أسرتهم لمدة قرون، وها هم يتعرضون لتجريدهم من جزء من أملاكهم ظلما وعدوانا وتنويتها لأعداء لهم يتصرفون فيها وهم يشهدون. وتلك معرة في بلادهم لا أقبح منها معرة ومهانة لا أشد منها مضاضة.

احتفل أهل دار الشيخ احماد بزيارة القائد والد السالمة حبيبة أختهم الفقيدة، وتذاكروا معه على ما صدر من همو، ونصحهم القائد بالصبر والتبصر، وكان يشير إليهم وكأنه سيعمل شيئا ما لإنصافهم، وأظهروا من جهتهم تجلدا ورباطة جأش.

ولما أنهى القائد ولد الشهباء زيارة التعزية تلك، عاد من نفس الطريق وجواسيس همو يترصدونه، تارة على هيئة عطارين وتارة على هيئة سواقين. ولما أقام أياما في داره بعد تعب السفر صبُح

همو ذات يوم وبغير إعلام، وارتبك هذا الأخير، ولكنه حاول أن يتمالك نفسه ويصطنع الترحيب، وكان الكلام بينهما مجاملات متصنعة، ولكن القائد الزائر دخل دار ابنته ليراها أولا، ثم تكلم إلى همو معاتبا وناصحا ومقرعا مظهرا بعض الاستنكار ملوحا ببعض التهديد وموها بعبارات الغيرة والتضامن. ولم يطل مقامه لأكثر من يوم واحد، ولم يأكل من إناء إلا إذا أكل منه همو، واستعفى مما يقدم في أوان منفردة، وكان صاحبه الذي لا يفارقه في مجلس يتحيل لإدارة إناء الطعام حتى لا يبقى على الهيئة التي يضعه عليها المسخر فوق المائدة، خوفا من تسميم صاحبه.

وجد القائد ولد الشهباء ابنته السالمة في ذبول، كوردة تذوي، ووجد العينين غائرين والوجه تبرز منه العظام، ولكنها ما تزال المخلوقة الحادة الإحساس، الزائدة الإباء، لم تتحدث لأبيها إلا عن بنتها نجمة، جمالها وكلامها وفطنتها. وقال القائد في نفسه : الحمد لله على أن بنتها تشدها من السقوط.

والواقع أن السالمة قد احتدت بعد موت كيما وقامت بطقوس مستغربة كطلي طين المقابر لجسمها قبل الاغتسال، وكالإكثار من شرب الحناء والإدمان في ترداد الكلام الذي كانت ترقي به كيما أو كلامها في رثائها. وكانت تخرج كل صبح إلى شجرة الحناء لتسقيها. وذات صباح وجدت أن يدا آثمة سقت تلك الشجرة بماء فيه ملح كثير ابيض منه التراب الذي يحيط بجذور الشجرة، وفهمت أنهم سقوها بماء حار وملح كثير لقتلها. وقالت في نفسها : أنا لا أريد الغلات من هذا الشجر ولن أستسلم كما استسلم والد كيما عندما بدأوا بإعدام شجره، ولن أسلم لهم كيما، فهي باقية في قلبي كما نبتت في الراحتين الأصابع، وبكت حتى خف عنها بعض حمل الوجد والكمد وانقلبت ترعى ما يتوارد عليها من شوق متجدد.

37

لم يفد كلام والد السالمة ولا نصائحه في همو. ولم يكن همو في حقيقة أمره مصرا على إذلال أهل كيما نقمة عليهم بقدر ما أعمته الحاجة إلى المال لكثرة المصاريف. فهو كما يظن في نفسه ليس شريرا ولكنه وقع في حبائل الرئاسة وحاجاتها كما هي عند الغير، ومنذ تقلدها وهو يحاول أن يجد حلا نهائيا لمشكلة الديون وحاجاته إلى مزيد من النفقات. وجره ذلك إلى اصطدامات وأوحال. منها ذلك الاستدعاء إلى الحضرة، وكاد أن يلقى فيه حتفه. وها هو اليوم يقسو بدافع الطمع على أناس من أشراف إيالته وممن جمع بينه وبينهم رباط المصاهرة يرتكب ما لا ينبغي وما لا يجوز، وكأنه كان يقول في نفسه : ما كان علي أن أقسو ولا أن أركب هذه الأهوال لو لم أكن بحاجة ماسة إلى المال. وكان عليهم أن يعطوني ما عندهم منه دون إلجائي إلى القسوة في معاملتهم. فالمال ينبغي أن يوضع في مكانه. وأنا أحق به.

فالقائد لم ينس نفسه نهائيا. بل يحدث له أن يرجع إليها لا ليستعرض معها مشاكله ويبحث لها عن الحلول. وإنما ينكفي إلى همومه. وإذا انقشعت في سماء سحبها المتلبدة فرجة نظر منها إلى سماء الأحلام وتمنى، ومن طيبوبته أنه يتمنى لو لم يصدر منه إذاية لأحد. ويحتج لنفسه ضد من يمكن أن يتهمها بكونه قضى شبابه كله في حياة أبيه وهو لا يظلم أحدا ولا يعتدي عليه. وحتى الآن لو استقامت أموره لم يطالب أحدا بشيء. فكل ما يريده هو كفايته من المال حتى يكون قائدا بين أقرانه. يظهر بمثل مظهرهم ويعيش مثل عيشتهم، يقيمون له حسابا ويجعلون له ذكرا. ولو تمكن من ذلك واستقام محكوموه على أداء واجبات المخزن وما يلزمه هو من النفقات لم يطرق باب أحد. ولأغلق سجنه وجعله

دكا، وهو لا ييأس من أن يتحقق له ذلك يوما من الأيـام، وتكـون مجلوبته الشركسية قد وصلت ويتاح له أن يعيش معها وينعـم بمـا لم يذقه لحد الآن من هناء العيش ورغيده، فهو في أيام فراغه كـان يفرح بالرديء لأنه لم يكن يعرف غـير ذلـك، ومنـذ صـارت إليـه الرئاسة أطل على أنواع من النعيـم، ولكنـه صـار مفتونـا عنهـا ولا تستقيم له غير لذات عـابرة لا يرجـع منهـا إلا بالحسـرة والنـدم. وشقاؤه آت من كونه يحس ومن كونه غدا يعـرف أن هنـاك شـيئا آخر. ولكن المشـكلة تكمـن في كونـه لا يسـتطيع أن يـتراجع لأنـه متورط، إذ هناك المخزن والجيران والأقران والمعجبون به والمتملقون والمتعيشون مـن نوالـه والأعـداء الذيـن لـن يسـتريح حتـى يكسـر ظهورهم. وهنالك أقوال الناس، الناس الذيـن يكبرونـه، وهـو الآن يعرف أن طائفة منهم يزيدون في تعظيمه بقدر ما يذلهـم ويحقرهـم ويقسو عليهم، الآن يعرف أكثر من ذي قبل أن الناس أنواع ومنهم من يحتاج إلى قواد لا يقتـادون بدونهـم ومنهـم مـن يحتـاجون إلى السطو والقهر لأنهم لا يشعرون بالأمان إلا إذا كانوا تحـت حمايـة السوط. إنه يشعر أنه يلبي حاجة أنـاس ليسـوا بقلـة، وسـعادتهم مرتبطة بوجوده، لذلك لم يفكر في مـا فكـر فيـه في أوقـات الشـدة واليأس حيث كان كلما ادلهم الأمر واشتد عليه الكرب فكـر في أن أن يلبس مرقعة ويخرج هائما على وجهه هاربا من المقرضـين ومـن الناس أجمعين. لكنه في هذه الأيـام لم يعـد يفسـح لتلـك الخواطـر لتداهم نفسه، لأنه يتخيل شماتة الأعداء إذا غاب، ويتصور كيـف أن الذئـاب سـتتداعى مـن تلـك السـفوح لتأكلـه وتنهشـه وتمـزق أشلاءه، فهي تتربص به كل يوم وستداهمه يـوم يتوقـف هـو عـن محاصرتها ومداهمتها بكلابه.

جلس همو ليلا وسط أعوانه، وكان من بينهم رجل سليط، يزيد تملقا للقائد كلما اشتد القائد في تقديحه ونهره، وكان هذا الشخص

ممن ذهبوا إلى دار الشيخ احماد لحضور تسليم الأملاك التي انتزعت من أهل كيما، لأن القائد فوتها لمن غالى في ثمنها، نكاية في الشيخ الهالك وأهله وطمعا في المال. أخذ ذلك السليط المتملق يصف كيف أذعن أبناء الشيخ احماد لسيطرة القائد سيدي همو. وكيف أن الجم الغفير من أهل القبائل حضروا ذلك المحشر، وكأن الموقف موقف يوم الحساب، وذكر كيف أنه هو وبقية المبعوثين نزلوا على أعداء القائد، ويقصد أهل الشيخ، كالنسور وأنهم قلموا لهم الأظافر وانتزعوا منهم الريش بدون شفقة ولا رحمة، وكيف أن أهل الشيخ حاولوا التلبيس على أصحاب القائد بإخفاء أملاك أو عدم إظهار الحقيقة بخصوص أموال أخرى. وكيف أن الحيلة لم تنطل على المبعوثين الذين استخرجوا منهم بالعنف رسوم التمليك وكيف أنهم مارسوا على المتملصين أنواع التهديد حتى أجلسوهم أمام العدول وأقروا بالحقائق وكتبت منهم الشهادات. وأنهم اقتيدوا للتطواف بالأشجار المستلمة منهم. شجرة شجرة حتى حضروا طبع كل شجرة بميسم المالكين الجدد والمالكون القدماء ينظرون، وكيف أن الحاضرين كانوا جمهورا من أصحاب الفضول يشعرون وكأن كل ضربة شاقور تنزل على الشجر لوسمه وإخراجه من ملك أهل الشيخ احماد كانت تفتح شرخا في كبد كل واحد منهم وتحدث نزيفا في قلبه.

كان القائد همو يسمع بدافع لذة التملق والتسلط، ولكنه كان يشعر غير ما مرة برغبة عارمة للقيام إلى ذلك الحاكي المتلذذ بآلام غيره وإلقائه على الأرض ودوسه بالأقدام والبصق على وجهه. ذلك لأن همو اخترقه غير ما مرة كشف وامض رأى فيه لئاما ينهبون في يوم واحد كل ما تملكه وجمعه في سنين من المحنة والكد. لذلك فهو يتصور محنة الآخرين في مثل ذلك الموقف. بل إن ما رآه في خياله يقظة صار يوقظه من نومه على شكل كوابيس

مزعجة، وتساءل في نفسه غير ما مرة وهو في اليقظة، كيف يمكن أن يحدث ذلك بالفعل ؟ واستبعد أن يقع لأنه يعرف كيف يحصن نفسه. ولا يخطر بباله أن أحدا ممن على وجهها يمكن أن يناله بسوء.

أمّنه وطمأنه ما وقع قريبا من تلك الأيام إذ تلقى رسالة من أولاد الشيخ احماد، يسلمون عليه فيها ويخاطبونه باسم "صهرنا الأود والقائد الأمجد"، وفي الرسالة إظهار للمحبة والطاعة واعتذار عن التقصير الصادر منهم في ما مضى من الأيام في حق القائد، وهو كما قالوا أحق الناس بأن يخدموه ويؤازروه ويدافعوا عنه. فأنسب مكان لهم عتبة داره وأشرف خدمة لهم أن يكون من الذين يخفرونه ويأخذون بلجام دابة ركوبه. وفي آخر الرسالة تلطف أبناء الشيخ وذكروا للقائد أنهم يستعطفونه في إعادة بعض الأملاك إليهم بثمن يزيد عن الثمن الذي أعطاه فيها من فوتت إليهم، ثم ختموا بالاستئذان في القدوم على القائد للسلام عليه.

قرئت الرسالة على القائد وأعجبه ما فيها، وشعر وكأنه اغتسل من كل شعور بالذنب في حق أصهاره القدماء. ولكنه مال إلى الشك في نواياهم وقال في نفسه : لعلها تكون منهم مكيدة ؟ ولكنه سرعان ما التفت عن وساوسه لأن حجة صدقهم أو بالأحرى حقيقة مقاصدهم هو الطلب الذي تقدموا به محتشمين من أجل استرجاع بعض أملاكهم السابقة بشرائها، وهو يفهم المعرة التي لحقتهم من فعله، ووصمة العار التي كان السبب في إنزالها بهم حينما جردهم من بعض الأملاك باسم الإرث الذي لا حق له فيه ما دامت كيما قد توفيت ووالدها على قيد الحياة. ثم إنه يعرف جيدا أن أمثاله، من أهل الجبال يعبدون أملاك الأجداد ويفتدونها بالمهج. وقد قرر أن يجيبهم إلى طلبهم إصلاحا لذات البين وربحا للفرق بين ثمن البيع الأول وثمن البيع الثاني، ومن حقه أن يعتذر

لن اشترى في الأول بحق أهل الملك الأصليين في الشفعة، وهو على كل حال لا يحتاج إلى تبرير أفعاله لأهل إيالته.

أذن القائد همو لأبناء الشيخ في القدوم عليه فجاءوا وأظهروا مزيد الأدب والانكسار، وحملوا معهم الهدايا الوافرة اللائقة. وتسامع الناس بتلك المصالحة وكانت غصة في حلق من كانوا سعوا بالوشاية بين الطرفين. ووعد القائد بأن يرد إليهم كل الأملاك إن هم ردوا على أصحابها ما دفعوه فيها. بل أطمعهم حتى في المشيخة إن أحسنوا السيرة وأظهروا مزيد الطاعة والتفاني في الخدمة.

عاد أبناء الشيخ إلى التردد على سوق قصبة القائد، وفي السوق الأسبوعي الثالث تشاجر صغير أبناء الشيخ مع أحد بائعي أحجار الملح في السوق، وصدر من هذا الابن تعد بركلة واحدة على بائع الملح فتعصب أهل بائع الملح لصاحبهم وجاءوا بكثرة يريدون الرد على الاعتداء. لكن عددا من الناس تدخلوا لحمايته لمكانته في قبيلته واشتهاره بالنبل ولمكانته من القائد الذي ماتت أخته تحته. وانكسر السوق كله لذلك الهرج وكادت تقوم فتنة.

أعلم القائد بما حدث وأرسل عسكره لتفريق المتجوقين، وأرسل أعوانه للقبض على المتخاصمين.

كان اليوم يوم خميس، وفي ذلك اليوم والسوق منعقد، وحتى قبل أن يقع الشجار اختلى الابن الأكبر للشيخ احماد بأحد الأعوان المقربين من القائد ولد الشهباء وسلمه على سبيل السر رسالة طلب منه أن يحملها لسيده ويسلمه إياها قبل أن يسقط الظلام.

وصل العون إلى سيده وسلمه الرسالة وذكر له أنها من الابن الأكبر للشيخ احماد، وأخبره أيضا بما وقع من شجار بين الابن الأصغر وأحد باعة الملح من الشجار وما كاد أن ينجم عنه من فتنة

عارمة. فتح الشيخ الرسالة ولم يجد فيها غير رؤوس آيات من القرآن، وقرأ :

إن فرعون... ومن اعتدى... بل تأتيهم... لقد علمت... إن موعدهم... خذوا زينتكم... قال عفريت...

عرض القائد الرسالة على طالب من الحذاق يستكتبه، وهو من الحفاظ، فاستحضر الآيات المبدوءة كلها. واختلى القائد والطالب أخذا يجتهدان في فهم مضمن الرسالة وفك ألغازها.

ظهر لهما أن الأمر على غاية الاستعجال وأنه يتعلق بشيء حرص المرسل على ألا يطلع عليه القائد همو وألا يفهمه أحد ولو وقعت الرسالة في يده. وفي وقت متأخر من الليل كان القائد قد فهم المقصود بمساعدة الطالب ولكن القائد، قد لبّس على الطالب وذهب به في منحى آخر للفهم غير المعنى المراد.

أما القائد همو فقد أجرى الصلح بين صهره أخي كيما وبين بائع الملح وعصابته، وذلك على أساس تعويض عن الضرر بمال، ولكنه طلب من ولدي الشيخ أن يقضيا تلك الليلة عنده حتى يثير معهما قضية ما طلباه من استرجاع الأراض بالشراء.

تغذى ولدا الشيخ ودخلا مع القائد إلى المسجد الذي في قصبته لأداء صلاة الجمعة. وكانا في الصف الثاني الذي وراء القائد وأصحابه.

وعندما انتهت الخطبة وأقيمت الصلاة، تحرك الابن الأصغر للشيخ احماد حتى يصلي وراء القائد همو. وفي وقت السجود أخرج هذا الابن خنجرا من تحت جلبابه وارتمى على القائد همو وطعنه في ظهره طعنات قاتلة.

لم يصرخ القائد ولكنه سقط على الأرض من حينه وقد فارق الروح، ورأى المصلون ما وقع وفروا متدافعين يقصدون الباب قبل أن يختلط الحابل بالنابل ويتصرف حراس القائد وعسكره بما

لا تحمد عقباه. وانتشر الخبر بسرعة واختلف في هوية القاتل، ولم يهتم الناس بـه وإنمـا أهمهـم الحـدث : اغتيـال القـائد ومصرعـه والتهافت لنهب خزائنه.

رأى الناس فرسانا يدخلون دار القائد ويختطفون السالمة وبنتهـا وخادمتيها ويخرجون من باب المدينـة الـذي مـن جهـة السـهل، ورأى الناس فرسانا آخرين ومـن بينهـم أبنـاء الشـيخ احمـاد وقـد خرجوا من الباب الذي من جهة الجبل وأكلتهم الشعاب.

هاج النـاس وماجوا ولم يهتمـوا بدفـن القتيـل ولكنهـم اهتمـوا بنهب داره حتى تركوها قبـل أن يرخـي الظـلام سـدوله في ذلـك اليوم خاوية عارية حتى من أخشاب سـقفها. وصـل الذيـن ذهبـوا بالسالمة إلى دارها، وحمـد والدهـا الله علـى أنـه فهـم القصـد مـن الرسالة وأدرك بنته قبل أن تشب الفتنة، وتعجب لفهمـه الطـالب وقال له : أنتم الرؤساء الفهماء، أما نحن الفقهاء إنما نعينكم علـى المراد ولا نفهمه. وكان القائد يتفاخر مدة طويلة بعـد الحـادث، في دائرة جلسائه المقربين بفطنته في فهم إشارات آيات القرآن الـواردة في رسالة أولاد الشيخ احماد. فقـد فهـم أنهـم يريـدون الـرد علـى طغيان همو بعدوان وأنهم سيفاجئونه بذلك وأنهم يريدون من قـائد السهل أن يستعد لإخراج بنته السالمة خوفا عليها مـن الفتنـة وأن الموعد المقرر هو غد ذلك اليوم وأن الأمر سيتم في صلاة الجمعة وأن عليه أن يرسل لاختطاف البنت فرسانا كعفاريت سليمان.

غير أن القائد كان يحرص علـى ألا يشـيع خـبر تلـك الرسـالة حتى لا يتهم بالمشاركة في المؤامرة أو الضلوع فيها.

38

انصرمت مدة أربعة أشهر على رجوع السالمة إلى أهلها. وفي يوم استكمال عدتها استحمت ولم تتزين بما يثير الانتباه، فهي ما تزال في كآبتها التي تلبست بها منذ وفاة كيما.

دخل والدها القائد ولد الشهباء ووجدها عند العصر هي وأمها وبنتها نجمة وإخوة لها حول مائدة العصرونية. مأكولات متنوعة ألذها عند السالمة، لما كانت تشتهي، رغائف مسمنة بعسل وقهوة.

جلس الوالد ناحية على طنفس، وقامت السالمة، ولم تكن رأته في ذلك اليوم قبل تلك الساعة، فغسلت يديها وسلمت عليه، وكان لاحظ استحمامها وبش له. وكان حسب لها من قبل الأيام والليالي لتخرج من عدتها، وهو ينتظر تلك الساعة عسى أن يضع حدا لعذابه بالليل وهو يتصورها في كآبتها ووحدتها القاتلة، جذبها إليه وأجلسها قربه ورأسها متكئ على كتفه، وأخذ يفرك شعرها وما يزال فيه أثر البلل، وبعد لحظة أجهش بالبكاء وقام وانسحب إلى غرفة أخرى.

اندهش الأولاد وتنكدوا، بينما فهمت الأم التي تعلم كل شيء أن عليها أن تتبعه إلى غرفته لكي تعينه على المضي في خطته إلى النهاية. تحيرت السالمة أتتبعهما أم تنتظر حيرى، وإن كان حدسها قد خبرها بجلية الحرقة التي في كبد الوالد، وبعد هنيهة خرجت الأم وجرت البنت إلى مكان قصي في القصبة وقالت لها دون مقدمات :

– إن والدك يبكي علي كل يوم كالثكلى في بيت نومنا بسببك أنت، ولن يبرد كبده إلا زواجك من يتيم عمك الذي تربى معك كأخيك الأكبر في كنفنا، وهو معتمدنا في كثير من الأشغال اليوم

وأسير الوحدة منذ أن توفيت قبل سنتين زوجته في نفاسها الأول. تحوزين كل رضاي إن أخرجت والدك من عذابه.

لم تفاجأ السالمة بشيء مما سمعت، وعرفت أنها الحقيقة، فالأب يعاني آلاما من أجلها وسيبقى كذلك ما لم تسعفه في تصوره لسعادتها. ولن يكلفها الأمر غير إسعافه في أمر عادي وإذعانها لحياة عادية، حياة ستكون ولا شك أقل خيبة من الحياة التي أسعفت فيه طموح الأب ونخوته لتصفية أراضي الحدود مع زوجها المقتول القائد همو، فوافقت بأسرع مما توقع الوالدان، واشترطت أن يتم القران بعد سبعة أيام أي في اليوم الخامس عشر من ذلك الشهر.

استغربت الأم لذلك الحساب واعتبرته تفصيلا تافها وذهبت تجري وتزغرد وهي تحمل البشرى لزوجها القائد والد السالمة.

جاء القائد إلى بنته وقبلها في جبينها قبلة زلزلت أركان نفسها لأنها ذكرتها بقبلة وداعه لها وهي تزف في حللها لهمو، فما كان منها إلا أن انتفضت وفرت منه لا تلوي على شيء والتحقت بغرفتها وتدثرت في نزوة واضطجعت وبكت وهي لا تريد أن تقابل أحدا طيلة تلك الليلة وفي صباح الغد إلى وقت الظهر.

وفي وقت الغذاء دخل عليها وهي مع أمها وإخوتها ابن العم العريس المقترح وكله حبور واستعداد لإبداء تعابير الشكر والامتنان، فلم ترفع إليه عينيها خفرا على خلاف ما هو معهود في بيئتها من الطلاقة في تلك المواقف، وعلى غير ما كان معروفا عليها هي نفسها حتى مع والدها في كثير من الأمور المتعلقة بزواجها عندما كانت تقول له مثلا :

"بعتني لصاحب الجبل القصير بشبر تراب ومغرفة ماء".

فتغامزوا حولها وقالوا إنها تأثرت بالقوم الذين عاشرتهم في بيت همو. والواقع أنها هي نفسها قد أحست بمشاعر دخيلة عليها، أحست وكأن شيئا من طبيعة كيما قد انتقل إليها.

وفي ليلة الرابع عشر اختلت السالمة في غرفتها وراقبت القمر في تمامه من شرفتها طويلا بعد العشاء والنساء نيام. ولما أوشك القمر أن يتوارى عن منظرها تسللت إلى فضاء خارج الغرفة وجلست على أريكة وتابعت سير القمر في السماء وهو يمر بقليل من السحب كأنما هي مناديل يمررها على صفحة خده، ثم يستمر في التفرس فيها، واستعادت في ذهنها عشرة كيما وآلامها وكأنما تعيش تلك الذكرى طليقة الوجدان في يومها الأخير. وكأنما تؤدي صلاة أخيرة لا تستطيع أن تتهيأ لها بعد ذلك اليوم على أحسن طهارة. ومن تلك الطهارة التي لن تتأتى لها فيما بعد، قدرتها على البكاء على تلك الذكريات، وهي قريرة العين، إذ كانت تتصور أنها بزواجها الجديد ستخرج إلى حياة عادية من حزن ممض كان يتيح لها لذة عميقة في دغدغة ما علق بأحشائها من لصيق آثار كيما. وكأنها قذف بخار يتولد منه كل يوم ملك أنيس.

شعرت السالمة بعد استيقاظها في الصباح الباكر أن حمى عنيفة قد هدتها، وأنها قد تخلصت مع ملح عرقها، وهي نائمة في تلك الليلة، من عبء أشباح مداهمة بعد أن تحولت كل ذكراها لكيما إلى شعور تكثف في قدر جوهرة رفيعة استقرت في قلبها إلى الأبد، ولن تتضايق ولن تزول بأي مشاعر أخرى ستعرفها في مستقبل الأيام. وتعجبت لأنها كادت أن تتأكد أن القلب يمكن أن يتسع لمشاعر مختلفة المقدار، يرتبها في أدراج.

كانت ما تزال في فراشها وهي تتخلص من آثار الاسترخاء بعد النوم عندما شعرت وكأن عاصفة أحاسيس جديدة تربطها بالماضي تتسرب إلى نفسها من راحتها اليسرى، حيث جددت لكيما رسم

آخر شجرة حناء قبل وفاتها بشهر كامل، وعندها ارتعشت وخافت فقامت وكأنها مدفوعة بقوى خفية فوضعت على كسوة نومها حزاما ووضعت على بعض شعرها منديلا أحمر وخرجت حافية القدمين واتجهت تخترق أبواب القصبة إلى أن بلغت بابها الكبير، وكان عليه بوابان مستيقظان، وكان رجال يضعون في الغلس أحمالا على بهائم، فلم تأبه لهم، بينما تواروا من جهتهم وكأنهم يتصنعون عدم الالتفات إلى منظر لم يألفوه. فتقدمت محاذية سور الطابية الحمراء، وعبر أنقاض بجوار القصبة وبمحاذاة جدران أجنة مخضرة إلى أن أفضى بها السير إلى مرعى خلاء مفتوح لا طريق فيه ولا يؤدي إلى اتجاه معين، وبسيرها هناك فوق الأشواك أحست بلذة غريبة، وأسرعت لكي تتعوذ على وخز الشوك ولا تتردد، ثم وجدت نفسها تخرط بساقيها قتادا وتخترق سدرا. فتدمى ولا تلتفت، وتقدمت ساعة وكأنها تتجه لتلقى الشمس وهي توشك أن ترتفع أمامها بعيدا في الأفق. وكان حرها قد تقدمها وضوؤها قد غمر كل شيء تقدمت السالمة في ذلك الغمر وكأنها تستحم بنور الشمس من آثار القمر. ولم تشعر بتحديها لتلك الأشواك إلا وقد جرت إليها من كل جانب كلاب رعاة أغنام أدركتهم في المرعى، ولم تأبه بنباح الكلاب وهجومها والرعاة يطردونها عنها ويندهشون لما يرون من إقبال حورية في اتجاههم، ولما انتصبت أمام أحدهم، وكان بين يديه حَمَل من نتاج ذلك الصباح، أخذت منه الحمل الوليد وعادت به وكأنها جاءت خصيصا لذلك الغرض.

اقتربت السالمة من قصبة أبيها فتنبهت إلى أن أعمدة الدخان المتصاعدة منها في ذلك الصباح قد تكون زائدة في عددها وقوتها على ما هو معتاد، بسبب الاستعداد للعرس، فهي مدار أمر لم تستقر تماما عما إذا كانت تريده أو لا تريده. ولكنها قبلته وسيتم

في تلك الليلة بكل تفاصيله، ولعلها قد تهيأت له الآن ولن تستفز أحدا لكي لا تزيد من محنة أبيها.

دخلت ومرت بالخادمات وبغيرهن والكل يحسبنها ما تزال تغط في نومها، وعادت إلى غرفة النوم ولم تستيقظ إلا عند الظهر.

نبهت الخادمات أم السالمة إلى أن إزارات فراش ابنتها تحمل آثار دماء تحققت أنها من جروح. ولم يجرؤ أحد أن يسأل السالمة لأنها الآن عروس، والعروس في هشاشة قارورة رحيق ثمين يخاف عليه أن يهرق أو يتبخر. وهشاشة السالمة زائدة بآثار محنتها الأولى بكل ملابساتها، عذاب معاشرة همو وعذاب تعلقها بكيما وإغراقها في حب نجمة.

اجتمعت الأم وعريفاتها وبعض ماردات الخدم على فحص السالمة دون إشعارها فتبين لهن أن قدميها وساقيها تخضبت بآثار جراحات من جراء خروجها ذلك الصباح ومشيها في الشوك بناء على ما أخبر به الرعاة، لكن الأم غارت على ابنتها من فضول أولئك الإناث وجددت أوامرها لكل واحدة وصرفتهن إلى ما ينتظرهن من الأشغال.

فكرت الأم طويلا دون أن تنتهي إلى فهم المغزى من خروج البنت إلى الخلاء ومشيها في الأشواك، واحتاجت إلى من يشاركها في تجنب أي نكسة تصيب ابنتها في ذلك الظرف الدقيق. وفجأة برقت في ذهنها فكرة إشراك الياسمين، كبرى الخادمتين المهداتين للسالمة بمقتضى عقد همو عليها، فالياسمين أمينة سر السالمة وهي التي تعرف أكثر من غيرها دقائق عشقها لشجرة الحناء، وهي التي حضرت جلسة إنزال القمر حتى شرب من ماء غسل كيما.

حدثت الأم خادمة بنتها وتركتها تفكر عسى تطمئنها بأن بنتها ما زالت تصلح للزواج وأن كآبتها أيام العدة لا تخفي مرضا مزمنا أصاب نفسها أو تمييزها بالعقل.

وفي استراحة الأم بعد الغذاء التحقت بها الياسمين وقد تبادلت مع السالمة بعض العبارات التي لا تشتم منها أي تجسس على دخيلتها فقالت :

– لم أهتد إلى معرفة ذلك اللغز يا سيدتي، ولكن علينا أن نحرص على خاطر مولاتي السالمة، فلا نتحدث إليها عن شيء اسمه الحناء ولا نقيم لها عادة الحناء التي تسبق الزفاف سيما وأن آثار الشوك في قدميها وساقيها مما لا يجوز أن تطلع عليه النساء.

عندها برقت بارقة في ذهن الأم وفهمت كل شيء وصرفت الخادمة وغمغمت وهي تقول :

الحنا شوك وتحنّي والشوك غير شوك
يجرح وما يحنّي
شجرة الحنا تجيب من الشوك غير هي تحنّي
السدرة ما هي غير شوك غير حيث تجرح
يمكن تهنّي

حمدت الأم للخادمة اجتهادها وعملت بنصيحتها وأقيم العرس في أبسط المراسيم، وأفهم الجميع أن ذلك المظهر هو المناسب لتلك الحال. وحتى العريس الجديد كان من الكياسة بحيث ترك لابنة عمه أن تفسح للأمر الجديد القدر الذي تريد من خاطرها. وكان من كياسته عناية فائقة لم يبدها من قبل ببنتها نجمة.

كان لتلك المعاملة مفعول سحري على السالمة، إذ ما كان سابع يوم زواجها حتى صارت تتصرف على وجه شبه عادي في عين الجميع، بل عادت حتى مع أبيها إلى تبادل شيء من التمزح والتندر على حال يشبه ما كان يدور بينهما قبل زواجها الأول.

كانت بعد أقل من ثلاثة أشهر من زواجها بابن العم في جلسة عشوية هي وزوجها وبنتها نجمة والوالد والوالدة والأخوات. وكانت الخادمات يذهبن ويجئن في مناولة المشتهيات وتقريب الطيبات، وانشرح صدر الوالد لما رأى عودة النضارة والمرح إلى وجه ابنته السالمة. ورأى حفيدته نجمة في سنواتها التسع تتمختر وتجر حزمة من الشعر الفاحم يثقلها، تفرس في شفتيها فإذا هي بالإرث من الوالدة قد جاءت مرققة على خلاف ما كانت عليه شفاه الأب المشنفرة، وتأمل العنق فإذا هو معتدل وإن كان لا يطول على قدر عنق الوالدة والجدة، وتفرس في عينيها فإذا هما في الاتساع واللمعان قد تضاعف جمالهما بإرث من همو ومما عند ابنة ولد الشهباء. وفي الجملة فقد رأى أن حفيدته ستكون نجمة طبق اسمها على مسماها. وهو لم يغلط عندما قال:

السهول تسقيها الجبال والزين يغلب.

وبعد هذا التفرس نادى الجد حفيدته مستعينا بحركة يديه وهو ليس بعيدا من ملعب البنت وقال :

- اقتربي مني وعانقيني يا ابنة المشموت. اقتربي !

جاءت البنت تجري وارتمت في أحضان جدها وهو يكرر :

- أحبك يا بنت المشموت.

عندها تدخلت أم السالمة وكأنها تدافع عن صهرها الفقيد أو تحاول صون عواطف بنتها السالمة التي لا تتنكر مع كل ما وقع لكل ذكرياتها القديمة، أو تريد على الأقل أن تتبين ما يقصده القائد بوصف والد نجمة بالمشموت، وقالت :

- من الذي شمته وهو كان ثعلب الجبال ؟ ربما كنت المشموت أنت !

فقال القائد ولد الشهباء :

– شمته قريب لباروخ، أخذ منه ما استخرجه من نفائس نقود الذهب التي كانت في الكنز ووعده بأن يشتري له بها حورية من جهة بلد الترك تضبط له أشغاله على هيئة ما في قصور كبار الوزراء وأهل الإمارة. وقد كان ينتظره الشهور الطوال وهو يتلقى منه رسائل يحكي له فيها أهواله ويستزيد منه المال بواسطة تاجر في جبل طارق. وكان همو يصدقه، بينما كان قريب باروخ مختبئا في ملاحهم غير بعيد من القصبة. ولو لم يمت القائد هذه السنة لفر باروخ وعائلته كلها إلى مكان مجهول. أما الآن فقريب باروخ يقيم بالدارالبيضاء، وقد أظهر أمواله الكثيرة ولا يستطيع أحد أن يمد إليه يده لأنه دخل في حماية الطليان.

تعجب النسوة والصهر. وقالت والدة السالمة : أخزاه الله ! لقد حرمنا من الإرث، وحفيدتي تستحق ذلك الدينار المربع.

عندها قفزت السالمة وهي تصرخ : أماه ! أماه ! وهربت منهم إلى داخل الدار وهي تصرخ، وقاموا وراءها وتبعوها وهم في روع كبير مخافة أن تعيد إليها تلك الذكرى كآبتها.

لم يكن والد السالمة محقا في زعمه، بل كان هو أيضا مشموتا. وفاته الخبر اليقين، لأن شخصا من ذوي الجاه استغل القائد ولد الشهباء منذ مدة في تتبع أخبار الكنز الذي عثر عليه القائد همو، وكان هذا الشخص على اتصال بأسياد آخرين تتبعوا حركات ندري، مبعوث همو، فحجزوه عند السفر وأخذوا منه نصف المبلغ الذي معه لأنهم اعتبروه زائدا عن المطلوب، وأملوا عليه كيف ينبغي أن يتصرف في إخبار الذي بعثه في غرضه، ثم تتبعوا خطواته حيث حل وارتحل وعاد بالشركسية، وقد قاموا بحجزه

عند النزول بها من السفينة، وضغطوا عليه حتى عاد إلى بلاد الجزائر وصرفوا المرأة إلى شخص كان يزايد فيها. ولكي ينهي الشخص صاحب الجاه المذكور ذلك الموضوع مع قائد السهل كتب إليه أياما بعد مقتل همو يتهم ندري بالخيانة.

شرح كلمات وعبارات عامية في الزجل الوارد في النص :

ص. 25 – ما يرضي غزالي يكن. ظفر واحد من أصبعه علي لا يهون.

ص. 29 – الزين يغلب = لما كانت الأم حسناء وهي من السهل فنسلها يكون على جمالها وإن كان الأب الذي من الجبل غير وسيم.

ص. 29 – كسيف الحرب = مثل السيف في يد المحارب

– لماذا أبيعك بالمال يا حبيب القلب

ص. 93 – همو ركلته حمارة وابن الزارة يضرب له الطارة = يتملقه ويشجعه

ص. 96 – يحتاج كلام الحكمة إلى فاهمين

وتحتاج السياسة إلى لوازمها

وكما أن الألف يتبع اللام (في كلمة : لا)

فإن الأحمق من الناس هو الذي يقع في هوى النساء (ذوات الأوشام)

ص. 116 – عفا عليا = عفا عني

– أما القائد همو ومساعدوه من شيوخ القبائل، فلا تسألني عنهم ولو خُيرتُ فيهم لدفعت بهم في النار.

ص. 219 – انفرد باروخ بأكل الخوخ (خيرات البلد)

– ولم يبق للقائد همو سوى الحشف أو النواة

– أحدهما يوثق الضحية والآخر يذبحها

- وكل ماهر في عمله

- الحسناوات في قصور الكبراء. وهمو مغرر به

- أنفق ذهبا وفضة، والذي لايصلي (كناية عن اليهودي) اختفى.

ص. 230 - أيتها العليلة أنا مشغولة بك، اختطفتك مني أرواح لا أراها.

من غيـــرك كنتُ أواسيـــــــه ومن غيرك كان يواسينـــي

سباك أمير ا لأرواح المخفية ظلما وأنت سكنتني بالاستحقاق

سكنك أمير الأرواح في هذه الأيام وأنت منذ مدة سبيتنـــــي.

ص. 237 - عمروها له بامرأة محدودبة الظهر، يالها من ورطة.

ص. 244 - أخبرني أيها الخديم (من الجان) أين يوجد الدرهم المطبوع

ص. 244 - إذا سألت عن المطبوع، فقد أعرف وقد لا أعرف.

أكاد أرى أن مؤامرة ستقع وأن الثأر سيؤخذ، والروح تزهق، والمطبوع لا أمل في العثور عليه،

ص. 251 - ما أخذتهم بك شفقة ولا رحمة يا مذوبة القلوب، الحكم فيهم إلى ا لله علام الغيوب.

ص. 252 - أيها الداخلون (الجان التي تسكن كيما) اخرجوا من بستاني كيما وردة نبتت في قلبي.

أتوسل إليكم أن تهجروها وتسكنوني
فهي لا تتحمل، عسى أن تفهموني
هي وردة أرويهـــا بحبـــــــي

ارأفوا بها وعذبوني في مكانهـا

كيف يعقل أن يُظلم من لا يَظلم

كيف تنزل نوائب الدهر عشـواء

كيف يَغصبُ من غَصَب. وحبيبتي تؤدي الثمن.

كيف يُنكأ جرحي على الدوام.

ص. 254 – اهبـط أيهـــا القمـــــر مثيلتك حسنا في عنـــاء

أيتها النجمة ! رقي لهـــا سيدتـي في محنـــــــة

توسلت إليك أيها القمـــر أن تظهر غيرتك عليهـا

أيتها الوديان طمي وفيضي في مثل طوفان يوم الفناء.

ص. 255 – زادت = تحركت. أو شكون = من ذا الذي.

مولات الزين = صاحبة الجمال. نازلا = نازلة.

خلي ضـــوك = اتركي ضوءك.

غير قيلو مولات الزين = إن أشفقتم على ذات الحسن.

فلينا = في الإناء. للا برات = سيدتي قد برئت.

ص. 263 – بزاف على الدنيا = كثير على الدنيا. واش = هل.

اتسنا = أن تنتظر. احنا ما سخينا بها = يعز علينا فراقها.

مول = مالك.

ص. 281 – تجيب من الشوك = تشبه الشوك. غير هي = غيرأنها.

من أعمال المؤلف

- إسهام في دراسة المجتمع المغربي في القرن التاسع عشر، نشر كلية الآداب بالرباط. طبعة ثانية 1984.
- التشوف إلى رجال التصوف لابن الزيات التادلي (ق 7 هـ) "تحقيق"، نشر كلية الآداب بالرباط. طبعة ثانية 1998.
- دعامة اليقين في زعامة المتقين، للعزفي (ق 7 هـ) "تحقيق"، نشر مكتبة خدمة الكتاب بالرباط. طبعة أولى 1989.
- مواهب ذي الجلال في نوازل البلاد السائبة والجبال، لمحمد الكيلي (ق 12 هـ) "تحقيق"، نشر دار الغرب الإسلامي، بيروت طبعة أولى 1997.
- جارات أبي موسى (رواية) نشر دار القبة الزقاء، مراكش، 1997.

مطبعة النجاح الجديدة
الدار البيضاء

قائد قبائل يبني سلطته، وفي بناء السلطة يرقى في مدارج سجن تضيق سراديبه وتضيق إلى حد الاختناق، وفي هذا المصير تحضر المرأة : توشية أو تكملة أو ضرورة أو إكسيرا لا غنى عنه للحياة. ولكن المرأة تظهر سلطة قائمة بنفسها. فهي شرك للسلطة أو شَرك، ولكن الخوف من الذل لها عنادا لا يعدم حبها هي، فهي حب متدفق، كاسحة مجاريه، إذا اعترضته الحواجز مال، وحدث في هذه الرواية أن جدران هذا السجن كونت في ظهر صاحب السلطة سدا التقى فيه مجريان، مجرى أنفاس امرأة قوية بجمال جريء ومجرى عواطف امرأة أخرى تمتص كل عنفوان صاحبتها بباطن عميق، مغر بصفائه وسكونه حتى أغرى بالنزول فيه قوة مدمرة، ولكن هذه المرأة الأخيرة تؤدي تكاليف سلطة المهووس، فتهلك، وينقض البناء على صاحبه ويهلك، وتبقى للمرأة الأولى جراح ومرارة وذكريات وطفلة جميلة، قنطرة حية طارئة في عادي الأيام بين عالمين.

أحمد التوفيق،

كاتب هذه الرواية، من مواليد 1943، بالأطلس الكبير قريبا من مدينة مراكش. اشتغل أستاذا بشعبة التاريخ بكلية الآداب والعلوم الإنسانية بجامعة محمد الخامس بالرباط من 1970 إلى 1989 حيث عين مديرا لمعهد الدراسات الإفريقية بنفس الجامعة. وفي عام 1995 عين مديرا للمكتبة الوطنية (الخزانة العامة).

قدم رسالته الجامعية عام 1976 في موضوع التاريخ الاجتماعي للبادية المغربية في القرن التاسع عشر. واهتم بعد ذلك بدراسة قضايا تاريخ العصر الوسيط، مثل سيرورة اندماج بلاد من الأطراف في إطار النسق الإسلامي. وفي نفس السياق قام إلى جانب نشر أبحاث تنتمي إلى التاريخ الاجتماعي، بتحقيق نصوص شهيرة تتناول أدب المناقب والفتاوى. صدرت له رواية سنة 1997 بعنوان « **جارات أبي موسى** ».

مكتبة نوميديا 61
Telegram@ Numidia_Library